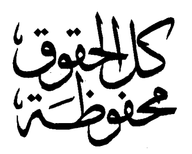
مدخل إلى
الثقافة الإسلامية

مدخل إلى
الثقافة الإسلامية

تأليف

الدكتور/ محمد علي سلامة
أستاذ الثقافة و الدراسات الإسلامية
كلية الآداب جامعة حلوان
الدكتور/ رجب أبو مليح
دكتوراة في الفقه وأصوله
كلية دار العلوم جامعة القاهرة



للناشر

مكتبة المتنبي

المملكة العربية السعودية

الدمام شارع المستشفى المركزي

هاتف / ٨٤١٣٠٠٠ / ٨٤١١٣٩٥

فاكس / ٨٤٣٢٧٩٤

الطبعة الأولى

٢٠٠٥ م – ١٤٢٦هـ

رقم الإيداع ٢٠٠١٩/٢٠٠٥

مقدمة

الثقافة الإسلامية باب واسع، وسر اتساعه انطلاقه من القرآن الكريم الذي تعددت الجهود التفسيرية حوله، ولا تستطيع واحدة منها أن تدعي إلماماً وإحاطة بالقرآن الكريم كلام الله العزيز المعجز ببلاغته بجميع نواحي الحياة، فهو الدستور الذي وضعه الله للبشرية ليصلح من أمرها ويرفع من شأنها، يصنع لها حضارة ليخرجها من طور المدنية المتحضرة، حيث وضع لهم ميثاقاً أخلاقياً وسلوكياً ينظم لهم حياتهم ويهديهم إلى طريق الله سبحانه وتعالى الذي أراده لهم ليرضى عنهم.

وبجانب القرآن الكريم كانت سنة النبي ﷺ التي تعد بياناً للقرآن الكريم، يفسره ويوضحه بالتطبيق العملي والتفسير القولي، فأضافت إلى ثقافة المسلمين بعداً آخر، من حيث اتساع الأفق الثقافي، والتنظيم السلوكي الذي من شأنه أن يصنع مدنية وحضارة، وهو ما انجلى بوضوح في نهج الصحابة الذين نهلوا من هذين المنبعين الثريين، وبأفعالهم وتصرفاتهم في أمور حياتهم شكلوا النموذج الأمثل للمجتمع الإسلامي.

وفى هذا الكتاب **(مدخل إلى الثقافة الإسلامية)** سوف نتحدث عن بعض الأفكار الراقية التي صنعها الإسلام فى المجتمع علمياً واجتماعياً وسياسياً، والتي كانت أساساً لثقافة إسلامية خالصة فى هذه المجالات، مع إبراز أثر هذه الثقافة فى حياة الإنسان، لنؤكد على حقيقة أن "الإنسان المثقف هو الذى يستطيع أن يفصح عن إنسانيته إفصاحا يتحول به من شخص منساق بالغرائز والتقاليد إلى شخص تحرر من عبودية الغرائز والتقاليد وأصبح يتبع فكراً سليماً ناضجاً، فالثقافة ترمي إلى الكشف عن آفاق الإنسانية المتسامية."

ولما كانت الثقافة هي محور هذا الكتاب فسوف نبدأ بالحديث عن معناها، والفرق بينها وبين العلم، والفرق بينها وبين الحضارة، ثم نتحدث عن مميزات الثقافة الإسلامية.

ثم نتحدث عن خصائص الثقافة الإسلامية، فالثقافة الإسلامية نابعة من كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ومن ثم فالثقافة الإسلامية ثقافة ربانية، وهذا المصدر الرباني يؤكد على حقيقة أخرى من أهم خصائص الثقافة الإسلامية وهى أنها ثقافة ثابتة، ونعنى بالثبات هنا أنها إلهية المصدر فقط، ولكنه لا يعني الجمود أو ثبات التصور الناتج عنها، إنما هو مصدر لكل المميزات الجيدة التي تميزت بها لأن الله العظيم هو مصدر ثباتها، قدراته في الكون غير محدودة، ويملك بقدرته تغيير مظاهر الكون.

كما أن هذه الثقافة تتسم بالشمول والإيجابية والواقعية والمثالية، فهي ثقافة تشمل كل مناحي الحياة وتراعى متطلبات الإنسان وتتسق مع الفطرة النقية، كما أنها تحقق للإنسان الخير وكل ما يصلحه .

ثم نتحدث عن العقيدة الإسلامية التي هي أساس هذه الثقافة ومنبعها، فعرفنا العقيدة وبيّنا أركانها وخصائصها ومميزاتها، وأثرها فى حياة الفرد والمجتمع.

ولما كان الإنسان صاحب العقيدة الصحيحة الثابتة هو القادر على مواجهة كل التحديات والمعوقات، فقد ختم موضوع العقيدة بحديث عن التيارات المعادية وكيف نواجهها بثقافتنا الإسلامية، وتحدثنا كذلك عن بعض التحديات المعاصرة، مثل: التبشير وأساليبه، والاستشراق وخطره، وذكرنا بعض شبهات المستشرقين والرد عليها، وأوضحنا وسائل

المستشـرقين في تحقيـق أهـدافهم حتـى يكـون المسـلم علـى بينـة مـن أمـره ويكون قادراً على دحض شبهات هؤلاء بالحجة الناصعة والبينة الواضحة.

ولما كانت المرأة فى الإسـلام لها مكانتها فقد أفردنا موضوعاً عن هذا الأمر تحدثنا فيه عن وضع المرأة الاجتماعي قبل الإسلام، وكيف كرم الإسـلام المـرأة، ورفـع قـدرها، وأعلـى مكانتهـا، وذكـرنـا بعـض صـور ذلـك التكـريم، وتحـدثنـا عـن أهميـة الـزواج باعتبـاره الطريـق الصـحيح لتكـوين الأسرة المسلمة التي هـى أسـاس المجتمـع، وبينـا المعـايير الـتي وضعها الإسـلام لاختيـار الزوجـة الصـالحة، والـزوج الصـالح، وتحـدثنا عـن جـانبين مـن أهـم الجوانـب الـتي تحقـق الاسـتقرار للأسـرة الناشـئة والزوجيـة الصـالحة وهمـا الرضا والكفاءة، فوجود هذين العنصرين يحقق الأمان والاستمرار للأسرة.

ثـم تحـدثنا عـن العلـم، وبينـا كيـف رفـع الإسـلام قـدر العلـم وأهلـه باعتبـاره الطريـق إلى تحقيـق الخير للإنسـانية، وذكرنـا الآداب الـتي وضعها الإسلام لطلب العلم، وآداب العالم والمتعلم.

ثم ختمنا الكتاب بالحديث عن جانب من أهم الجوانب الـتي أبـدعتها الثقافـة الإسـلامية، وهـو العلاقـات الاجتماعيـة والدوليـة فـى السـلم والحـرب لنـبين عظـم هـذه الثقافـة وأصـالتها وأخلاقهـا، فهـي ثقافـة السـلام والقـيم والأخلاق، فتحدثنا عن أغراض الحرب فى الإسلام، وحرص الإسـلام على الوفاء بالعهود والمواثيق، وتحدثنا عن خلقين من أعظم الأخـلاق الـتي جاء بها الإسـلام، واعتبرهمـا الأسـاس فـى معاملـة النـاس بعضـهم لـبعض، وهمـا الإحسان والتسامح.

لقـد كانـت الثقافـة الإسـلامية (بحـق) مـن أعظـم مـا قدمـه الإسـلام للبشـرية، ولقـد اسـتطاعت هـذه الثقافـة أن تصـنع حضـارة راقيـة عظيمـة،

حضارة تشمل الأخلاق والسلوك والمعارف النظرية، كما تشمل العلوم التجريبية، بمختلف أنواعها.

فعلى المسلم أن يثق فى ثقافته الإسلامية ويعرف أنها هى مصدر الخير له وللبشرية جمعاء، ومن ثم وجب عليه أن يكشف لكل الناس هذه الصورة المشرقة للثقافة الإسلامية، ولن يستطيع أن يقوم بهذا الدور إلا إذا أدرك هو نفسه عظم هذه الثقافة ومظاهرها وجوانبها المضيئة وهو الهدف الذى يسعى هذا الكتاب إلى تحقيقه فى نفس كل مسلم ومسلمة.

والله الموفق إلى كل خير وهو حسبنا ونعم الوكيل، فنعم المولى ونعم النصير.

المؤلفان



مقدمة عن الثقافة الإسلامية

وتشمل

معنى الثقافة الإسلامية

الفرق بينها وبين العلم

الفرق بينها وبين الحضارة

مميزات الثقافة الإسلامية



معنى الثقافة الإسلامية

الثقافة الإسلامية باب واسع، وسر اتساعه انطلاقه من القرآن الكريم الذي تعددت الجهود التفسيرية حوله، ولا تستطيع واحدة منها أن تدعي إلماماً وإحاطة بالقرآن الكريم كلام الله العزيز المعجز ببلاغته وإحاطته بجميع نواحي الحياة فهو الدستور الذي وضعه الله للبشرية ليصلح من أمرها ويرفع من شأنها يصنع لها حضارة ليخرجها من طور البداوة إلي طور المدينة المتحضرة حيث وضع لهم ميثاقاً أخلاقيا وسلوكيا ينظم لهم حياتهم ويهديهم إلى طريق الله سبحانه وتعالي الذي أراده لهم ليرضي عنهم .

وبجانب القرآن الكريم كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي تعد بياناً للقرآن الكريم يفسره ويوضحه بالتطبيق العملي والتفسير القولي، فأضافت إلى ثقافة المسلمين بعداً آخر، من حيث اتساع الأفق الثقافي، والتنظيم السلوكي الذي من شأنه أن يصنع مدينة وحضارة، وهو ما انجلى بوضوح في نهج الصحابة الذين نهلوا من هذين المنبعين الثريين، وبأفعالهم وتصرفاتهم في أمور حياتهم شكلوا النموذج الأمثل للمجتمع الإسلامي .

معنى الثقافة

ولنبدأ من البداية وهي البحث عن معنى الثقافة أولاً في معاجم اللغة، وفي هذا الصدد سنأخذ من مصدرين أحدهما قديم والآخر حديث أما القديم فهو القاموس المحيط للفيروز أبادي يقول: (ثَقُفَ) ككرم وفرح، ثَقْفاً: وثقفاً وثقافة صار حاذقًا خفيفًا فطنًا فهو ثَقْف كحبْرٌ وكتِف، وهو ثقفي محركة، وخَلّ ثقيف كأمير وسكين، حامض جداً وثقفه كسَمِعه

صَادفَه، أو أخذه أو ظفر به وأدركه وامرأة ثِقاف كسحاب فطنة وككتاب الخصام والجلاد وما تسوى به الرماح، أثقفته أي قيّض لي وثقفه تثقيفاً سواه، وثاقفه كنصره غالبه فغالبه في الحذق»[١].

والحديث هو المعجم الوسيط الذي وضعه مجمع اللغة العربية الذي يقول: «ثَقِفَ»، ثَقَفاً: صار حاذقاً فطنا فهو ثقف، والخل: اشتدت حموضته فصار حريفًا لذَّاعاً فهو ثقيف، والعلم والصناعة: حَذَقهما، والرجل في الحرب: أدركه، والشيء ظفر به، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة : ١٩١]، وثقف الخل ثقافة ثقف، فهو ثقف، وفلانٌ صار حاذقاً فطناً، ثاقفه مثقافه، وثقافاً خاصمه وجالده بالسلاح، ولاعبه إظهارًا للمهارة والحذق، ثقف الشيء: أقام المعوج منه وسواه، والإنسان: أدبه وهذبه وعلّمه .(الثقافة): العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها»[٢].

والمتأمل للمعاني الواردة في المعاجم يستخلص منها أن للثقافة عدة معان منها:

(١)أن الثقافة تعني الحذق والفطنة فالمعجمان يتفقان على أن الفعل ثقف ثقفاً أي صار حاذقاً فطنا، وهو ما يعني الارتباط القوي بين الثقافة واتساع المدارك والعقل مما ينتج عنه حذق وفطنة ومنه امرأة ثقاف أي فطنة وحاذقة، ومنه ثاقفه ومثاقفة وثقافاً أي لاعبه إظهارًا للمهارة والحذق.

(٢)المعنى الثاني: الشدة وهو ما نستنتجه من شدة حموضة الخل ولذاعته، «ثقف الخل» أي اشتدت حموضته، وهذا يعني أن الثقافة تؤدي إلى القوة

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي،ج ٣، ط٣، المطبعة المصرية، ٩٣٣، ص١٢٣.

(٢) المعجم الوسيط، ج١، ط دار المعارف بمصر، ١٩٧٢، ص٩٨.

بجانب الحذق والفطنة والمهارة، وهو أمر طبيعي فكلما تثقف الإنسان ازدادت معرفته بما حوله واستطاع اكتساب القوة التي تمكنه من التحكم في نفسه، وفي الأمور التي تحيط به.

(٣)المعنى الثالث هو محصلة الاثنين السابقين وناتج عنهما، وهو الظفر والانتصار «ثقفه: صادفه وظفر به»، وقد أشار المعجمان إلى ذلك، وقد دعم المعجم الوسيط قوله بآية من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة : ١٩١]، أي ظفرتم بهم، والظفر لا يكون إلا نتيجة للحذق والفطنة والقوة والشدة والظفر أيضًا لا يكون إلا غلبة «ثاقفه أي غالبه فغلبه وظفر به»، وهذا يعنى ارتباط تثقف المجتمع «أي مجتمع» بغلبته، فالمجتمع الذي تعلو ثقافته تكون له الهيمنة والسيطرة.

(٤)يأتي بعد ذلك معنى التسوية **والتهذيب** والتأديب، وهو ما يبين في معنى تسوية الجلاء، أو كما يقول **المعجم الوسيط**: «ثقف الشيء أقام المعوج منه وسواه، والإنسان أدبه وهذبه»، وهذا يعني ارتباط الثقافة بالتسوية والتأديب والتهذيب، وهو أمر يقره الواقع حيث نجد ارتباطًا شديدًا بين نمو ثقافة الإنسان واستوائه وتأديبه وتهذيبه.

(٥)المعنى الأخير هو الوجود «ثقفه أي صادفه»، أي أن معنى الثقافة هو الوجود، فالإنسان المثقف له وجوده وإسهامه في حركة الحياة والإنسان غير المثقف نظن أنه لا وجود له؛ لأنه يفتقد إلى التعبير عن نفسه وعن موقفه في الحياة بل هو عاجز أصلاً عن اتخاذ موقف منها؛ لأنه غير مؤهل عقليًا لذلك، فلا هو يملك الحذق والمهارة، ولا هو شديد ولا هو

سوي ومؤدب وكلها أدوات تعين على اتخاذ الموقف والتصرف إزاء أي مشكلة أو صعوبة تعترضه في حياته ومن هنا تتضافر المعاني المتعددة للفعل «ثقف» وأشكاله المختلفة لتكون لنا المعنى العام للثقافة الذي لا يخرج عن هذه الأطر .

ثقف في القرآن الكريم:

ورد الفعل «ثقف» وأشكاله في القرآن ست مرات منها اثنتان في الماضي بصورته الأصلية الثلاثية ثم اثنتان في المضارع المبني للمعلوم، واثنتان في صيغة المبني للمفعول «أو كما هو شائع المبني للمجهول»، ونفصل القول، فأول ما يصادفنا في القرآن **قوله تعالى في سورة البقرة**: **﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾[البقرة: ١٩١]**، يقول الإمام "القرطبي" في تفسيره الجامع لأحكام القرآن الكريم: «يقال ثقف يثقف ثقفا، ورجل ثقف لقف: إذا كان محكماً لما يتناوله من أمور وفي هذا دليل على قتل الأسرى»[١].

ويوضح المسألة أكثر" الفخر الرازي" في تفسيره الكبير المسمى «مفاتيح الغيب»، حيث يقول معقبًا على الآيات «وفيه مسألتان»: المسألة الأولى: الثقف وجوده على وجه الأخذ والغلبة ومنه(رجل ثقيف) سريع الأخذ لأقرانه قال:

فإما تثقفوني فاقتلوني   فمن أثقف فليس إلى خلود[٢].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط دار الغد العربي، ١٩٨٩، مج ١، ص٨٣٤.

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج ٣، ط دار الغد العربي، ١٩٩٢، ص١٣٦، ١٣٧.

ويتضح من التفسيرين السابقين أن الثقف يكون على معنى الأخذ والغلبة ولا يمنع أيضًا من تضمن معنى الوجود، وبعض المفسرين أشار إلى هذا حين ذكر آية التوبة ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وفي هذا الإطار يأتي تفسير الآية الثانية التي وردت في سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ ففيها نفس المعاني، الوجود والغلبة والأخذ وهو ما يتوافق مع بعض الوجوه المعجمية التي طرحتها المعاجم لمعنى «ثقف».

وقد جاء المعنى صريحًا في سورة الأنفال، وأقصد معنى الأخذ والغلبة، يقول تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأنفال: ٥٧]،أي حينما تنتصر عليهم في الحرب وتأخذهم وتغلبهم فاقتلهم وشرد من خلفهم ومنه اخذ السلف والمفسرون والفقهاء حكم قتل الأسرى حتى يكونوا عبرة لغيرهم كما تشير معظم التفاسير، وذلك ليس قوة بل رداً للاعتداء حيث كانت هذه نية الأعداء التي كشفها الله لنبيه في سورة الممتحنة حين قال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[الممتحنة: ٢]، يقول الإمام القرطبي: قوله تعالى« إن يثقفوكم»: يلقوكم، ويصادفوكم، ومنه المثاقفة، أي طلب مصادفة الغرة في المسابقة وشبهها.

وقيل: «يثقفوكم، يظفروا بكم ويتمكنوا منكم»(١)، أما الموضوعان الآخران فقد جاء الفعل فيهما بصيغة المبني للمفعول، يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ**﴾[آل عمران: ١١٢]، يقول القرطبي: «ضربت عليهم الذلة»: يعني اليهود، أين ما ثُقفوا: أي وجدوا ولقوا (٢)، ويقول "الرازي": «وقوله تعالى: ﴿أين ما ثقفوا﴾، أي وجدوا وصودفوا، يقال ثقفت فلانًا في الحرب أي أدركته»(٣)، ويجري هذا المجرى قوله تعالى: «ملعونين أينما ثقفوا، أخذوا وقتلوا تقتيلاً»، أي وجدوا وغلبوا وتمكنتم منهم وهكذا نجد المعنيين الوجود والغلبة هما المتواردان في القرآن الكريم للفعل ثقف، ونظن أنها كانت إشارة واضحة من القرآن الكريم إلى أمة الإسلام التي سيكون الإسلام دستورها أن تتثقف لأن في ثقافتها وجود لها وغلبة ولن يستطيعوا التغلب على أعدائهم وأخذهم والتمكن منهم إلا إذا ثقفوا أنفسهم أي هذبوها وأدبوها بآداب الإسلام وتعاليمه فيصبحون حاذقين ماهرين، وإذا وصلوا إلى هذه المرحلة استطاعوا أن يتغلبوا على أعدائهم ويظفروا بهم وها هنا لفتة أخرى إلى أن الأمم الأخرى ستحاول قدر الإمكان أن تتغلب على المسلمين وربما كانت وسيلتهم الثقافة بكل تجلياتها التي وضحت من خلال الطرح المعجمي وهو ما أشارت إليه آية الممتحنة: ﴿ **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا**

---

(١) القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» مج ١٠، ص٦٧٧٨.

(٢) القرطبي، مج٢، ص١٥٢١.

(٣) الرازي، «مفاتيح الغيب»، مج ٤، ص٤٠٠،

لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ، ففي الآية الكريمة إشارة إلى بسط اليد أي مدها بالسوء وهو رمز القتال والقوة الفعلية أي العضلية والمادية ثم وضحت الوسيلة الثانية في قوله تعالى: «وألسنتهم»، واللسان في كثير من الأحيان يعبر به عن اللغة وهي المكون الأكبر للثقافة أو أداة المعرفة وهو ما يعني أنهم إذا افتقدوا وسيلة القوة المادية توجهوا إلينا بالقوة المعرفية، وهي الثقافة في صورتها العامة وهكذا ينبهنا القرآن الكريم إلى وسائل الخصوم في محاربة هذا الدين وأتباعه ومن أجل ذلك حذر من الموالاة لهم وإتباعهم.

مفهوم الثقافة بشكل عام:

من خلال كل ما سبق نحاول الوصول إلى تعريف عام للثقافة يوضح مفهومها ولعل في التعريف الذي طرحه مجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط وهو «الثقافة: العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها»[1]، وهذا التعريف الذي يوضح مكونات الثقافة من العلوم والمعارف والفنون المختلفة يثير عدة نقاط:

(١) أن الثقافة أوسع معنى من العلوم لأن العلم يعني إدراك شيء ما بكافة جوانبه، أسسه النظرية وجوانبه التطبيقية، سواء في مجال العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية.

---

(١) المعجم الوسيط، ج١، ص٩٨.

(٢) أن الثقافة أوسع من المعارف، فالمعرفة قد تكون عميقة وفي هذه الحالة فإنها تقترب من العلم، وقد تكون سطحية فيكون تأثيرها في صاحبها غير ذي قوة ولا مفيد بالدرجة التي تعنيه الثقافة.

(٣) أن الفنون وإن كانت تشمل في معناها المحدد ما يختص بأنواع الفنون من رسم وتصوير وموسيقى وغيرها، فإنها تعد جزء من الثقافة وليست كلها.

(٤) أن الثقافة تعني في صورتها العامة الحذق فيها بشكل عام أي الحذق في هذه الفنون والمعارف مما يعني أن الثقافة إطار أوسع من كل هذه المكونات كل على حدة.

ويشرح الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر لفظة الثقافة شرحًا مفصلاً في كتابه: «في الطريق إلى ثقافتنا»، يقول: «الثقافة في جوهرها لفظ جامع يقصد به الدلالة على شيئين أحدهما مبني على الآخر أي هما طوران متكاملان:

الطور الأول: أصول ثابتة تنغرس في نفس الإنسان منذ مولده ونشأته الأولى حتى يشارف حد الإدراك البين إجماعه كل ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه حتى يصبح قادرًا على أن يستقل بنفسه وبعقله، وتفاصيل ما يتلقاه الوليد حتى يترعرع أو يراهق تفوت كل حصر بل تعجزه، وهذه الأصول ضرورة لازمة لكل حي ناشئ في مجتمع ما لكي تكون له لغة يبين بها عن نفسه، و"معرفة" تتيح له قسطًا من التفكير يعينه على معاشرة من نشأ بينهم من أهله وعشيرته، وهذا على شدة وضوحه عن النظرة الأولى لأنك ألفته لا لأنك فكرت فيه وعمقت التفكير هو في

حقيقتة سرٌ ملثم يحير العقول إدراك دفينه، لأنه مرتبط أشد الارتباط بل متغلغل في أعماق سرين عظيمين غامضين هما: سر النطق، وسرّ العقل، اللذان تميز بهما الإنسان من سائر ما حوله من الخلق كله، وتحيرت عقول البشر في كيف جاءا؟ وكيف يعملان؟، لأن الإنسان لم يشهد خلق نفسه حتى يستطيع أن يستدل بما يشهد لكي يصل إلى خبئ هذين السرين الملثمين المستغلقين البعيدين، وإن توهم أحيانًا بالإلف أنهما قريبان واضحان.

الطور الثاني: فروع منبثقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة، وهي تنبثق منها حين يخرج من إيثار التسخير إلى طلاقة التفكير، وإنما سميت «الطور الأول»، إيثار التسخير لأنه طور لا إنفكاك لأحد من البشر فيه منذ نشأته في مجتمع فإذا بلغ مبلغ الرجال استوت مداركه وبدأت معارفه يتقصى بعضها البعض، أو يتداخل بعضها في بعض ويبدأ العقل عمله المستتب في الاستقلال بنفسه، ويستبد بتقليد النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ومعالجة التعبير عن الرأي الذي هو نتاج مزاولة العقل لعمله، فعندئذ تكون النواة الجديدة لما يمكن أن يسمى ثقافة وبين أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو اللغة والمعارف الأول التي كانت في طورها الأول مصبوغة بصبغة الدين لا محالة حتى لو استعملها في الخروج على الدين الموروث ومناقشته رفضاً له أو لبعض تفاصيله.

هذه حالة النشأ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقل المفضي إلى حيز الثقافة [1].

وهكذا يشرح الشيخ شاكر كيفية نشأة الثقافة من خلال محاولته طرح مفهومها، ويبين تطورها لتشمل التعريف السابق الذي طرحه مجمع اللغة العربية والذي أظن يحتوي معظم التعريفات التي تطرح متناثرة هنا وهناك، من مثل " الثقافة هي مجموع الخبرات التي يكتسبها الإنسان في حياته ويستطيع أن يكون بها رؤيته للحياة» أو أن كلمة ثقافة كانت تعني: «عملية تدريب إنساني غير أن هذا الاستخدام الأخير الذي كان يعني تهذيب شيء ما في العادة، تغيرت إلى أن أصبحت لفظة ثقافة تعني شيئاً مستقلاً في حد ذاته وذلك في القرن الثامن وأوائل القرن التاسع عشر، وأصبح معناها أولاً: «حالة أو عادة عقلية عامة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفكر الكمال الإنساني وغدت تعني ثانياً: الحالة العامة لتطور الفكر في مجتمع بأثره، والمعنى الثالث هو: الكيان العام للفنون، وفي أواخر القرن أصبحت تعني معنىً رابعاً هو طريقة شاملة للحياة مادية وعقلية وروحية [2].

ويعرف "تيلور" الثقافة: «بأنها ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والتقاليد، أي مهارات وعادات يكتسبها الإنسان

---

(١) محمود محمد شاكر، «في الطريق إلى ثقافتنا»، كتاب الهلال، عدد ٤٤٢، أكتوبر ١٩٨٧، ص١٠٧ -١١١، بتصرف.

(٢) رايموند وليام، «الثقافة والمجتمع» ت وجيه سمعان، مراجعة محمد فتحي، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص١٠، ١١.

كونه عضوًا في المجتمع»[1]، وهكذا نجد تلاقياً بين ما طرحه الشيخ وما يشير إليه "تيلور" من ارتباط مفهوم الثقافة بالعقيدة والأخلاق حيث يعدان من المكتسبات التي يكتسبها الإنسان في أول مراحل تكونه المعرفي ويطرح "مايك كرانج" رؤيته حول تعريف الثقافة في كتاب الجغرافيا الثقافية قائلا: «في نهاية الخمسينيات استطاع المؤلفون أن يجمعوا أكثر من ١٥٠ تعريفاً للثقافة في الكتب الأكاديمية ولا يحاول هذا الكتاب أن يروج لتعريف محدد في الواقع أن المقاربات المختلفة المروية هنا يمكن أن تتضمن أفكاراً مختلفة نوعاً حول ماهية الثقافة، فالمبدأ الموجه في هذا العمل هو أن الثقافات مجموعة من المعتقدات أو القيم التي تعطي معنى لطرق الحياة، وتنتج ويعاد انتاجها من خلال أشكال مادية ورمزية.

من هنا أريد أن أتجنب خاصة مفهومين اثنين، المفهوم الأول: هو تصوير الثقافة بصفتها نوعًا من (الفضالة المتبقية) بالنسبة إلى كل تلك الأشياء غير المفسرة في مجالات أخرى، وأناقش الثقافة على أنها رئيسية جدًا أكثر مما تسمح به هذه التفسيرات، والمفهوم الثاني: هو أن ذكر طريقة الحياة يسائل مدى قدرة الفرد على الاختيار والتمهل بينما يطرح إعادة إنتاجه قضايا التغيير على مر الزمن والمجتمعات الحالية قد تنمي فعلا علاقة الثقافة وتعتمد أكثر على الاختيار والمزج [2].

---

(١) Encyclopedia of sociology,guliford,the dushkin publishing group Inc ١٩٧٤p٦٩

(٢) مايك كرانج، «الجغرافيا الثقافية»، سلسلة عالم المعرفة، ترجمة د. سعيد فتاق، عدد ٣١٧، يوليو ٢٠٠٥، الكويت ص ١٤.

ومن خلال ذلك كله نستطيع الجمع بين الاثنين بين تعريف المجمع والتعريفات المطروحة فهي "مجموع الخبرات والمعارف والفنون والعلوم التي اكتسبها الإنسان منذ نشأته وعبر مراحل تطوره ليستطيع بها التعامل مع معطيات الحياة من حوله وذلك في ضوء عقيدته ودينه الذي ينتمي إليه".

معنى الثقافة الإسلامية:

يرى الشيخ محمود شاكر أن:

«ثقافة كل أمة وكل لغة هي حصيلة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع كلها مغموس في الدين والمتلقى عند النشأة، فهو بذلك صاحب السلطان المطلق الخفي على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعًا، سلطان لا ينكره إلا من لا يبالي بالتفكر في المنابع الأول التي تجعل الإنسان ناطقًا وعاقلاً ومبينًا عن نفسه، ومستبينًا عن غيره، فثقافة كل أمة مرآة جامعة في حيزها المحدود، كل ما تشعث وتشتت وتباعد من ثقافة كل فرد من أبنائها على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم في الحياة، وجوهر هذه المرآة هو اللغة، واللغة والدين كما أسلفت متداخلان تداخلاً غير قابل للفصل البتة»[1].

هذا المدخل يفتح لنا الباب للحديث عن الثقافة الإسلامية ومعناها ويمكن أن نطرح تصورًا لها فنقول أنها الثقافة التي تكونت لدى المسلم من خلال أصول دينه الإسلامي وتشمل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بكل أشكالها القولي والفعلي والتقريري، واجتهادات الصحابة والسلف

---

(١) محمود شاكر، «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ص١١١، ١١٢.

الصالح حولها وممارستهم التطبيقية لها وما تداخل معها من ثقافات وفنون الأمم التي دخلت في الإسلام وصبغها بصبغته فأصبحت جزءا منه ومكونًا من مكوناته».

وحينما نقول الأصول القرآن الكريم والسنة النبوية فإننا نعني بهما الصورة الواسعة أو الرؤية الرحبة وليست الصيغة التي تقتصر على اتجاه واحد ذلك أن دين الله أعظم وأجل من أن يحيط به فهم محدد وإلا ما تعددت الاجتهادات التفسيرية لكتاب الله عبر أربعة عشر قرناً من الزمان وكذلك سنة رسول الله ﷺ التي دارت حولها شروح كثيرة ومن نواحي مختلفة توضح مدى اتساع هذه السنة ورحابة أفقها وشمولها لنواحي الحياة.

وإذا حاولنا أن نقرن بين المعاني التي طرحتها المعاجم للفعل ثقِفَ، والقرآن الكريم في خطوة أولى لشرح هذا التصور الذي وضعنا للثقافة الإسلامية، وهي معانى التهذيب والتأديب والحذق والفطنة، والمهارة والشدة والقوة فسنجد كل هذا من أهداف القرآن الكريم فقد أنزل على محمد ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور الإيمان بالله، وهذا لن يتأتى إلا بتهذيب هؤلاء الذين أنزل عليهم القرآن وتأديبهم بأدبه وبدأ أولاً بتغيير مفهومهم عن الإله، وقد كانوا يعبدون آلهة متكاثرة، لا تضر ولا تنفع، بل أنها كانت أحيانًا من صنع أيديهم، ويوحدهم تحت إله واحد هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد"، ومن هذه النقطة انطلقت خطوات التثقيف والتهذيب، فأرشدهم أولاً إلى القراءة والعلم، وقد كان معظمهم لا يقرأ ولا يكتب حتى يستطيعوا فهم واستيعاب هذا الدستور الشامل الذي يرشدهم في مسالك حياتهم وفي خطواتهم فيها.

ومن خلال ذلك تم التأديب والتثقيف عبر لغة القرآن الكريم المعجزة الإلهية التي تضمنت آدابًا وأخلاقيات يسترشد بها كل إنسان حتى في أصغر جزئيات حياته في مأكله ومشربه وطريقة تعامله مع الآخرين مع زوجته وأولاده وجيرانه **وحلفائه** وخصومه، وغرائزه وشهواته، وعقله وفكره، وهو كله.

وعبر آيات القرآن الكريم تتجلى توجهاته لخلق الحذق والفطنة في **نفوس أتباعه** فهو أولاً حين يقرعهم على عبادتهم للتماثيل التي يصنعونها ولا **تضر ولا تنفع، فإنما** يوضح لهم كيف يستخدمون عقولهم للتفكير والتدبر **والحذق والفطنة لأنهم** لابد أن يستخدموا ذكاءهم في تقدير هذه المسألة **فيعودون إلى رشدهم، ويعبدون** الله الواحد الأحد الذي خلقهم وأمدهم بهذه **النعمة، نعمة العقل والفهم**.

إنهم يتهذبون ويفطنون من خلال تأملهم لآيات القرآن الكريم الداعية إلى **تأمل آيات الله في كونه**، «فالقرآن كتاب الثقافة الإسلامية العربية الأول، **تنادي آياته المتعددة** بوحدانية الخالق ومن ثم بوحدة ظواهر الكون رغم تنوعها، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠]، وفي ذلك أبلغ تعبير على أن مبدأ الأبستمولوجيا الموحدة في العلوم والمعارف البشرية هو من المسلمات الأولى للرؤية القرآنية، فترابط عناصر الكون الحية والجامدة ووحدتها أمرٌ تركز عليه وترردده آيات القرآن في السور الطويلة والسور القصيرة على حد سواء، ومن منظور الأبستمولوجيا القرآنية تأتي قوة ذلك الترابط والوحدة بين كل ما يوجد في الكون من أن خالق كل ذلك هو إله

واحد لا شريك له ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١]، ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]»[1].

وينتج من ذلك الوعي بالكون وخالقه ومفرداته قوة في الحق فلا يهابون أحدًا عدوًا كان أو حليفًا فتحدث لهم هيبة وقوة يسيطرون بها، هيبة في أنفسهم مستمدة من التهذيب والفطنة والوعي بالله وبأنفسهم، وهيبة في وجه أعدائهم، وهذا ما حدث في فتوحاتهم بالفعل فانتصروا وبسطوا سلطانهم ونشروا دينهم وثقافة قرآنهم على جميع البلاد المجاورة من فرس وروم وافريق، واضطرت هذه الثقافات إلى الاندماج في ثقافاتهم، وتبنتها، وأبدعت وأنتجت فيها انتاجاً ثقافياً ومعرفياً أضاء الدنيا كلها فيما بعد.

وبالرغم من أن الشيخ سيد قطب رحمه الله يرى في هذا الاختلاط والامتزاج أثراً سيئاً وأعني اختلاط ينابيع الثقافة الإسلامية وامتزاجها بفلسفة الإغريق ومنطقهم وأساطير الفرس وتصوراتهم وإسرائيليات اليهود، ولاهوت النصارى، تجلى في اختلاف تفاسير القرآن، وأثر على مسيرة الأجيال؛ لأن الأمر كان في البداية كان قاصرًا على تلقي القرآن وتنفيذ أوامره مما كان له أبلغ الأثر في انتصارهم وعلوهم ومبررا ذلك بأنهم
ما تلقوا القرآن بقصد الثقافة ،وإنما تلقوه وتشربوه لينفذوا تعاليمه إلا أنه في النهاية يعود ويقول هذا الشعور... شعور التلقي للتنفيذ.. كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من المعرفة لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا

---

(١) محمود الزاودي، «نداء حول ضرورة تأصيل علم الاجتماع العربي»، مجلة عالم الفكر،ع١ مج ٥٤، ٢٠٠٥، ص٣٨.

إليه بشعور البحث والدراسة والإطلاع، وكان ييسرر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنما تتحول آثاراً وأحداثاً تحول خط سير الحياة»[1].

إنه في النهاية يقر بدور القرآن في تشكيل الثقافة الإسلامية وأنه كانت نقطة البدء، ورغم حماسه الشديد رحمه الله في رفض الاختلاط بالثقافات الأخرى وبيان أثرها السيىء في اختلاف فهم القرآن، وحماسه في ضرورة أخذ القرآن من منبعه الأصلي كما فعل الجيل القرآني الأول، فإنه لم يدرك أن ثقافة هؤلاء الذين أنزل عليهم القرآن كان لها دورًا في فهم القرآن الكريم وتنفيذه فلولا ما ثقفوه من لغة وأدب وخبرتهم باللغة التي أنزل بها القرآن لما فهموه واستوعبوه، هؤلاء الجاهليون الذين يصممهم بكل الأوصاف الذميمة هم الذين فهموا القرآن ونتيجة فهمهم له قطعوا كل علاقة لهم بكل ما كان قبله، لأنه أنشأ فيهم مفاهيم جديدة وثقفهم أي أدبهم وهذبهم بأدواته المعرفية المستمدة من التوجيه الإلهي الذي يريد الخير للناس أجمعين عبر هذا القرآن الحكيم، وكان المكون الثاني للثقافة الإسلامية وهو سنة النبي ﷺ مستمداً من القرآن" فما كان حديث الرسول ﷺ وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع فعندما سئلت عائشة (رضي الله عنها) عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[2]، وهي حقيقة لا تقبل الجدل،

---

(١) سيد قطب، «معالم في الطريق»، د: ط، ص١٧، ١٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٥.

وقد طبق الرسول ﷺ تعاليم الله وتوجيهاته القرآنية في سنته القولية والفعلية والتقريرية، وقد استوعب الصحابة الأول ذلك وفهموه، واستوعبوه وطبقوه في حياتهم العملية وكونوا به ثقافتهم التي تجلت بعد في ممارستهم في أثناء حياته ﷺ بينهم، وبعد رحيله إلى الرفيق الأعلى.

هذه السنة النبوية المطهرة شملت جميع نواحي الحياة من سلوك ومعرفة وعلاقات اجتماعية، فشكلت رؤية للحياة مستمدة من القرآن الكريم، ومن يتصفح كتب الحديث يجد ذلك واضحًا جليًا، ففي سنة رسول الله ﷺ توجيهات نبوية حتى لأصغر وأبسط الأشياء، فرفع الأذى عن الطريق صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، تجد فيها توجيهات لتطبيق العبادة الصحيحة لله، وتوجيهات للعقيدة الصحيحة، وتوجيهات للمعاملات وآداب الطعام والشراب والغريزة وحتى المعارف والآداب والفنون لها فيها إسهام" إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا"، والفنون والعلوم وغيرها من مكونات ثقافة الإنسان التي تشكل رؤيته للحياة وخبرته فيها.

لقد كانت سنة النبي ﷺ من الاتساع والمرونة ما ينفي عنها الرؤية الأحادية الضيقة، ولم تقتصر على الظاهر بل شملت الظاهر والباطن، الظاهر المتمثل في صورة الإنسان، ومظاهر الكون، وباطن الإنسان المتمثل في عقله أو قلبه بلغة القرآن أو جوهره بلغة الفلاسفة بتدعيم الإيمان في قلبه مما يخلق بداخله رؤية للحياة تنعكس على علاقاته بالكون والحياة من حوله "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لغيره" وهكذا.

فإذا أضفنا إلى ذلك مسالك وتوجيهات الخلفاء الراشدين والجيل الأول من الصحابة في أرضهم أو في البلاد التي فتحوها وخضعت لسلطانهم

اكتملت الحلقات، يتضح ذلك في سياسة أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عمر والخليفة الثالث عثمان بن عفان والرابع علي بن أبي طالب ،فأبو بكر يوضح لنا أن الرؤية لابد أن تكون مكتملة، «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لحاربتهم عليه»، وعمر يؤسس الدواوين وينظم أمور الأمة الناشئة، ويجعل الحق سلطانه لا يخشى في الله لومة لائم، ويطبق الحد على ابنه فلا فرق بينه وبين أي واحد من الرعية، وعثمان يجمع القرآن وينسخه ويأخذ إجماع الأمة عليه ويحرق ما عداه من الأقوال المختلفة لتوحيد الأمة تحت دستور واحد يمنع عنه الاختلاف في نصه، وعلي يجاهد لتوحيد الأمة حتى إنه يسقط شهيدًا هو وأولاده من بعده واحدًا تلو الآخر في سبيل إرساء مبدأ الحق، بل يطرح رؤاه وفهمه للقرآن خاصة وأنه باب مدينة العلم مما تتمثل في بلاغته وخطبه التي ورد كثير منها في كتب البلاغة واللغة.

ومع هؤلاء الخلفاء الراشدين كوكبة من الصحابة الأعلام، عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم الكثير ممن ساهمت أفكارهم ورؤاهم في تشكيل صورة الثقافة الإسلامية.

الفرق بين الثقافة الإسلامية والعلم:

لكي نوضح الفرق بين الثقافة والعلم لابد أن نؤصل لمصطلح العلم لغويًا واصطلاحيًا، ومن خلال هذا التأصيل يتضح الفارق بينهما.

فالعلم من مادة «عَلِمَ»، يقول صاحب القاموس المحيط «عَلِمَه»: كَسَمِعَه علما بالكسر عرفه وعَلِم هو في نفسه ورجل عالم، وعليم

"ج" علماء وعلام»[1]، وجاء في المعجم الوسيط "العلم": إدراك الشيء بحقيقته و.اليقين،و. نور يقذفه الله في قلب من يحب، و.المعرفة . وقيل: العلم يقال لإدراك الكلي والمركب، والمعرفة تقال لإدارك الجزئي أو البسيط ومن هنا يقال عرفت الله دون علمته، ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة كعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم الأرض ،وعلم الكونيات، وعلم الآثار "ج" علوم، وعلوم العربية، العلوم المتعلقة باللغة العربية كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والشعر والخطابة ، وتسمى بعلم الأدب، ويطلق العلم حديثًا على العلوم الطبيعية التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة واختبار سواء أكانت أساسية: كالكيمياء والطبيعة والفلك والرياضيات والنبات والحيوان والجيولوجيا ، أو تطبيقية كالطب والهندسة والزراعة والبيطرة وما إليها»[2].

ومن خلال المعاني المعجمية السابقة يتضح أن العلم يعني المعرفة واليقين وإدراك الكلي والمركب، ويطلق على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة، ويسري هذا على العلوم القديمة والعلوم الحديثة وهناك لمحة ذكية من المعجم الوسيط أن اللفظة «العلم» تطلق حديثاً على العلوم الطبيعية التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة واختبار، وهو المفهوم الشائع الآن بين الناس مثقفين وغير مثقفين وذلك بالرغم من أنهم يعرفون أن هناك علوماً تسمى العلوم الإنسانية وتشمل جميع الفروع الأخرى غير العلوم الطبيعية مثل علوم

---

(١) القاموس المحيط، ص ٤/ص ١٥٣.

(٢) المعجم الوسيط، الجزء الثاني ص٦٢٤.

الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والفلسفة وعلم النفس وغيرها من العلوم التي تتصل بالإنسان ومعرفته وعلاقاته وقد أصبح المختصون فيها يستعينون فيها بوسائل العلوم الطبيعية لضبط مسائلها وقواعدها لتكون أكثر علمية، وتبعد عن الانطباعات الشخصية، والآراء الذاتية التي قد تفسد عليها انضباطها المؤسسي وتخرجها من حيز الموضوعية العلمية فتفقد علميتها، خاصة أن الإنسان جبل في كثير من الأحيان على تغليب أهوائه الشخصية وطموحاته الذاتية في آية مسألة يتدخل فيها، ولذلك لجأ العلماء في هذه الفروع إلى قواعد العلوم الطبيعية حتى يضمنوا إحاطتها بسياج واق يحميها من الأهواء الشخصية.

العلم في القرآن الكريم:

وقد وردت لفظة «العلم» في القرآن الكريم بصورة مختلفة منها العلم ومنها صفات العالم والعليم وعلام، والفعل في أزمنته الماضي والمضارع والأمر، وفي مواضع وآيات تتجاوز المئات، ولكن معظمها يدل على المعرفة، أو علم اليقين ونلاحظ أن العلم بمعنى المعرفة يرد حين يسند إلى الإنسان أما العلم بمعنى اليقين فيسند إلى الله سبحانه وتعالى وأحيانًا إلى أنبيائه فيما أنزل عليهم من الله من وحي هو علم، وقد جاءت فيها إرشادات إلى العلم بمفهومه الحديث حين تكلم القرآن الكريم عن مظاهر الكون التي تنتج علماً.

ولكي نوضح المسألة نضرب أمثلة؛ لأننا لا نستطيع الإحاطة بكل آيات والمواضع التي وردت فيها لفظة العلم فهذا يحتاج إلى صفحات كثيرة، فمثلاً حين يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[البقرة : ٦٥]، فعلمتم هنا بمعنى عرفتم، وكذلك

في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وهي أيضًا هنا بمعنى المعرفة أي ما كنت تعرفها ويتضح أكثر في سورة يوسف حين طلب العزيز معرفة الحقيقة في أمر يوسف عليه السلام بعد أن فسر له يوسف رؤياه، قال: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ♦قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ♦ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[يوسف: ٥٠ - ٥٢]، وهي واضحة الدلالة على المعرفة فقوله: «ما علمنا»: أي ما عرفنا عنه سوءًا، وقوله تعالى: «ليعلم»: أي ليعرف، أما العلم بمعنى اليقين فقد ورد مسندًا إلى الله سبحانه وتعالى، ومنذ البداية تنفي الملائكة عن نفسها العلم وتسنده إلى الله ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ٣٢]، ويرد هود على قوم عاد وهم يحاجونه ويطلبون منه دليلاً على العذاب الذي ينذرهم به ويحذرهم منه فيقول تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾[الأحقاف: ٢٣]، أي أنه لا يملك اليقين وإنما يبلغهم ما أوحي إليه به ولكن علم اليقين عند الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان الوحي الذي أنزله الله على الأنبياء علما لأنه من عند الله العليم الحكيم، يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ، ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٢٠]، ومرة ثانية في نفس السورة: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٤٥]، وهكذا يكون

علم اليقين عند الله وما أنزله على أنبيائه من الوحي والكتب السماوية إنما هي جزء من هذا العلم الإلهي اليقيني.

وقد يصل الأمر ببعض البشر المخلصين لدين الله الذين فقهوه أن ينالوا قسطًا من هذا العلم وهؤلاء هم من أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُو الألْبَابِ﴾[آل عمران: ٧]، ويقول تعالى: ﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨]،وألو العلم هنا يمكن أن يكونوا الأنبياء، ويمكن أن يكونوا الذين صاحبوهم وتشربوا العلم منهم وأصبحوا راسخين في العلم.

ثم وردت لفظة العلم بالفعل يعلم أو تعلمون أو تعلموا في سياق يوحي بمعناها الحديث وهو ناتج التأمل في ظواهر الكون، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[يونس: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[الإسراء: ١٢]، وهي إشارة إلى العلم بمعناه الحديث لأن الناتج من التأمل فيها لا يكون إلا علما.

وهذه الأمثلة قليلة بالقياس إلى الكثير مما ورد في القرآن الكريم في المجالات التي وردت فيها لفظة العلم، أو الفعل "علم"، وأشكاله المختلفة وقد حاولنا الإيجاز في ذكر الأمثلة لحصرها، وأحيانًا يكون في الإيجاز

التوضيح وفي الكثرة تشعيب يحدث اضطرابًا في الفهم ولكنها في النهاية دالة على أن العلم أساس من أسس هذا الدين الحنيفِ وهو حتى في معناه المقصور على العلم الحديث ضرورة من ضرورات فهم القرآن الكريم، فإذا تصورنا قصورًا في علوم اللغة العربية فهل يمكن أن نتصور استيعاباً للقرآن الكريم وأحكامه؟ بالطبع لا، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، والآن بعد سيطرة العلم وانتشاره يمكن أن نستوعب كثيرًا من الإشارات الكونية في القرآن الكريم التي جاءت تنبهنا إلى قدرة الله في كونه وهي علامات على وجوده ذاتاً وصفات، ومن ثم فإن المؤمن الذي يخبر هذه العلوم ويتقنها يزداد يقينه بربه ويتعمق إيمانه به بل إنه قد يصل في النهاية إلى فهم أوسع للقرآن باعتباره مصدر المعرفة كلها.

العلم في السنة النبوية:

يستعرض د. يوسف القرضاوي في كتابه «الرسول والعلم»، هذا الموضوع بتفصيلاته، ويصل فيها إلى عدة نقاط نوجزها فيما يلي:

(١) يستعرض في المقدمة عدد الأحاديث التي وردت في شأن العلم في كتب الصحاح مثل صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، ففي صحيح البخاري ستة عشر حديثًا واثنان وعشرون أثرًا من الآثار الموقوفة على الصحابة، وفي الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد واحد وثمانون حديثاً حديثًا، وإذا كان قد عدد الأحاديث التي وردت في باب العلم فإن بعض الأحاديث قد جاء في أبواب أخرى مثل الطب أو الآداب تضاف إلى هذا العدد.

(٢) يوضح في باب "منزلة العلم والعلماء في ضوء السنة" المكانة التي يحظى بها العلم والعلماء في ضوء حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «إن

الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1]، وبجانب هذا الحديث يورد كثير من أقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين في فضل العلم والعلماء وذلك لنفع العلم في الدنيا والآخرة.

(٣) في باب العلم التجريبي يوضح أن اهتمام الرسول ﷺ بالعلم لم يقتصر على علم الدين، وإن كان هو الأساس بل يمتد ليشمل العلم الدنيوي والعلم التجريبي، سواء أكان علماً عقلياً أو علماً طبيعياً أو بحتاً ويضرب لذلك أمثلة بالإحصاء أو الطب الذي وردت أحاديث كثيرة فيه، حتى أن هناك كتبًا بأكملها خرجت في الطب النبوي والتداوي من بعض الأمراض في ضوء الأحاديث النبوية التي وردت في هذا الباب.

(٤) يضيف إلى ذلك أحاديث وتفصيلات حول أخلاقيات العلم وفي التعلم وآدابه وما يجب على كل مسلم تعلمه، والتعليم ومبادئه وقيمه، والعناية بالعلم والتنويه بقدره، ويختتم كتابه بعنوان «آثار وثمار»، وفيه ينتهي إلى:

(أ) أنا وجدنا الصحابة يحرصون أبلغ الحرص على التزود بالعلم والاغتراف من منهل النبوة مجتهدين في ذلك بكل الوسائل الميسورة لديهم، وكذلك مضى التابعون على نهجهم.

---

(١) رواه أحمد و أبو داود والترمذي وابن ماجة.

(ب) أصبحت مساجد المسلمين حيثما وجدت دوراً للعلم وأصبحت جامعات شعبية وفيما بعد أصبحت جامعات علمية كما في جامعة القرويين في فاس بالمغرب، وجامعة أو جامع الزيتونة في تونس، وجامعة أو جامع الأزهر في مصر.

(ج) كان المسلمون هم أول من أنشأ المدارس النظامية للتعليم المنهجي.

(د) قامت حركة تأليف واسعة في شتى العلوم بدأت أول الأمر بالعلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه وأصول وآداب وغيرها..، ثم توالى الاهتمام بعد ذلك بالعلوم المختلفة كالفلسفة والطب والفلك والهندسة والكيمياء والنبات والجغرافيا.

(هـ) قرر الفقهاء أحكاماً مهمة تتعلق بالعلم والتعليم منها وجوب نفقة التعليم للولد على أبيه ،وأن يأخذ طالب العلم من الزكاة وأنه يجوز نقل الزكاة إلى خارج القطر ما دامت للتعليم.

ومنها أن كتب العلم من الحوائج الضرورية فلا تجب فيها الزكاة حتى وإن كنت عند غني موسر، كما انتهى في الخاتمة إلى أن السنة المحمدية نبع سخي، ومصدر ثري، وأن العلم في نظر القرآن والسنة ليس خصمًا للدين ولا ضد الإيمان، ومن ثم قرر العلماء اتصال الشريعة بالحكمة وموافقة صحيح المنقول لصحيح المعقول، وأن الإسلام لا يضيق بالعلم التجريبي بل يحترمه ويدعو إليه، وأن الإسلام في ضوء ما جاءت به السنة - لا يفصل بين العلم والأخلاق ،وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأن الإسلام في ضوء ما فصلته السنة - قد وضع مبادئ وأسسًا للتعلم والتعليم

سبق بها كل الأمم والحضارة المعاصرة ،وأن هذه التوجيهات قد آتت أكلها في تكوين الفرد المسلم والمجتمع المسلم [1]،

ومن خلال هذا التلخيص لما جاء في كتاب د. يوسف القرضاوي يتضح لنا مدى اهتمام الرسول ﷺ بالعلم واحتفائه به، وأثر ذلك في أصحابه وفي تكوين الأمة الإسلامية القوية بعد ذلك، وبعد أن اختلطت بالأمم السابقة، وأفادت من علمهم وثقافاتهم، خاصة وأن الأساس الذي انطلقوا منه وهو القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ فتحت أمامهم آفاق العلم فلم تقصره كما يظن البعض خطأ. على علوم الدين، بل يشمل مجال الإنسان وما يتعلق به من دراسات، ومجال الماديات المبثوثة في الكون مثل الطبيعة والكيمياء، والفلك الطب وغيرها مما يقوم على الملاحظة والتجريب، ذلك أن تعاليم القرآن والسنة قد هيأت المناخ النفسي والعقلي الذي ينبت فيه هذا العلم، بحيث ترسخ أصوله وتمتد فروعه ويؤتي أكله بإذن الله»[2].

لقد كان الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه - حريصًا على أن يخلق أمة مؤمنة واعية بربها عارفة به، ولن يكون ذلك إلا ببث روح العلم فيهم، وتدريبهم على ممارسة التفكير العقلي في كل ما يحيط بهم حتى يستطيعوا تحقيق الهدف الذي خلقوا من أجله، وهو عبادة الله الواحد الأحد: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ◆ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات: ٥٦، ٥٧].

---

(١) لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع واستقصائه راجع كتاب د. يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، ص٣، ١٩٨٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨.

الفرق بين الثقافة والعلم:

بعد استعراضنا لمفهومي الثقافة والعلم واستجلاء أصولها في المعاجم والاصطلاح بل وفي القرآن والسنة، يتضح لنا بجلاء أن هناك اختلافًا بين الثقافة والعلم "فالثقافة حالة عامة من المعرفة تشمل جميع كل ما يحيط به الإنسان من خبرة معرفية نتيجة تعامله مع واقعه المحيط به" فيعرف كيف يعيش ويحيا ويندرج تحت هذا الإطار خبرته العلمية والعملية معاً، يتثقف بنتائج العلم وما توصل إليه في شتى المجالات، ولذلك نستطيع أن نقول عن علمائنا الموسوعيين الأول إنهم مثقفون بالدرجة الأولى، فقد فقهوا في علوم كثيرة، وكونوا معرفتهم نتيجة التأمل العقلي الواسع بكل معطيات الواقع والحياة من حولهم، وكما تثقفوا بهذه العلوم تثقفوا أيضًا بالفنون والآداب ولذلك جاء إنتاجهم العقلي والعلمي شاملاً لكل هذه النواحي فكتاب «الشفاء» للشيخ الرئيس ابن سينا يطوف بنا في شتى مجالات العلوم ؛الفلسفة والطب والهندسة والرياضيات والموسيقى والاجتماع والآداب وفروعها من شعر ونثر وغيرها».

ولو تأملنا نتاج كل واحد من الأعلام القدماء لاحتجنا إلى صفحات وصفحات فكل واحد منهم أسهم في مجالات شتى من المعارف فمثلاً

"أبو جعفر محمد بن جرير الطبري"، مؤرخ مشهور لا يستطيع واحد من المتخصصين أن يتجاوز كتابه"تاريخ الرسل والملوك"وهو مفسر عظيم،وتفسيره المشهور «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، خير شاهد على ذلك فهو عمدة التفاسير وجامعها، وأغلب من جاءوا بعده عالة عليه، وهو صاحب مذهب فقهي وإن لم يكتب له الانتشار والذيوع، وله باع في كثير

من مجالات المعرفة، ويبدو ذلك واضحًا من خلال تفسيره وتاريخه، ففيه لغة وفيه أدب وفيه حكمة وفيه بعض إلمام بعلوم عصره وهكذا.

أما العلم فهو يعني تخصصا دقيقا يتقنه صاحبه ويحيط بكل أصوله وفروعه يعرف مقدماته ونتائجه عبر تجارب وخبرات وإحاطة بكل دقائق وتفاصيل الموضوع الذي يكرس نفسه له، وقد تكون للعالم المتخصص في هذا العلم خبر ثقافية، ولكن إتقانه وإجادته يقتصران على تخصصه.

ومن هنا نستطيع القول بأن هناك فارقًا بين الثقافة والعلم؛

أولاً: فالثقافة واسعة والعلم ضيق، الثقافة تتسع لمجالات شتى كما سبق أن ذكرنا، والعلم يقتصر على مجال محدد ونود أن ننبه إلى أن انتشار ظاهرة الموسوعية لدى علمائنا الأوائل ربما تكون السبب في حدوث اللبس في المفاهيم وفي التفرقة بين العلم والثقافة، وإن كان المدقق الواعي يدرك أن كل عالم من العلماء الموسوعيين القدماء قد نبغ في مجال محدد أكثر من غيره من المجالات التي حتى وإن قدم فيها بعض الإنجازات فشهرة ابن سينا في الطب مثلا برزت على كل العلوم التي تحدث عنها وكذلك الرازي الفيلسوف وابن الهيثم وجابر بن حيان وغيرهم، كل واحد منهم برع في مجال كرّس فكره وعلمه له.

وثانيًا: نشير إلى أن العلم قد يكون مكونًا من مكونات الثقافة وأحد روافدها لدى المثقف، وأن الثقافة بمعناها الواسع قد تكون سببًا من أسباب نبوغ هذا العالم أو ذاك في مجال تخصصه، لكن يظل لكل واحد منهما مفهومه المحدد، تظل الثقافة مجموع الخبرات المعرفية، ويظل العلم تخصصا واتقاناً لجزئية من الجزئيات.

وثالثًا: أن الثقافة تنعكس على صاحبها بالتأديب والتهذيب، وليس ذلك بالضرورة منطبقًا على العالم، فقد سمعنا وقرأنا عن علماء أدى بهم علمهم إلى افتقاد الصلة بينه وبين مجتمعه نتيجة إهماله للعلاقات الاجتماعية بسبب انشغاله في تخصصه وانحسار تفكيره فيه وتفرغه له، وبينما المثقف ونتيجة لخبرته الثقافية يعرف كيف يتواصل مع الواقع المحيط به، ويأخذ موقفًا منه، ويدلي بدلوه في قضايا، فإن العالم في أغلب الأحيان لا يكون له موقف في الحياة العامة من حوله.

ورابعًا: أن الثقافة الإسلامية أقدم من العلم الإسلامي، فقد تثقف المسلمون الأوائل بثقافة القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ باعتبارها أساساً موقفاً من الحياة بكل ما فيها ومن فيها، وباعتبار أن معجزة القرآن كانت معجزة كلامية تحتاج إلى معارف شتى لاستيعابها وتطبيقها، وقد أسهمت السنة النبوية المطهرة في بيان هذا الاستيعاب وأوجه التطبيق، كما قدمت مفاتيح مهمة لفهم القرآن من خلال ثقافة العرب الأولى المتمثلة في لغتهم وأدبهم، فسار الصحابة الأوائل على نهج الرسول ﷺ وتطابق موقفهم من الحياة مع موقف القرآن والسنة، بينما ظهر العلم الإسلامي في وقت متأخر، وبعد أن كان في البداية علوماً تتصل بالقرآن الكريم، ظهرت إسهامات علماء المسلمين في العلوم الطبيعية والإنسانية نتيجة عمق تفكيرهم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومحاولة تأمل آياتهما الكونية الدالة على وجود الله وقدرته في الكون وامتلاكه لأمره، صحيح أن البعض يرجع ظهور العلم إلى امتزاج الثقافة العربية الإسلامية بثقافات الأمم الأخرى، لكن الحقيقة أن نشأ أولاً في ربوع القرآن الكريم والسنة النبوية.

وخامسًا وأخيرًا: إننا لابد أن نعي جيدًا الفرق بين الثقافة الإسلامية والعلم الإسلامي غير متأثرين بصورة العلماء القدماء الموسوعية، مع الإقرار بأهمية كل منهما للآخر فلولا اهتمام المسلمين الأول بثقافتهم القرآنية والسنة النبوية ما ظهر العلم الذي نبغوا فيه، وكان نقطة الانطلاق للحضارة الغربية حين تم نقل علوم العرب ومعارفهم في العصور الوسطى عبر المعابر التي انتقل منها التراث الإسلامي إلى مكتبات الغرب واهتمام الغربيين بنقل هذه العلوم والثقافات وصحيح أنهم طوروها لكن نقطة انطلاقهم كانت منها في البداية.

الفرق بين الثقافة والحضارة:

يعرف المعجم الوسيط "الحضارة" بأنها: "الإقامة في الحضر، قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

و ـ ضد البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر»[1].

ومن خلال التعريف يبدو أن الحضارة هي مرحلة من مراحل التطور الإنساني، وهذا يعني أنها مظهر دال على سلوك الناس في مرحلة من المراحل ولذلك أضاف التعريف «ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر»، وإن كنا نتحفظ على مظاهر الرقي؛ لأنها ليست بالضرورة رقياً فحينما تدرس حضارات الشعوب والأمم البدائية فإنهم أي العلماء يطلقون عليها الحضارة، وإن كنا لا ننفيه باعتبار أن سلوك هؤلاء

---

(١) المعجم الوسيط ١/ ١٨١.

الناس كان يعبر عن تطور ما في سلوك حياتهم ولذلك أفضل "مظاهر التطور" بدلا من الرقي، فأحيانًا يكون السلوك الدال على التطور خال من الرقي وواقعنا المعاصر يدعم ذلك، فنحن لا نجد رقيًا في سلوك الغرب أو الأمريكان، قد نجد مظاهر للتطور المادي والحضري، ولكن لا نجد رقياً فأي رقي في هذا التحيز للصهاينة سفاكي الدماء؟ وأي رقي في التفرقة بين دم إنسان وإنسان؟ وأي رقي في ادعاء حقوق الإنسان وهم يهدرون حقوق معظم الإنسان؟.

والحقيقة أن هناك تداخلاً كبيرًا بين مفهومي الثقافة والحضارة، وهذا ما جعل علماء الغرب يتحدثون عن الاثنين في تمازج شديد يقول عالم الأنثربولوجيا" الدكتور أحمد أبو زيد": «حين يتكلم علماء الأنثربولوجيا عن الحضارة فإنهم يقصدون بها الإشارة إلى ثقافة تقف موقف التعارض أو التقابل مع الأفكار والقيم والأوضاع العامة السائدة في ثقافات الجماعات البدائية، وعلى ذلك فإن الحضارة بالمعنى الدقيق للكلمة تصدق في نظرهم على النماذج الثقافية التي تتميز بالتغاير والتفاضل العضوي والاجتماعي وبالأبنية المعقدة التي تتلاءم وتتفق مع هذا التغاير والتفاضل»[1].

وبعد أن يستعرض بعض آراء علماء الغرب في هذا التداخل يطرح رأي تايلور وهو أبرز من تكلم في نظريات الثقافة ويعتمد كثير من الباحثين في الغرب والشرق على أرائه في موضوع الثقافة والحضارة حيث يقول: «الثقافة -

---

(١) د. احمد ابو زيد، «الحضارة بين علماء الأنثربولوجيا والأركيولوجيا»مقدمة، عدد ٣ مج ١٥، من عالم الفكر، الكويت، ١٩٨٤، ص٦٣٣.

أو الحضارة بمعناها الإثنوجرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع، وحالة الثقافة في مختلف المجتمعات الإنسانية تعتبر - من حيث إمكان بحثها في ضوء مبادئ عامة معينة - موضوعاً خليقاً بعلم قوانين الفكر والسلوك عند الإنسان؛ إذ يمكن إلى حد كبير رد التجانس الهائل البادئ في الحضارة إلى تشابه الأعمال الناتج عن العلل المتشابهة بينما يمكن من الناحية الأخرى مراتب الحضارة المختلفة مراحل للنمو والتطور، ظهر كل منها نتيجة للتاريخ السابق، ويوشك أن يؤدي مهمته الصحيحة في تشكيل تاريخ المستقبل»[1].

ويبدو أنه نتيجة لهذا التداخل تعبر اللغة الإنجليزية عن الاثنين بلفظ Culture فسنجدها في كتاباتهم تعني الثقافة وفي الوقت نفسه تعني الحضارة، وهذا يدل على التداخل الشديد بينهما.

ولعل هذا يعيدنا إلى التقاء التعريفين مجمعياً، فتعريف الثقافة كما جاء في المعجم الوسيط يلتقي كثيراً وتعريف الحضارة فيه، ويلتقي والمفاهيم العالمية التي أقرها علماء غربيون لهما؛ إذ يبدو واضحاً جلياً ذلك التداخل والامتزاج بين الاثنين، وإن كنا نستطيع أن نميز بينهما فإن ذلك سيبدو صعبا وفي فروق دقيقة لا تكاد تلحظ.

وأول هذه الفروق هو المظهر المادي، فالحضارة تتمثل في تلك المظاهر المادية التي تعبر عن ثقافة الأمة من خلال العمارة والفنون التي تسهم في إبداعها،

---

(١) المرجع السابق، ٦٣٣، ٦٣٤.

وقد انتبه علماء الأنثربولوجيا والأركيولوجيا «علماء الآثار» إلى هذا الفرق الدقيق وبدءوا يدرسون حضارات الأمم الأخرى وربما وصلوا من خلال بحثهم إلى معرفة ثقافة هذه الشعوب، وعلى سبيل المثال فإن الآثار التي خلفتها الحضارة المصرية القديمة من أهرامات ومعابد دالة فعلاً على حضارة هؤلاء القدماء، ومن ثم يصح أن تكون مصدراً لمعرفة ثقافتهم التي كانوا عليها.

ثاني هذه الفروق: أن الثقافة غالباً تخص الفكر النظري بينما الحضارة تعم هذا الفكر وناتجه المادي المتمثل فيما أبدعه هؤلاء الناس في شتى النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك عادات الناس وسلوكياتهم في الحياة من مأكل ومشرب وملبس وعلاقات اجتماعية بل ونظم سياسية واقتصادية ،فكلما كانت الأمة مثقفة كلما وضعت لنفسها نظاماً راقياً يتفق وطبيعة الثقافة التي تنتشر فيها فمثلاً حينما كانت ثقافة الرعيل الأول قرآنية دينية بحتة كان النظام خلافياً شورياً وكان الخليفة يراعي ربه ويتقيه في رعيته وأعظم الأمثلة على ذلك الخلفاء الراشدون بترتيبهم، وكذلك كان النظام الاقتصادي عنوانا لهذه الثقافة، تكافل وعطاء ونمو وهكذا.

ثالث هذه الفروق: أن الحضارة نتيجة لاتسام طابعها ببعض السمات المادية تنتشر وتنتقل أسرع من الثقافة، ويتم التأثر بها والتأثير فيها أكثر من الثقافة فحينما اختلط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى التي دخلت في الإسلام تأثروا بها حضارياً وانتقلت بعض مظاهر حضارتهم إلى العرب في مأكلهم وملبسهم وعمارتهم وفنونهم وجل مظاهر الحياة قبل أن يتم التفاعل الثقافي بوقت طويل ،ولعل انتقال الحضارة غالبًا ما يكون سببًا في التأثر

الثقافي فيما بعد، وحتى في عصرنا الحاضر فإننا نلاحظ مظاهر التأثر الحضاري تنتقل من الغرب إلينا متمثلة في أدوات الإنتاج ومظاهر الحياة مما نستخدمه في يومنا؛ في ليلنا ونهارنا، ومع هذا فإن تأثرنا الثقافي ما زال متأخرًا وقاصرا على النقل تمامًا كما يحدث في منجزات الحضارة المادية وربما دون وعي حقيقي بها، وإن كان هذا لا يمنع من بعض مظاهر الحركة الثقافية الغربية وإثمارها فينا، ويكفي هذا الواقع الحاضر للتدليل على سرعة انتقال الحضارة وبطء انتقال الثقافة.

ولعل هذا يفسر تأخر المسلمين والعرب الأوائل في استكمال مقومات حضارتهم ولما استكملت ظهرت الحضارة العربية وتنوع انتاجها الثقافي،فبعد أن انتقلت مظاهر التحضر حدث الاتصال الثقافي وتم الامتزاج بين ثقافة العرب الفاتحين وثقافة البلاد المفتوحة، واكتملت مقومات إبداع حضارة إسلامية عربية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كأبدع ما يكون النتاج الثقافي والحضاري.

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل: إذا لم يتم الامتزاج عن طريق الفتح أو الاستعمار، فكيف يتم انتقال الحضارات ؟ ولعل في دراسات كثير من الباحثين الغربيين والعرب ما يفيد في الإجابة على هذا التساؤل ،وهم يرون أنه بجانب الحملات العسكرية والغزوات والاستعمار يتم التبادل الثقافي والحضاري عن طريق التجارة التي تعد أهم وسيلة اتصال سلمي بين الأمم والشعوب؛ لأنها تحدث تبادلاً لمنتجات تمثل آثار لحضارة الأمم المتبادلة لتجارتها مع بعضها، ومن خلال الاستمتاع بهذه الآثار ،الحضارة المتمثلة في المنتجات تتم عملية الإثارة العقلية التي تحاول أن تبحث في وسائل رقي هذا

الإنتاج وجودته، فتبدأ عملية الأخذ الثقافي لمعرفة السر وراء هذا الرقي، فيحدث الاتصال الثقافي ويتحرك عقل الأمة الآخذة ويبدأ في التفكير والبحث مستغلا ما أخذها من هذه الأمة التي أخذ منها[١].

وحول انتشار الحضارات القديمة وانتقالها من مهدها من الشرق إلى الغرب، يرى بعض الباحثين أن ثمة أمرين آخران أديا إلى انتقال الحضارات وانتشارها وهي ظهور الصوت وتمثله لغات، واكتشاف بعض الظواهر الفلكية والجيولوجية التي اكتشفها علماء الآثار ووجدوا لها إسهاما في هذا الانتشار وهو مادة الكربون ١٤ الذي أفاد في الكشف عن كثير من خفايا الآثار بتحليل نقوشها وعن طريق اللغة وتماثل بعض الظواهر الطبيعية ثم انتشار الحضارات[٢].

مميزات الثقافة الإسلامية:

بعد الاستعراض الواسع للثقافة الإسلامية والفرق بينها وبين العلم وبعد تأصيلنا لكل منها نستطيع أن نخلص إلى عدة مميزات تتمتع بها الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات وتتمثل فيما يلي:

(١) أنها إلهية المصدر، فالقرآن الكريم وهو المصدر الأول للتشريع والدين بصفة عامة كلام الله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ وهو المصدر الأساسي لهذه الثقافة ومبعث كل مميزاتها وسماتها، وسنة النبي ﷺ مستمدة منه ومتطابقة معه، ولما سئلت عائشة –رضي الله عنها - عن

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول انتشار الحضارات، راجع عبد الحميد زايد، «متى وأين بدأت الحضارة»، بحث منشور في عالم الفكر، ٣٤ مج ١٥، الكويت، ١٩٨٤.

(٢) المرجع السابق.

صفة النبي ﷺ قالت: «كان قرآنًا يمشي على الأرض»، ولم لا؛ وقد نزهه الله ﷻ أن ينطق عن الهوى فقال: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى** ﴾[النجم: ٣ -٥]، وبهذا يكون كلامه إلهي المصدر أيضًا، بل إن سنته كلها من قول أو فعل أو تقرير إلهية المصدر، فلم يصدر في أي قول عن هواه، ولم يفعل أي فعل يخالف ما أمره به الله، وما أقر شيئًا مما فعله أصحابه يخالف ما أمر به، بل انطلق في كل ذلك من القرآن وهو كلام الله ومن الوحي الذي أنزل عليه ومن تعاليم جبريل وتعليمه الذي كان رسول الله إلى الرسل كلهم أجمعين.

(٢) أنها ثابتة، وقد اختلفت آراء المفكرين حول هذا الثبات، ففريق المفكرين الإسلاميين يرى أن الثبات صفة لازمة فيها لأنها إلهية المصدر، فما دام الله سبحانه وتعالى مصدر هذه الثقافة أزلياً ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل ولا يتعدد فإنها أي الثقافة الناتجة من فهم كلامه لابد بالضرورة أن تكون ثابتة[1]، بينما يرى الفريق الآخر أنها ثابتة بمعنى الجمود والتوقف والهيمنة المعوقة لأي تجديد أو تغيير أو تطلع إلى أي آفاق جديدة في المستقبل.

وكلا الموقفين يحمل لبساً في الفهم، فالثبات الذي يتحدث عنه الإسلاميون، يروجون من ورائه تدعيم موقفهم بضرورة العودة إلى صورة الإسلام الأولى في إطار هدفهم الرامي إلى تكوين المجتمع الإسلامي، ومن ثم يسلبون الثقافة الإسلامية كثيرًا من خصائصها الحقيقية، والآخرون ينشدون التمرد عليها بدعوى ثباتها ومحاولة التطوير فيها أي أنهم يقرون

---

(١) راجع في ذلك سيد قطب، «خصائص التصور الإسلامي» ط١٥ دار الشروق ٢٠٠٢، ص٧٥ وما بعدها.

بمبدأ الثبات من أجل التغيير، لأنها من وجهة نظرهم صبغت كل مجالات الفكر العربي القديم بالجمود والتقليدية[1].

والواقع أن الثبات هنا تعني إلهية المصدر فقط، ولكنه لا يعني الجمود أو ثبات التصور الناتج عنها، إنما هو مصدر لكل الميزات الجيدة التي تميزت بها لأن الله العظيم هو مصدر ثباتها، قدراته في الكون غير محدودة، ويملك بقدرته تغيير مظاهر الكون، كما تدل على ذلك آيات القرآن الكريم التي تشير إلى قدرات الله العظيمة والمتجددة في الكون كله مادياً وثقافياً، صحيح أن الله لا إله إلا هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لكنه بقدرته ينظم الكون كما أراد وكما شاء ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾[فاطر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ **أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾[النمل: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[فصلت: ٥٣]، وغير ذلك من آيات القرآن الكريم التي تبين أن قدرة الله وآثاره في الكون متعددة متجددة، صحيح أنها منطلقة من مصدر ثابت لكن هذا المصدر الثابت له مشيئته التي لا تحد.

ولولا هذه المشيئة والإرادة للتجديد لما نعى على الجاهلين جمودهم وتقليدهم لآبائهم وذم أفعالهم وأقوالهم التي نتجت من رفضهم لهذا الدين بحجة أنه يخالف ما توارثوه عن هؤلاء الأجداد.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع ما كتبه أدونيس في مقدمة كتابه «الثابت والمتحول»، ط٨، بيروت ٢٠٠٢.

(٣) تنتج الميزة الثالثة من الميزتين السابقتين وهذه الميزة هي الشمول والاتساع، فإذا كانت الثقافة الإسلامية إلهية المصدر فإنها بالضرورة تكون شاملة ومتسعة بشمول واتساع مصدرها وهو الله، فالله ﷻ هو المهيمن على كونه الذي خلقه وهو الذي أنزل الرسالات السماوية واحدة تلو الأخرى ليهدي الناس كيف يتصرفون ويسيرون في حياتهم، ويصلح من علاقاتهم بالله وبالكون وببعضهم البعض، وهي لذلك متسعة باتساع الكون الذي يحيط به خالقه تنبه إلى مصادر الإبداع فيه ومظاهر تماسكه بالرغم من تعدد جزئياته وهو ما انتبه إليه" سيد قطب" وخصص له مبحثًا في كتابه بعد ذلك بعنوان «الشمول»، وأوضح فيه هذه الخاصية وانبثاقها من إلهية المصدر أو ربانيته[1]، ومن يتأمل آيات القرآن الكريم يجد إشارات شاملة للظواهر الكبرى وللجزئيات الصغرى في هذا الكون بما فيه ومن فيه، ومن ثم فإنها تتطلب من أتباعها اتساع أفقهم باتساعها، فلا يقفون عند رأي معين ولا يأخذون موقفًا من شيء أحادي الجانب، وقد تنبه إلى ذلك علماء الأصول، وراعوه في تأصيلهم للأحكام، ومن يقرأ كتب الشافعي ومالك والغزالي والشاطبي في علم الأصول سيجدهم يلحون على مسألة الاتساع والشمول لتكون هادية لهم ولكل من يتصدى للفقه أن يراعي ذلك عند إطلاق الحكم، وكان رأيهم أنه لابد لمن يتصدى للفقه أن يلم بجميع جوانب اللغة والحديث والمعارف والآداب فلا غنى له عنها

---

(١) سيد قطب، «خصائص التصور الإسلامي»، ص٩٥، وما بعدها.

حتى يستطيع أن يجتهد بالطريقة الصحيحة ويستنبط الأحكام الصحيحة ولا يقع موقع التناقض أو التصلب في الرأي.

(٤) الميزة الرابعة: التجدد، فالثقافة الإسلامية متجددة لا تقف عند حد أو عصر، ولعل في مقولة العلماء القدماء والمحدثين على السواء أن «القرآن صالح لك زمان ومكان» ما يفيد هذه الميزة ويدعمها، والدليل على ذلك عملي وحي، وهو تعدد التفسيرات التي اجتهدت في تفسير القرآن الكريم عبر القرون الأربعة عشر الماضية، تعددت من حيث الكم فعددها يفوق كل حصر، ومن حيث الكيف والمنزع، فما بين لغوية إلى بلاغية إلى تفسير للمعنى، إلى مذهبية بمعنى انتمائها إلى الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، وحتى حينما سيطرت النزعة العلمية الحديثة في العصر الحديث فإننا وجدنا من يتناول تفسير القرآن الكريم بهذه الروح العلمية، ويكرس جهده للبحث في الإشارات الكونية، وقد تألفت جمعيات مختصة ببحث قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في شتى البلاد الإسلامية، ولعل أبرزها جمعية الإعجاز العلمي في المملكة العربية السعودية التي تسهم بنصيب وافر في هذا المجال ويتجلى في إصداراتها المتنوعة وبلغات مختلفة، وكذلك في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية باتساع العالم الإسلامي، ولن يقف الأمر مطلقًا عند هذا الحد بل إننا نستطيع أن نقول إن الباب مفتوح طالما أن الله موجود والقرآن موجود والعقول التي تحاول أن تتلمس طريقها عبره تسعى فإن سعيها سينتج تفسيرًا واجتهادًا حول

القرآن الكريم، والله يمن على من يشاء بعلمه ويبقى القرآن متجدداً وسنة الرسول ﷺ متجددة بتجدد الدنيا.

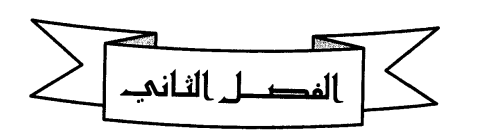
وحسنًا فعل الأصوليون عندما فتحوا باب الاجتهاد والقياس؛ لأن ذلك كان وعيًا وإدراكاً منهم لطبيعة الشريعة الإسلامية، وطبيعة الدنيا بتطورها التاريخي والحتمي وهو مظهر دال على التجدد الذي تتسم به الثقافة الإسلامية.

(٥) الميزة الخامسة: المرونة، فالثقافة الإسلامية منذ نشأتها، ومنذ نزول القرآن الكريم على سيد المرسلين محمد ﷺ، وهي تتميز بهذه الميزة، وليس أدل على ذلك من باب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم الذي يعبر بوضوح عن هذه الميزة، فالحكم ينزل لكي يعالج أمرًا فإذا لم يرتدع الناس ينزل حكماً أكثر ردعاً أو بالعكس ينزل حكم مجمل فلا يستوعبونه فينزل حكم مفصل أو أكثر توافقًا مع طبيعة الحدث، وهكذا كانت سنة النبي ﷺ تتسم بهذا الطابع، بل إن فيها مرونة أشكلت على مغلفي الأفهام فظنوا الأحكام فيها متعارضة وظنوا تعارضاً في النصوص، فمثلاً ينهى الرسول ﷺ عن زيارة القبور، ومرة ثانية يقول: «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبول فزوروها**»وغيرها من الأقوال المختلفة في المسائل المتعددة، وإذا كان المتشددون يرون أحياناً رأياً صلباً فيتهمون الحديث المخالف لرأيهم بالضعف أوالكذب، والذين في قلوبهم مرض يتخذون منها سبيلاً للهدم بمعنى انتفاء مصداقية السنة النبوية المطهرة، فإن كليهما أخطأ؛ لأن هذا الاختلاف ما هو إلا دليل على صدق النبي ﷺ فقد تعلم من جبريل ومن

الوحي سماحة هذا الدين ورحمة الله التي لا تحدها حدود، فالمرونة مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده، وسماحة النبي ﷺ وحبه لأمته وحرصه على ما يؤدي إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، وهكذا تميزت الثقافة الإسلامية بالمرونة عبر عصورها المختلفة، فاستوعبت ما اتصل بها من ثقافات وهضمتها وانصهرت معها في بوتقة واحدة شكلت معالم الثقافة الإسلامية عبر العصور المختلفة، فأخذت منها وأعطتها تأثرت بها وأثرت فيها.

(٦) الميزة السادسة: الإبداع والابتكار، إن كل الميزات السابقة تفتح أمام الثقافة الإسلامية باباً واسعاً للإبداع والابتكار، فما دامت واسعة وشاملة ومتجددة ومرنة بل وما دامت ربانية وثابتة فإنها مبدعة وداعية إلى الإبداع فربانيتها تدفعها إلى الإبداع لأنها من عند الله الخالق البارئ المصور البديع المبدع، ورسوله ﷺ المتصف بكل صفات الجمال والسماحة، والاتساع يدعو إلى الإبداع، لأنه يفتح آفاقاً للابتكار والتجدد، والظروف الحياتية المتجددة تدعو إلى الإبداع ولذلك انتبه العلماء والقدماء إلى هذا ففتحوا باب الاجتهاد، صحيح أنهم وضعوا له شروطه الضابطة له حتى لا يصبح انفلاتا أو باب لكل من علم ومن لم يعلم أن يقول أو يفتي في القرآن والسنة والشريعة، لكن فتح باب الاجتهاد أدعى إلى الابتكار والإبداع، ويدل على ذلك كل منجزات الحضارة الإسلامية في شتى المجالات المعرفية المتنوعة.

وهكذا تتمتع الثقافة الإسلامية بميزات لا تقل عن أية ثقافة أخرى إن لم تكن تفوقها وهي بالطبع؛ لأن الثقافات الأخرى من نتاج عقل البشر فقط، أما الثقافة الإسلامية فيضاف إلى إنتاجيه عقل البشر فيها ربانية المصدر، وهو وحده القادر على بث نور العلم والمعرفة في قلوب عباده المؤمنين به.



خصائص الثقافة الإسلامية

ربانية المصدر

الثبات

الشمول والايجابية

الواقعية والمثالية



خصائص الثقافة الإسلامية

تقديم:

بعد هذا التقديم التعريفي والتوضيحي لمفهوم الثقافة الإسلامية والفرق بينها وبين العلم وبين الحضارة والذي يتضح منه اتساع مفهومها عن كل منهما أو تأثيرها في كليهما فلا سبيل إلى النبوغ في العلم إلا بالثقافة الواسعة، ولا سبيل إلى الرقي الحضاري إلا بالثقافة، وعرفنا أن الأمة الإسلامية لم تنتج حضارتها إلا بعد اتساع ثقافتها وتعمقها، وهذا شأن كل حضارة وكل أمة، فأي أمة من الأمم في العالم لم تصبح لها حضارة إلا بعد أن تنمو ثقافتها وأوربا المتحضرة لم تصل إلى ما وصلت إليه، إلا بعد أن اطلعت على تراث الأمم والحضارات الأخرى وأكبرها تأثيراً فيها الحضارة الإسلامية ولو أنها بقيت على حالها تحت سيطرة الكنيسة وأحكامها المتزمتة ما أنتجت هذه الحضارة.

إن إطلاع الأوربيين على الثقافة الإسلامية وفكرها وآثارها فتح عقولهم، ودفعهم إلى مراجعة واقعهم، فقد هالهم رحابة هذه الثقافة، وانتبهوا إلى ظاهرة مهمة، وهي اتساع دائرة تفسير وتأويل القرآن الكريم من مختلف المذاهب والأفكار، وهم يعيشون وهم التفسير الكنسي الواحد لكتابهم المقدس، وهو تفسير متزمت وغلق لمفاتيح العقل أن يفكر، فلما رأوا ذلك في التراث الإسلامي فكروا وتحمسوا وتحركوا ضد الكنيسة وتوالت حركات الإصلاح التي فتحت أمامهم الباب للنهضة التي أنتجت كل

هذا الكم الحضاري الهائل، والذي نقل العالم من مرحلة إلى مراحل وآفاق واسعة ما زالت آثارها تترى.

ولما كان للثقافة الإسلامية هذا الأثر في حضارات الأمم الأخرى، فإنه من المنطقي أن نتعرف خصائص هذه الثقافة لنستجلى كوامن التأثير فيها أو مناطق وأسباب تمتعها بهذا التأثير، فثقافة أنتجت هذه الحضارة التي عمت أكثر من نصف كوكب الأرض المعروف في ذلك الوقت لابد أن تتمتع بخصائص ومميزات تميزها عن غيرها من الحضارات الأخرى التي اقتصر تأثيرها على مناطقها التي عاشت فيها أو مناطق مجاورة وإن كنا نقر بأن حضارات العالم تتبادل التأثير والتأثر ،ومن ثم فإن الحضارة الإسلامية هي الأخرى تأثرت بغيرها من الحضارات القديمة، وهذا يرجع أيضًا إلى ما تمتعت به الثقافة الإسلامية التي أنتجتها من خصائص ومميزات جعلتها تستوعب تراث هذه الثقافات والحضارات الأخرى ولعل أبرز خصائص الثقافة الإسلامية أنها ربانية المصدر وثابتة وشاملة وإيجابية وواقعية ومثالية، فشملت عموم ما تميزت به الثقافات الأخرى ولنفصل القول في كل واحدة.

أولاً: ربانية المصدر:

أول خصائص الثقافة الإسلامية أنها ربانية المصدر، وذلك بمعنى أن مصدرها الأساسي هو الله سبحانه وتعالى، ولعل كثيراً من الناس يفهم هذا الأمر خطأ فيصل إلى مرحلة من تضييق الفكرة، مع أن المعنى يفيد الاتساع لأن الله سبحانه وتعالى هو الواسع العليم، وقد" وسع كرسيه السماوات والأرض" ونحن بدورنا نريد أن نوضح هذا الأمر.

فأولاً: تنطلق هذه الثقافة كلها من القرآن الكريم، وهو كلام الله الذي أوحى به إلى نبيه ﷺ، ويتميز بجلاله وشموله لكل ما أنزل قبله من الرسالات السابقة عليه كما أخبرنا بذلك القرآن نفسه، يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[الشورى: ٥١ -٥٣].

ولهذا أنزله الله على نبيه ﷺ بكافة أشكال الوحي التي أنزلت على الرسل السابقين، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ۞وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ۞صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[الشورى: ٥١ -٥٣].

ومن الآيات السابقة نتبين أن اتصال الله بالبشر عن طريق الوحي لا يكون إلا بما يليق بجلال الله، وقد اختص جبريل الروح القدس الأمين بوحيه للرسل وحتى في حالة موسى كليم الله، كلمه الله من وراء حجاب، وقد جمع الله سبحانه وتعالى لمحمد ﷺ كل هذه الطرق، فالوحي بمعنى الإلهام سواء كان مباشرًا أو غير مباشر عبر الرؤية تمتع به محمد ﷺ تقول السيدة عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها - «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ

من الوحي كان الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[١]، والكلام المباشر حدث أيضًا لرسول الله ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، وكذلك إرسال الرسول «الوحي»، وهو جبريل الأمين، وهو الوسيلة الأساسية في تبليغ الرسالة؛ رسالة القرآن الكريم، إلى نبيه ﷺ، وهو نفسه له أشكال وصور كان يتنزل بها؛ مثلاً يأتي في صورته الملائكية، أو يأتي مثل صلصلة الجرس أو يتلبسه وينفث في روعه مثلما يدل الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي نفساً لن تموت حتى تستوفي أجلها ورزقها**»، وكما تدعم ذلك الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الشأن وقد ورد كثير منها على لسان السيدة عائشة (رضي الله عنها وعن أبيها)، وفيها بعض ملامح نزول الوحي وخاصة النفس في الروع.

وإذا كانت هناك دراسات كثيرة حول الوحي وتعريفاته وإمكان وقوعه، وذلك أنها قرينة التصديق بنبوة النبي ﷺ لأنها من طريقه أي النبوة تأتي من طريق الوحي، فإنها ثبتت بالطريق العقلي وبالطريق النقلي[٢]، مهما قال فيها القائلون ولعل فيما قاله الإمام محمد عبده في كتابه «رسالة التوحيد» ما يفيد هذا الثبوت، يقول: «وقد عرفوه شرعًا أنه إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص مع نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة،

---

(١) البخاري، ج، ص

(٢)ناقش هذه المسألة بالتفصيل د. حسين حنفي في كتابه الشهير من العقيدة إلى الثورة ضمن سلسلة التراث والتجديد في المجلد الرابع، المعاد، ط مكتبة مدبولي ١٩٨٨، وانتهى إلى إقرارها وثبوتها بكل الوسائل الجدلية.

والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين يأتي وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور»[١].

وهذا يجعلنا نعود إلى الآيات الثلاث التي أوردناها من سورة الشورى، وهي بالتحديد الآية الثانية، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢]، فالله ﷻ في هذه الآية يخبرنا بأن هذا الكتاب هو وحي من الله؛ لأن النبي ﷺ لم يكن قبل نزول الوحي يدري ما الكتاب ولا الإيمان، صحيح أنه كان يتعبد على الطريقة الحنيفية الإبراهيمية بالتأمل في الكون والبحث عن خالقه وهو الله، لكنه لم يكن يعرف على وجه اليقين وقد قال تعالى له في سورة الضحى[٢]: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، أي لم تكن تعرف أين الطريق فهداك إليه، وكان الهدي عن طريق الوحي الذي أخبر النبي ﷺ بالرسالة وبكل ما يريد معرفته عن طريق الرسالة التي بلّغها للنبي بكل الأشكال التي كان يتمثل فيها، فعرف النبي ﷺ ربه وعرف كيف يؤمن به وحقيقة الإيمان وأركانه، ومتطلباته، وكل ذلك من خلال الكتاب الذي لم يكن يعرفه "محمد"ﷺ قبل نزول الوحي إليه، وقد وصفه الله ﷻ بأنه نور يهدي به من يشاء من عباده.

---

(١) الإمام محمد عبده «رسالة التوحيد»، إعداد محمود أبو رية، ط٥، دار المعارف، د. ت، ص١٠٠.

(٢) الضحى/٧

ثانياً: هذا يؤكد ربانية المصدر وهو القرآن الكريم فلا دخل للنبي ﷺ فيه، ويدعمه قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ❁قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ❁وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠١ -١٠٣]، فما دام الكتاب من عند الله فهو أعلم به، ويملكه، يبدل ما يشاء بعلمه؛ لأنه أعلم بما ينزل وهو تأكيد من الله سبحانه وتعالى على ربانية المصدر، ثم يخبرنا الله بأنه نزله عن طريق روح القدس من ربك بالحق، وفي هذا دفع للشبهات التي ادعاها الكفار، والغريب أنها ما زالت لسان حال الكفار في كل زمان، فما زلنا نسمع عن مثل هذه الافتراءات، فإذا رأوا آية مكان آية ادعوا أنه افتراء من محمد، ومرة ثانية يقولون: «إنما يعلمه بشر»، ويرد الله عليهم بما يفيد عدم وعيهم وافتقادهم للحجة العقلية المنطقية، فهم يعرفون هذا الرجل الذي ينسبون إليه معرفة محمد ﷺ، ويعرفون أن معرفته وثقافته أعجمية والقرآن بلسان عربي مبين.

وفي كل مرة يطرحون موضوعاً للجدل والنقاش ليطعنوا في صدق الوحي وبالتالي صدق القرآن، يرد عليهم الله ﷻ ويدحض حججهم، ومن هذا ما قالوه حول نزول القرآن مفرقاً، وكان هذا متكأ لهم في مقولتهم بأنه من عند محمد ﷺ يقول لهم الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[الفرقان: ٣٢]،

ويقول لهم مرة ثانية في سورة الإسراء﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾[الإسراء: ١٠٦] والمتأمل المتدبر يجد توافقاً عظيماً بين الآية التي ذكرناها أنفا في سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ١٠٢]، وبين قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[الفرقان: ٣٢]، وهو تأكيد على ربانية المصدر وهو القرآن الكريم .

ولما سمعوا ما في القرآن من قصص الأمم السابقة، قالوا عنه أنه أساطير جمعها محمد وكتبها بعد إملاء ذلك الحبر الذي يعلمه ويحكي القرآن عنهم هذه الحجة ويدحضها، يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[الفرقان: ٥]، وقد ذكر القرآن الكريم قولهم هذا تسع مرات في سورة الأنعام وفي سورة الأنفال و في النحل والمؤمنون و هذا الموضع فى الفرقان ثم النمل والأحقاف والقلم والمطففين وعند كل موضع كان يتجاهلهم أو يتوعدهم أما عند هذه الآية من سورة الفرقان فهو يرد عليهم قولهم مبيناً أن هذا القرآن من عند الله، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، والواقع أن الذي دفعهم إلى هذا القول هو ثقافتهم السابقة على القرآن إذ كانوا يستوردون القصص الخرافية والأساطير والملاحم من الأمم المجاورة والسير التي تحوي قصص البطولة، فأرادوا أن يصرفوا المؤمنين عن القرآن والنبي ﷺ بهذه الحجة التي يعلمون هم كذبها، ولكنها سيطرت على عقولهم لدرجة أن بعضهم مثل "النضر بن الحدث" كان يذهب إلى بلاد

الفرس ليشتري ملاحمهم وقصصهم، ويذهب ليقف عند باب دار الأرقم وينادي في الناس ليتجمعوا حوله ويقص عليهم هذه الملاحم، وتذكر بعض الروايات التي يوردها "الطبري" في تفسير القرآن أن هذا كان سبباً من أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[لقمان: ٦].

وقد أوضح القرآن الكريم السبب في ذكر هذه القصص يقول تعالى: ﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ٣].

ومرة ثانية يقول في مطلع سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف: ٣]، فيوضح لهم أن هذه القصص هي وحي من الله سبحانه وتعالى، وهي قرآن ووحي من الله سبحانه وتعالى، وليس أساطير أو حكايات تقص على الناس بغير هدف؛ يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١]، فالهدف منها هو نفس هدف الكتاب الذي أنزل هدى للناس وعظة وعبرة لمن يفتري على الله الكذب، وترهيب لهم أن يسلكوا مسالك الظالمين من الأمم السابقة فيرتدعون فيكون لهم ذلك رحمة من عذاب الله.

ولتأكيد ربانية المصدر يذكر القرآن الكريم آيات كثيرة فيها تنزيه للنبي ﷺ عن أن تكون له يد في القرآن أو دور فيه، يقول تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا

هَوَى﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[النجم: ١ -١١]، وهي شاملة لكل ما يمكن أن يتهموا به محمدًا ﷺ، تنزيه له عن الضلال والغواية، وعن النطق بالهوى وعن الكذب، ومن ثم فإن كل ما يقوله ويبلغهم به هو قرآن من عند الله وذكر مبين.

ومرة أخرى في سورة الحاقة ينفي عنه أية مساهمة واشتراك في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴿وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[الحاقة: ٣٨ -٤٧]، إنه ينفي عن الرسول ﷺ أية ملكة يمكن أن يكون لها دور في الإبداع ومن ثم يصبح له دور في القرآن فلا هو بشاعر، خاصة أن الشعر بلغ في ذلك الوقت قمة الإبداع الأدبي والصياغة الراقية، مما كان سببًا في فهم خاطئ لدى البعض بأن القرآن شعر، واستخدم المشركون ذلك في الطعن على القرآن الكريم والنبي ﷺ إنه شاعر، فنزه الله القرآن عن الشعرية، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[يس: ٦٩]، ثم نزه النبي ﷺ في نفس الجملة بأنه لم يتعلم الشعر بعد أن تعددت أقوالهم فيه بأنه شاعر كما يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾[الأنبياء: ٥]، وكذلك في أكثر من موضع بالقرآن الكريم، وقد

استعرضنا هذا بالتفصيل في بحثنا لرسالة الماجستير بعنوان «الشعر والغناء عند أهل السنة حتى ق٦هـ»[١].

وكما نفى عنه الشعرية نفى عنه الكهانة؛ لأن أقوال الكهان كانت كثيرًا ما تمتزج ببعض الأقوال المأثورة من الكتب الأخرى التي سبقت القرآن الكريم، وفيها احتمالات التلاقي مع بعض ما طرحه القرآن من مفاهيم فأشكل الأمر عليهم، وقالوا عنه «أقوال كاهن» مع علمهم بأن هذا غير صحيح؛ لأن ملكاتهم كانت تؤهلهم للتمييز بين الاثنين ولكنه العناد والعنت.

وبعد ذلك يوضح له في صيغة تقريرية جازمة ﴿ **تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾، ولتأكيد ربانية المصدر وتنزيله من عند الله يخبرهم بأن محمدًا ﷺ لو حاول إدخال بعض الأقوال ونسبها إلى الله ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ** ﴾ لحاسبه الله ﷻ حساباً عسيراً وفورياً لأخذ القرآن منه، أو في تفسير آخر لضربناه على اليمين أو لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش[٢]، «ثم لقطعنا منه الوتين»، وهو في تفسير ابن عباس: «وهو نياط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه، وكذلك قال "عكرمة وسعيد بن جبير والحكم وقتادة والضحاك ومسلم البطين، وأبو صخر حميد بن زيا"،

---

(١) محمد علي سلامة، «الشعر والغناء عند أهل السنة»، رسالة ماجستير، مخطوط بجامعة القاهرة، ١٩٨٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ص٤/ص ٤١٧.

وقال محمد بن كعب: «هو القلب ومرادفه وما يليه»[1]، وهكذا يبين تأكيد القرآن على إلهيته وربانيته وأنه كلام الله وأنه منزل من عنده.

إن عليك إلا البلاغ:

وننتهي إلى المهمة الأساسية التي اختص الله بها محمدًا ﷺ وهي التبليغ أو البلاغ وفيها التأكيد الحاسم لربانية المصدر، فالله ﷻ يقول لرسوله: «**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**»[المائدة: ٦٧]، إذن فالرسالة من عند الله والقرآن كلام الله ومهمة الرسول ﷺ كما بينها له ربه هي التبليغ، وليس عليه أن يهتم بما يقوله الناس مما طرحناه آنفاً فقد وعده الله سبحانه وتعالى: «**أن يعصمه من الناس**» وهي مهمة الرسل أجمعين «أي التبليغ»، فقد جاء على لسان الرسل إلى قومه كما ذكرت سورتا الأعراف وهود أن مهمتهم فقط هي الإبلاغ فكل رسول منهم كان يقول لقومه «أبلغكم رسالة ربي»، أو «أبلغكم رسالات ربي»، ثم وضح ذلك في سورة الأحزاب، وهو يتحدث عن محمد ﷺ أنه واحد منهم وآخرهم يقول تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾[الأحزاب: ٣٩]، وحتى حينما تحدى قوم عاد هودًا أن يأتيهم بما يعدهم به وهو العذاب رد عليهم بأن هذا ليس شأنه ولا أمره، إنما هو مبلغ والأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى: ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ**

(١) المرجع السابق، والصفحة نفسها.

الصَّادِقِينَ﴾قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[الأحقاف: ٢٢، ٢٣]، وكان نوح قد سبقه إلى هذا القول حينما قالوا له مثل ذلك: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[هود: ٣٢، ٣٣].

لذلك كله حدد الله مهمة نبيه ﷺ في البلاغ، وقد ورد في " ثلاثة عشر" موضعًا من القرآن الكريم تحديد هذه المهمة، فليس عليه الهداية أو إدخال الناس في حوزة الإيمان، يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران: ٢٠]، وفي المائدة يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ﴾[المائدة: ٩٩]، وفي النور يقول: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[النور: ٥٤]، وإذا كان قد أضاف إليه البيان كما يتجلى في قوله «المبين» فإن هذا البيان أيضًا ليس من عنده بل هو من عند الله أيضاً وإلهامه ونوره الذي يقذفه في قلب محمد ﷺ الذي يقول: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**»، ولذلك هون الله عليه إعراض الكفار عن الدعوة، وهو أمر كان يثقل على رسول الله ﷺ ويعز عليه، فقال له ربه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾[الشورى: ٤٨].

وهكذا تتضح بجلاء ربانية المصدر؛ وأن دور محمد ﷺ فيها كباقي الرسل هي التبليغ أو البلاغ، فلا دخل له ولهم فيما أنزل الله سبحانه وتعالى.

وماذا بعد؟

سؤال يطرح نفسه بعد هذا الاستعراض السريع، لأننا لو وقفنا على كل التفاصيل والآيات التي تدعم ربانية المصدر لأخذت وحدها كتاباً مستقلاً ولكننا وقفنا على أهم النقاط من وجهة نظرنا لا من وجهة نظر القرآن وحاش لله أن نحيط بجز من كلامه أو علمه فله المثل الأعلى، وله العلم كله، وعلينا محاولة المعرفة تلبية لأوامر القرآن وتوجيهاته بأن نحاول العلم (الذي ذكرنا أنه بالنسبة للبشر يعني المعرفة والاجتهاد في تعرف الأشياء على حقيقتها إن أمكن).

إذن علينا المعرفة حتى نستطيع تمييز الأشياء فحينما يقول لنا الله ﷻ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

والسؤال في الآية الأولى نفى بمعنى لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وقد جاء بصيغة السؤال لحث الهمم على الاجتهاد والمعرفة وهي الأدوات الأساسية في الثقافة وتنتقل لصحابها أحياناً إلى الاجتهاد في العلم بقواعده وأصوله، ولأن العلم والمعرفة هما طريق الإنسان إلى تذكر الله لأنهما يصقلان القلوب ويضيئانها بنور الله ولذلك جاء في المعجم الوسيط عند تعريفه للعلم: «وهو نور يقذفه الله في قلب الإنسان»، وعن طريق ذلك يستوعب ربانية المعرفة ويتيقن من ارتباط المعرفة والعلم بالإيمان ومن هنا وصفت الآية الثانية الذي يغفل عن هذا إنما هو أعمى؛ لأن قلبه مطموس بالدنيا وشهواتها وهو ما يؤدي به إلى الكفران والجحود لكل ما أنزل الله، ومرة ثانية اختتم الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾، ولذلك كانت الميزة التي تميز بها آدم على الملائكة وسائر المخلوقات حين خلقه ربه

هي العلم، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ♦قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ♦قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[البقرة: ٣١ -٣٣] ، ويوضح الشيخ الشعراوي (رحمه الله) في كتابه «معجزة القرآن»، الحكمة من قول الله تعالى: «وعلم آدم الأسماء»، فيقول: «ومن هنا حدد مدخل العلم إلى البشر فأنت حين تريد تعليم طفلك تبدأ بتعليمه الأسماء، فاللغة هي وسيلة التفاهم بين البشر»[(١)]، وفي موضع آخر يقول: «ونحن الآن حين نريد أن نعلم طفلاً أن يتكلم، فلابد أن نبدأ نعلمه الأسماء أولاً ولا نبدأ نعلمه الأحداث، فإذا ما تعلم الأسماء أصبح بعد ذلك يستطيع أن يتعلم وأن يتكلم»[(٢)].

ثم بعد ذلك حين عرض الله الأمر على الملائكة فلم يعرفوه ولكن عرفوا أن "آدم" بالعلم فيه من صفات الله العليم الحكيم الذي يعلم أمورهم وأحوالهم فسجدوا "لآدم" حين أمرهم الله بالسجود له، والقرآن الكريم هو تجل من تجليات علم الله سبحانه وتعالى ولذلك فهذه الآيات بجانب ما فيها من إشارة إلى مصدر العلم كله وهو الله ، هي توكيد منه سبحانه وتعالى على تميز "آدم" بالعلم على الملائكة وسائر خلق الله، وهي في الوقت نفسه

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي، «معجزة القرآن»، ج ١، كتاب اليوم الصادر عن دار أخبار اليوم، عدد١٧١رمضان ١٤٠٠ هـ، يوليو ١٩٨٠، ص٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢.

إشـارة إلى مـا ذكرنـاه في الفقـرة السـابقة مـن ضـرورة الاجتهـاد في العلـم والمعرفة حتى يستطيع الإنسان أن يتميز على غيره من المخلوقات.

ولهذا بدء الله نزول القرآن بقوله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ◆خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ◆اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ◆الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ◆عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[العلق: ١ -٥]، إذن يأمره أن يقرأ وهو في هذا يحدد له وسيلة المعرفة وهي القراءة التي بدونها لن يستطيع أن يعرف ما أنزل إليه أو يفهمه ولا يعرف أنه من الله عليه أن يقرأ «باسم الله الذي خلق وعلم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم»، وعن طريق هذا العلم الذي لم يكن يعلمه الإنسان ،يهتدي، وهي إشارة أيضاً إلى دور الإنسان في هذا المضمار هو الانطلاق من التلقي من الله أولاً ثم يبدأ دوره بعد ذلك في البحث والمعرفة، وكثيراً ما يختلط الأمر على بعض من وهبهم الله العلم، ويتصورون أنهم علموا بأنفسهم وعرفوا بعقولهم، ولذا بين الله سبحانه وتعالى أن المنطلق من «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، وفي هذا الصدد يقول الشهيد سيد قطب — رحمه الله - وهو يتحدث عن ربانية التصور الإسلامية في كتابه «خصائص التصور الإسلامي»: «وينص المصدر الإلهي الذي جاءنا بهذا التصور وهو القرآن الكريم على أنه كله من عند الله، هبة للإنسان من لدنه، ورحمة له من عنده وأن الفكرة البشرية ـ ممثلاً ابتداءً في فكر الرسول ﷺ أو في فكر الرسل كلهم باعتبار أنهم جميعاً أرسلوا بهذا التصور في أصله ـ لم

يشارك في إنشائه وإنما تلقاه تلقياً ليهتدي به ويهدي وأن هذه الهداية عطية من الله كذلك، يشرح لها الصدور[1].

ونحن نتفق مع الشيخ سيد قطب في أن الإنسان لم يشارك في إنشاء هذا التصور وهذه الثقافة ابتداءً أي من حيث المصدر فهو أي القرآن من عند الله ولكنه حين أراد بعد ذلك أن ينفي مشاركة الفكر الإنساني قال: "إنما تلقاه ليهتدي به ويهدي ثم أردف ذلك بأن هذه الهداية عطية من الله يشرح لها الصدور"، إذن هناك دور للفكر البشري إنه هو الذي يتلقى هذا الكتاب بعد تبليغ الرسول ﷺ أو الرسل أجمعين كما يقول هو نفسه - هذا التلقي نفسه يمثل دوراً مهماً للفكر الإنساني، الذي حاول "الشهيد سيد قطب" أن يحجمه أو يقف به ثابتاً جامداً عند حدود التلقي،وقد كانت فكرة فساد الفكر البشري ونظرياته مقارنة بالتنزيل الإلهي بما فيه من دستور للبشرية، ومنهج حياة لهم هي الأساس في هذا الموقف، وإن كنا نتفق معه في أفضلية التنزيل الإلهي ومن ثم التصور الإسلامي والثقافة الإسلامية على أي فكر بشري إلا أننا نختلف معه حول دور الفكر البشري في فهم المصدر وتلقيه ونرد عليه بما صنعه هو نفسه إذ كيف تسنى له أن يضع تصوره الإسلامي بخصائصه ومقوماته الذي كان ثمرة عيشه في ظلال القرآن.

وإذا كان دليله ومستنده أن الجيل القرآني الأول تلقى القرآن بكراً .فهذا دليل انفعالي خال من التأمل والروية؛ لأن هذا الجيل تلقى القرآن الحكيم من رسول الله ﷺ الذي تلقاه من لدن حكيم خبير، يقول تعالى:

---

(١) سيد قطب، «خصائص التصور الإسلامي»، ط دار الشروق، ط شرعية، ١٥، ٢٠٠٢م، ص٤٦.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[النمل: ٦]، هؤلاء تلقوه بعقلية مثقفة بثقافة لغوية وعربية عالية، وإلا ما تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة من مثله، ولو لم يكونوا على هذا القدر ما تحداهم، إذ كيف يتحدى جهلاء؟، فهو يعلم مسبقًا عجزهم ومعنى تحديهم أنهم يجيدون صنع الكلام وإذا كانوا على هذه الدرجة فليحاولوا وسيعجزون أيضًا مع قدرتهم هذه، لأنه كلام الله، وكيف يتأتى لبشر مهما بلغوا أن يجاروا كلام الله بكل ما فيه من إعجاز، إذن هم على درجة بالمعرفة تسمح لهم بفهم ما يحفظون من القرآن الذي بلغهم إياه رسول الله ﷺ وهو نفسه مهما ظن أنه تلقى القرآن بكراً فإن ذلك مناف للواقع، والدليل على ذلك في المقارنات التي عقدها بين التصور الإسلامي والتصورات الأخرى الناتجة من تفكير البشر إذن هو تأهل ثقافياً ليتلقاه هذا التلقي.

عرضنا كل ذلك لنصل إلى النقطة الحاسمة في الثقافة الإسلامية وهي أنها ربانية المصدر ولكنها إنسانية الأثر والاثنان متلاحمان فحينما نتيقن أن هذه الثقافة مصدرها إلهي فإن هذا يعني عدة أمور:

أولها: أن نور الله الذي يقذفه في القلوب يهيمن عليها، ومن ثم يضيئها بإضاءات تجعلها مسخرة لصالح البشرية وخيرها.

ثانياً: أن ربانية المصدر تعني اتساع الأفق باتساع ملك الله سبحانه وتعالى، وعلى البشر المتأثرين بها ومؤثرين في غيرهم أن يستوعبوا هذا الاتساع فتتفتح القلوب والعقول ولا تتجمد عند حدود ضيقة بزعم إبعاد تأثير الفكر البشري فيها، ونحن نقر بأنها تسهم في كل جزئية من جزئيات الحياة.

ثالثاً: أن البشر الذين تلقوها، وأسبقهم الرعيل الأول من الصحابة استوعبوا جيداً آفاقها الواسعة فسلكوا في الحياة في ضوء هذين الأمرين، أجادوا قيادة الحياة دون إخلال بالطاعة والتبعية، تعرض أبو بكر للمحن السياسية بشدة وحزم وتعامل معها من المنطلقين، وكذلك فعل عمر بن الخطاب الذي شرب من المنهل الذي شرب منه رسول الله ﷺ كما يروي الحديث الصحيح الذي يرويه مسلم يقول: "عن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينما أنا نائم رأيتني على قليب، عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه والله يغفر له، ضعف، ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر بن الخطاب، حتى ضرب الناس بعطن**»[1]، وفي رواية ثانية «**ثم جاء عمر فاستقى فاستحالت غربا، فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه، حتى روى الناس وضربوا العطن**»[2]، وقد رواه البخاري أيضاً في فضائل الصحابة وأيا ما كانت الرواية فإن الناتج أنهم شربوا من نفس المصدر الإلهي ولولا ما ملكوه من وعي وثقافة لما استطاعوا الجمع بين الحسنيين ، الطاعة والتفكر والمرونة في التعامل بدليل ما ابتكره عمر بن الخطاب من أمور لم تكن موجودة ولكنها منطلقة من المنطلقات نفسها.

رابعًا: أن المصدر الرباني وهو القرآن الكريم دستور حياة ومنهج إصلاح للمجتمع في ضوء تعاليم الله سبحانه وتعالى فشمل كل جزئية في الكون

---

(١) صحيح مسلم، دار الغد العربي، ج٣، مج ٧، حديث رقم: ٦٠٧٥.

(٢) المرجع السابق، حديث رقم: ٦٠٧٩.

صغيرة أو كبيرة وهي إشارة إلى أن من يؤمن بربانية المصدر عليه أيضا أن يعرف قدر الإمكان عن كل شيء ويتأمله ويربطه بحكمة خالقه منه، ولو فعل ذلك لامتلأ علماً وثقافة ولتعمق إيمانه في وقت واحد، فسخر ما يعرفه لخير الناس وحاول قدر الإمكان أن يبعد عن كل ما يصيب الناس من أذى.

خامسًا: لو استوعب الإنسان هذا كله لعم السلام ربوع الأرض، ولما وجدنا أمة تحارب أخرى من أجل توافه الدنيا وبريقها الزائف؛ لأنها كلها متاع الغرور وفانية بأمر الله وهنا وقفة، فالله هو السلام وهو مصدر هذه الثقافة في وقت واحد ،وعلى المؤمن بالله وبأسمائه الحسنى أن ينشر ثقافته الإسلامية التي تدعو كل مبادئها إلى تحقيق الإخاء والتعاون بين البشرية كلها ليتحقق لها السلام الذي تتوخاه كل النفوس السوية.

وأخيرًا فإن ربانية المصدر تضفي كثيراً من الخصائص الجيدة والطيبة على الثقافة الإسلامية وتجعلها فاعلة في إصلاح المجتمع البشري مما أفسدته يد الإنسان الآثمة التي لا تلتفت إلا إلى ما ورائها أو ما تحت أيديها، ومن ثم تتعاظم حاجتها إلى التوجيه الإلهي المتمثل في هذا المصدر الكريم.

ثانياً: الثبات:

تنتج هذه الخاصية من سابقتها فما دامت الثقافة الإسلامية ربانية المصدر فإنها تتمتع بالثبات لأن الذي أنزل هذا المصدر ثابتٌ لا يتغير ولا يتبدل سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، ﴿**اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ**

﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، إذن هو الثابت الأزلي وبقدرته يدبر ملكوته ويدبر أمره ويسع كرسيه السماوات والأرض والبشر لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء هو لهم أن يفتح عليهم به من العلم والمعرفة.

إذن توضح لنا آية الكرسي أن مصدر العلم والمعرفة هو الله الأزلي الثابت ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾، ولذلك كان الله وسيظل في كل وقت وحين هو الله مصدر كل شيء، ويوضح ذلك القرآن في أول سورة آل عمران يقول تعالى: ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ❁نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ❁مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ❁إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء❁هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ❁هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ❁رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ❁رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[آل عمران: ١ -٩].

والمتأمل لهذه الآيات يدرك معنى الثبات والحركة في آن واحد، فالثبات على مستوى الرسالات كلها ندرك من هذه الآيات أن مصدرها هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، والحي هنا توحي بالثبات لأنه لا يفني ولا يغفل ولا تأخذه سنة ولا نوم وهو قيوم أي دائم القيام بالأمر، والقيومية تلزم الثبات؛ لأنه

لكي يقوم بالأمر لابد أن يكون ثابتا، ولذلك قال بعض العلماء إن اسم الله الأعظم هو الحي القيوم وقد سمعت هذا في حديث تلفزيوني للشيخ "الحميدين" أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر في المملكة العربية السعودية.

وفي هذا الصدد نقول إن هذا الرأي له وجاهته لأن صفة الحي كما تعني الثبات فإنها تعني التجدد، لأن الحياة سمتها الأساسية التجدد، ومن هذه الصفة تنطلق كل الصفات التي هي في الوقت نفسه أسماء الله الحسنى وبالرغم من أنها واحدة من هذه الأسماء إلا أنها تعد مصدرًا لها في كونها منطلقاً لها، والقيومية تعتمد على الحياة لأن الذي يقوم بالأمر لابد أن يكون حياً، وقيامه بالأمر يستلزم وجوباً كل هذه الصفات الأخرى، لأنها تعد ناتجاً لهذه القيومية، فالسميع والبصير والملك والقدوس والسلام والمهيمن والعزيز والجبار إلى أخر أسماء الله الحسنى من توابع الحياة والقيومية، وهذا يعني باختصار شديد مرجعية التجدد والحركة إلى الثبات.

ويتبع هذا ضرورة نزول الرسالات السماوية التي تصحح مسار البشرية وتعدل من انحرافاتها ولذلك جاء بعد **﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ❖مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾**، ليربط الناس بالأصل والأساس الذي تنطلق منه كل المعارف والعلوم والتوجيهات السلوكية وهو الله وبناء على ذلك يعدلون من سلوكهم في الحياة حتى جاءت الرسالة الخاتمة **﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾**، وسمة الثبات فيها تتمثل في تصديقها لما بين يديها من الكتب وفي الوقت نفسه فإن فيها صفة الحركة حيث تفرق هذه الرسالة وما سبقها من توراة وإنجيل بين الحق والباطل، هذه التفرقة هي في ذاتها الحركة وهي منطلقة من الثبات،

يقول "الشهيد سيد قطب": «وهذه السمة –سمة الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت – هي طابع الصنعة الإلهية في الكون كله – فيما يبدو لنا – لا في التصور الإسلامي وحده»[1].

ويدلل على ذلك ويشرحه بقوله: «مادة هذا الكون –سواء كانت هي الذرة أو الإشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها، أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية، ولكنها تتحرك فتتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحور والتطور»[2].

ولهذا الثبات وهذه الحياة والقيومية صفة لازمة وهي: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ** ﴾، وهذا أمر طبيعي، فالكون كله من سماء وأرض من خلقه وبالتالي يعرف أسراره وخفاياه، وحينما يشاء يفتح على عباده ببعض علمه حتى يدركوا ما يفيدهم وما يضرهم: ﴿ **وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** ﴾.

وينتقل بعد ذلك إلى الخلق: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[آل عمران: ٦]، وقد اختار شيئاً قريباً منهم وهي الأرحام، فبالرغم من أنهم يملكونها ويتصورون أنها بين أيديهم ويعرفون عنها كل شيء إلا أنها في الحقيقة خافية عنهم، ويملك ناصيتها الله سبحانه وتعالى فيصور ما فيها كيف يشاء.

---

(١) سيد قطب، «خصائص التصور الإسلامي»، ص٧٦.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ثم يستعرض آيات الكتاب وما فيها من محكم ومتشابه وموقف المتلقين منها ويبين أن المصدر الأساسي هو الله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وبالتالي فإن هذا المصدر ثابت بثبات منزله فإن فيه بعض الحركة بالنسبة للمتلقين وقد جعله الله بين محكم ومتشابه حتى يختبر عباده في موقفهم من هذا القرآن فالذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه "ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله" في ضوء هذه الفتنة ولصالحها، أما الراسخون في العلم فإنهم يقولون "آمنا به كل من عند ربنا وما يزكر إلا أولو الألباب"، وقد وصفهم الله بأنهم أولوا الألباب لأنهم أفادوا من علمهم في تدعيم إيمانهم، وقد أضاءت لهم قلوبهم العامرة بذكر الله سبحانه وتعالى الموقف فأدركوا ثبات المصدر وحملوا المتشابه على المحكم وردوه إلى الله فقالوا: «كلٌ من عند ربنا»، وهو إلى جانب كونه عمق إيمان فإنه إدراك لثبات مصدر الثقافة وأن تجليات **الاختلاف التي** تحرك العقول ما هي إلا ناتج هذا الثبات فيحملون المتحرك على **الثابت وبالتالي** يبعدون عن الزيغ، فإذا تعذر استيعابهم لأمر متشابه، ردوا **تأويله إله** الله: «وما يعلم تأويله إلا الله»؛ لأنه مصدر كل معرفة، وهو أعلم بكتابه.

وبالرغم مما قد يبدو من إشارة في هذه الجملة من أنها مصادرة للتفكير فإن الحقيقة أنها رد الأمر إلى صاحبه وهو الله، وفي الوقت نفسه تحذير لكلا الطرفين الذين في قلوبهم زيغ، والذين رسخوا في العلم من أنهم لم يصلوا إلى حقيقة مقصده فالذي يعلم مقصد الكلام هو قائله، وهي في النهاية إشارة إلى الثبات «ثبات المصدر».

وبعد ذلك يأتي دعاء هؤلاء الراسخون في العلم بأن يحميهماالله سبحانه وتعالى، وذلك في من أن أجل أن يحوزوا رحمة الله وهم يدعون الله بأن يهبهم هذه الرحمة، وذلك في اليوم الذي يجمع فيه الناس، وهذا اليوم لا ريب فيه لأن الله وعد به، وهو لا يخلف الميعاد وفي ختام هذه الآية إشارة واضحة إلى ثبات المصدر وهو الله فالثابت لا يتغير ولا يتبدل، ومن ثم لا يخلف وعده.

هذا الأساس الذي انطلقنا منه، وهي هذه الآيات التي شملت كل هذه المعاني وعبرت عن مضمونه ، يقول سيد قطب: «إن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية - وهي قاعدة التصور الإسلامي - ثابت الحقيقة وثابت المفهوم وغير قابل للتغير ولا للتطوير».

حقيقة وجود الله وسرمديته ووحدانيته كل إشعاعاتها، وقدرته وهيمنته وتدبيره لأمر الخلق وطلاقة مشيئته، إلى آخر صفات الله الفاعلة في الكون والحياة والناس وحقيقة أن الكون كله أشياءه وأحياءه من خلق الله وإبداعه....

وحقيقة العبودية لله، عبودية الأشياء والأحياء وعموم هذه العبودية للناس جميعا بما فيهم الرسل (عليهم الصلاة السلام) عبودية مطلقة لا تلتبس بها آثاره من خصائص الألوهية مع تساويهم في العبودية»[1].

الثبات بين المتشددين والمتمردين:

هذه الخاصية كاشفة للوعي الحقيقي بهذا الدين، ومقياس حقيقي للثقافة الإسلامية المستنيرة الواعية، لأننا كثيرًا ما نجد أنفسنا أمام موقفين يستغل كل منهما صفة الثبات أسوأ استغلال، فنجد فريقاً من المتشددين

---

(١) سيد قطب، «خصائص التصور الإسلامي»، ص٧٧.

يؤكد عليها في كتاباته من أجل هدف ظاهره الرحمة وباطنه العذاب وهو التجمد والتوقف عند حد معين، فهم حين ينادون بعودة المجتمع الإسلامي إلى صورته الأولى يكشفون عن فهم خاطئ يصور الثبات جموداً، ولذلك فإنهم حين يصطدمون بمحدثات الأمور لا يستوعبونها وتضطرب آراؤهم بين مفكر لها ورافض ومحرّم، وبالتالي تصبح الدعوة الجميلة إلى ضرورة عودة صورة المجتمع الإسلامي الأول بكل تجلياته الفكرية والسلوكية إلى أداة تجميد من أجل هيمنة فكرية تدميرية؛ لأنها هيمنة تضر بالإسلام وتصوره طوطماً أشبه بالعادات الوثنية دون التفات إلى أن معجزة هذا الدين الخالدة والثابتة والتي وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها هدى للناس، ووعد بحفظها: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، فهو المنزل وهو الحافظ له ليضمن ثباته وعدم قدرة اليد البشرية أن تمتد إليه بتحريف أو تبديل كما سبق مع الكتب الأخرى.

والحقيقة أنها ثابتة ومحفوظة من آثار البشر، لكنها غير جامدة، إن صورة المجتمع الإسلامي الأول لا تقف عند حدود هذه الشكليات بالرغم من أهميتها باعتبارها رمزًا معبرًا عن الصورة المتميزة للمسلم، لكنهم أي المسلمين الأوائل لهم فكرهم وسلوكهم المستمد من فهمهم للقرآن الكريم، والمكون لثقافتهم التي استطاعوا بها أن يتعاملوا مع محدثات الأمور بعقل متفتح، ولا أدل على ذلك من موضوع جمع القرآن الكريم والحوار الذي دار فيه بين "أبي بكر الصديق والصديق والفاروق عمر بن الخطاب"، وإصرار "أبي بكر" على ألا يفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ،

فلم يزل عمر يراجعه ويحاول إقناعه حتى نجح في مهمته وكلفا "زيد ابن ثابت" بجمع القرآن في مصحف واحد، وقد كان ذلك نتيجة حدث مستجد وهو موت كثير من الصحابة الحفاظ في حروب الردة وخاصة حرب اليمامة، إذن هم يعطونا المثال على الالتزام بالأساس الثابت والمرونة والحركة المنطلقة منه إزاء الجديد، وبالتأكيد فإن هذا الأمر بالرغم من أنه لم يرد عن رسول الله ﷺ، إلا أن أحدًا في عهدهم أو بعدهم من الصحابة والتابعين والفقهاء لم يعتبر هذا محدثاً أو بدعاً أو ضلالة، وقد تكرر الأمر بعدهم في عصر عثمان فأضاف إلى الجمع نسخاً أي أعاد الجمع ثم نسخ منه نسخاً أرسل بها إلى الأمصار وحرق ما دون النسخة التي أجمعت عليها الأمة، وأيضًا لم يعد أحداً من الناس ما صنعه عثمان بدعاً أو ضلالة مع أنه أمر لم يرد عن رسول الله ﷺ.

ومن هنا يتضح المعنى الذي قصدته من أن ظاهر الدعوة إلى عودة المجتمع الإسلامي لصورته الأولى وهي أنها ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب المتمثل في تجميد الدين عند عصر محدد ثم ما يتبع ذلك من تخويف الناس بأن كل أمر جديد هو نوع من البدع والمحدثات والضلالات لأن الله ﷻ لا تتوقف مشيئته عند عصر محدد ولا آية بعينها وأظن أن من يقرأ قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۞أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٠٦، ١٠٧] يدرك جيدًا معنى الثبات والتجدد في آن واحد، لأن ذلك داخل في إطار قدرة الله التي لا تحدها حدود وصفته الحي القيوم ومن ثم فإنه بمشيئته وقدرته ينسخ ما يشاء من آيات

ويأتي بخير منها أومثلها وهذه قدرته الفاعلة في ملكه، ولذلك يقول: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وما دام له ملك السماوات والأرض فإنه يملك كل شيء فيه يغيره ويطوره كيف يشاء وفي أي وقت يشاء، ولذلك فإنه أنزل كتابه صالحاً لكل زمان ومكان.

ولم تكن سنة رسول الله ﷺ ولا سنة أصحابه التي قال في حقها صلوات الله وسلامه عليه: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**»(1)، متجمدة ولا واقفة عند عصر بعينه، وتصلح له دون غيره، ومن ثم تقف بالناس في كل زمان ومكان عند حدود هذا العصر وتتوقف آلة الزمن وتعطل قدرة الله سبحانه وتعالى في كونه الذي يملكه.

وفي مقابل هذا الموقف الذي يريد تجميد الزمن عند حدود عصر بعينه نواجه بموقف آخر يستغل حديث الثبات أسوأ استغلال؛ إنه موقف المتمردين الذين يرون في الحديث عن هذه الصفة منطلقاً للهجوم على الإسلام واتهامه دون وعي أو بوعي، بالجمود والرجعية وعدم الصلاحية نتيجة فقدانه القدرة على ملاحقة تطور الزمن وأحداثه ويظلون يكيلون الاتهامات له، وهم حتى إن ادعوا الثقافة والعقلانية والوعي فإنهم أبعد ما يكونون عن هذا الوعي؛ لأنهم لو درسوا هذه الثقافة والعقلانية والوعي فإنهم يعتمدوا على موقف الفريق الآخر وتكريس دعوته بأن ما يقوله هو الدين وما عداه باطل، أي أنهم لو رجعوا إلى الأصل والمصدر وتأملوه لفهموا حقيقة الثبات المنطلقة من ثبات المصدر الأصلي لهذه الثقافة وهو الله ﷻ واستوعبوا أن القرآن مصدر

---

(1) صحيح مسلم.

هذه الثقافة رحب واسع ولا عجب فهو من عند الله الواسع العليم الذي يملك الملك كله في الأولى والآخرة، وأن به علاجًا لكل أمور الحياة وهداية للإنسان في مسلكه الدنيوي وحتى في سعيه إلى الآخرة الدائمة واجتهاده لأن تكون آخرة طيبة.

إن حديث الثبات بمفهومه التجميدي أشبع هوى في أنفسهم وزيغاً كانوا يتلمسون له طريقاً وحجة لكي يبثوا سمومهم حول الدين الإسلامي بعامة والفكر والثقافة الإسلاميين بصفة خاصة، وهم ينطلقون أيضا من وصفهم لهؤلاء بالرجعيين والجامدين ثم ينطلقون بعد ذلك إلى الدين ويحاكمونه على أساس هذه الرؤية فيتهمونه بالرجعية والجمود، وذلك من أجل أن يقنعوا أنفسهم بصحة ثقافتهم واعتقادهم، وأنها متطورة متحركة، ونظن أن هذا لا يحدث إلا من عقل يعرف أنه في موقف ضعف، فهم يدركون جيداً أن أفكارهم بشرية وتنتج عن هوى ،ومن ثم فهي أضعف من ثقافة القوة الناتجة من القوي العادل الحكيم: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [الجاثية: ٢٣، ٢٤].

إنه تصوير ينطبق على مشركي العصر الحديث كما ينطبق على المشركين القدماء، إنهم يتخذون هواهم إلها، وتشير جملة «وأضله الله على علم» أنهم يضلون بعلمهم، لقد منّ الله عليهم بعلم فاستخدموه لخدمة هواهم ومحاربة المبدأ الذي يعلمون حقيقتة ،وكان من نتيجة ذلك أن ختم الله علي

قلبه ،وجعل على بصره غشاوة ،وبالتالي لن يجد من يهديه من بعد الله، ومرد ذلك أنهم تصوروا الحياة كلها هي الحياة الدنيا وليس بعدها حياة، وما يهلكهم إلا الدهر إنهم دهريون.

وقد يتصور أحد الذين في قلوبهم زيغ تناقضاً بين قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، والحقيقة أنه لا يوجد أدنى تناقض بينهما فحينما تنكر لعلمه واتخذ هواه إلهاً له وختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصر غشاوة حينئذ تصور الباطل حقاً والحق باطلاً فانتفت عنه صفة العلم، إذا كيف يكون عالماً بدون بصر مجلو وسمع دقيق وقلب صاف مليء بنور الإيمان بالله، إن هذا يعيدنا مرة ثانية إلى تعريف العلم بأنه نور يقذفه الله في قلب المؤمن فلما تكاثرت الحجب التي تحجب قلبه عن كشف الحقيقة انتفت أسباب العلم فلم يعد لهم علم حقيقي.

من هذا المنطلق اختلطت الأمور عليهم فلم يستوعبوا فكرة الثبات على حقيقتها بل من منطلق هواهم وضلال الله لهم جعلوها متكأ للطعن على الدين واتهامه بالجمود والرجعية وعدم مواكبة العصر، وأنه وإن صلح في عصر بعينه، لم يعد يصلح لهذا العصر الذي يسيطر عليه العلم البشري، ونسوا قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهي تنبيه إلى أن كل ما فيه البشر من علم إن هو إلا فضل من الله حتى تتأكد عقيدة المسلم الحقيقي ويعرف أن الله هو الحق المبين.

المفهوم الصحيح للثبات:

وبعد هذا يمكن أن نصل إلى التساؤل: إذن ما هو المفهوم الحقيقي للثبات الذي يميز التصور الإسلامي الصحيح ومن ثم الثقافة المنطلقة منه ؟ الثبات في مفهومه الحقيقي يعود إلى ثبات الأصل وهو الله خالق الكون المتحرك وكما يقول سيد قطب: «الحركة داخل إطار ثابت ومحور ثابت» هناك ثبات في مقومات هذا التصور الأساسية وقيمة الذاتية فهي لا تتغير ولا تتطور حينما تتغير ظواهر الحياة الواقعية وأشكال الأوضاع العلمية، فهذا التغير في ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع يظل محكوماً بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التصور.

ولا يقتضي هذا «تجميد حركة الفكر والحياة، ولكنه يقتضي السماح لها بالحركة . بل دفعها إلى الحركة ولكن داخل هذا الإطار الثابت حول هذا المحور الثابت»[1].

إنه الثبات الدافع إلى الحركة وليس إلى الجمود، ويمثل ذلك أبرز تمثيل القرآن الكريم ، فهو ثابت ومحفوظ سواء في اللوح المحفوظ أو في الدنيا وهذا وعد الله، ولكن اجتهادات العقول حوله لم تتوقف، وهو بالتالي الباعث على الحركة بالرغم من ثباته، فكل من تعرض للقرآن بالتفسير أو التأويل أدرك أن القرآن ثابت، وأنه يدعوه إلى التفكير والتأمل.

---

(١) سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي: ص ٧٥، وقد فصل مقومات التصور في كتاب خاص بها وهي الألوهية والعبودية وحقيقة الألوهية وحقيقة الكون والإنسان والحياة فمن يريد مزيداً من التفصيل فليرجع إليها فيه.

إن القرآن الكريم مصدر كل المعرفة والثقافة معجز، وإعجازه يعود إلى أنه كلام الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الإعجاز هو الباعث الحقيقي للحركة حوله، إن سعي الإنسان المسلم الدائب إلى فهم القرآن من أجل تطبيقه والعمل به في هذه الدنيا، وينتج من فهم معين فهم آخر مخالف له أو متفق معه، ومن هذا المنطلق نشأت المذاهب الفكرية المختلفة، وراح كل مذهب يبحث له عن مرجعية في القرآن الكريم من خلال نص فيه يتأوله.

وبالرغم من أن الاختلاف وصل إلى حد الصراع أحيانا، وذلك دليل على قصور العقل البشري المتمثل في تعصبه لما يعتقده أو يصل إليه فكره واجتهاده، ثم اعتزاز الإنسان بنفسه إلى درجة تصل أحيانا إلى حد الغرور وهو سمة بشرية، مما عطل كثيراً حركة الفكر الإسلامي وخطواته إلى الأمام، وهو سمة حقيقية للقرآن الكريم فإعجازه دافع إلى التطور والتقدم، أقول بالرغم مما وصل إليه الأمر وتمثل في حد التطرف المتجلي في اتهام كل فرقة للأخرى بالجهل أحيانا وفي الذروة الكفر والزندقة ، فإن الأمر في حقيقته يعد تعبيراً حقيقياً على اتساع ورحابة أفق القرآن الكريم والمثير، لأنه منطلق من التحدي والإعجاز، إنه دليل قوي على هذا الإعجاز ومن ثم الثبات والحركة في آن واحد، ثبات المصدر وحركة الفكر حوله.

وفي ضوء هذا كله نشأت الثقافة الإسلامية متمتعة بالخاصيتين، ولو تأملنا بعمق النتاج الفكري لهذه الجماعات والفرق لوجدنا أنها جميعها لا تختلف حول الأصول الثابتة، العقيدة المتمثلة في التوحيد ثم العبادات، وتختلف حول الفروع الجزئيات وبعض المفاهيم، ولنأخذ مثلاً التوحيد فأهل

السنة والجماعة والمعتزلة والشيعة والمتصوفة كلهم متفقون على المبدأ الأساسي وهو توحيد الله سبحانه وتعالى، ثم تختلف فيما بينها حول توجيه مفهوم التوحيد، فأهل السنة والجماعة يرونه توحيداً خالصاً معتمداً على المنقول من النصوص سواء كانت آيات قرآنية أو أحاديث شريفة أو مأثورات السلف الصالح كما استوعبوه من القرآن والسنة، والمعتزلة يقرنونه بالتنزيه عن كل ما يثير في خيال الإنسان من أفكار تمس الذات الإلهية بالتجسيم والتشبيه، وهكذا راحت كل فرقة تفسر المبدأ من وجهة نظرها، ومع ذلك لم يختلفوا على المبدأ، وإن كان الاختلاف حول توابعه.

وهذا في حد ذاته يعد نموذجاً حيا لمبدأ الثبات والحركة الناتجة منه ويوضح مفهوم الثبات في الثقافة الإسلامية، إنها تدور حول أسس ثابتة، ولكنها تتحرك حولها من منطلق تجدد حركة الكون وتطور حركة الفكر حوله، «وهذا النمو والتجدد والتنوع والتركب الذي حدث في الحياة البشرية منه الكثير هو مقتضى النمو الفطري في الحياة البشرية ومن ثم فالإسلام يقبله ويضيف إليه أيضاً بعد استبدال الأسس التصورية والاعتقادية التي يقوم عليها وإعادة ربطه بالتصور الإسلامي الصحيح، وعلى سبيل المثال نذكر أعظم ما في هذه الحضارة القائمة من عناصر البقاء والنماء، وهو الأساس العلمي في التفكير والأساس التجريبي للنمو الحضاري، فهذا الأساس نشأ ابتداء بفعل التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي ذاته»[1].

---

(١) سيد قطب، «مقومات التصور الإسلامي»، ط٥، دار الشروق، ١٩٩٧، ص٣٦.

ويرى الشيخ محمود شاكر أن السبب في بقاء الثقافة الإسلامية وثباتها يعود إلى الأصل الأخلاقي الذي تتمتع به، وهو يعود بطبيعته إلى ارتباطها الوثيق بالدين وهو ثابت محفوظ ،وحريص على نشر الأخلاق وتدعيمها» وهذه العناية بالأصل الأخلاقي هي التي حفظت على الثقافة الإسلامية تماسكها وترابطها مدة أربعة عشر قرنا ، مع كل ما انتابها من الضعف، ومع كل ما اعتورها أو دخل عليها من التقصير والخلل، وبقاء هذا التماسك على طول القرون هو وحده إحدى عجائب الحضارات والثقافات التي عرفها البشر"، ويضيف في الهامش «ثم غلبة هذا الأصل الأخلاقي على الثقافة العربية الإسلامية كلها، في جميع علومها وعناية هذه الأمة بإفراد هذا الأصل بالتأليف كالذي ألفوه في آداب العالم والمتعلم والفقيه والمتفقه وعلم النظر والمناظرة وعلم الجدل وعلم آداب الدرس»[1].

ولنضرب مثالاً دالاً على الذي قلناه حول المفهوم الصحيح للثبات في الثقافة الإسلامية ما قاله المستشرق الألماني شاخت في كتابه «تراث الإسلام» حول التشريع الإسلامي باعتباره النظام القانوني بمفهوم العصر الحديث، فبعد ان طرح تطوراً تاريخياً لظهور التشريع الإسلامي منذ عهد النبوة حتى نهاية العصر العباسي الذي شهد تفككاً للأمة الإسلامية يقول: «ثم جاء بعد ذلك تفكك الدولة الإسلامية تدريجياً وهو تفكك كان قد قطع شوطاً حوالي أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهنا نجد أن التشريع الإسلامي أفاد من ابتعاده عن السلطة السياسية فحافظ على

(١) محمود شاكر، «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ص٥٠، ٥١.

ثباته واستقراره، بل إنه كان العامل الرئيسي في وحدة عالم إسلامي منقسم، وعلى حين كان التشريع الإسلامي ينمو ويتكيف حتى العصر العباسي الأول، فإن هذا التشريع أخذ منذ ذلك الوقت يجمد على نحو متزايد ويستقر في قوالب نهائية، وهذا الجمود في الجوهر ساعد التشريع الإسلامي على الاحتفاظ باستقراره طوال القرون التي شهدت انحلال الأنظمة السياسية في عالم الإسلام، وليس معنى ذلك أنه جمد جموداً تاماً، ولكن التغييرات التي وقعت كانت تهتم بدقائق النظرية التشريعية الفقهية والآراء المترتبة عليها أكثر مما تهتم بالتشريع الوضعي»[1].

وأظن أنه يقصد بلفظة الجمود هنا الثبات والاستقرار على وضع معين، وإن كان يرى أن السبب في هذا الثبات هو بعد التشريع عن السلطة السياسية فقط فالحقيقة أن الأمر يرجع إلى بعد السلطة السياسية عنه هيبة له؛ لأنه أوسع من أن يقصر الأمر على السياسية، ومهما بلغت مطامعهم الدنيوية وشهوة السلطة إلا أن هيبة الإيمان في نفوسهم جعلتهم لا يقتربون منه، وكانوا جميعاً يجلون العلماء الذين يرشدونهم أحيانا، هذه الهيبة نابعة من ثبات مصدره وهو القرآن ومنزله هو الله سبحانه وتعالى.

ويرجع "شاخت" عظمة هذا التشريع باعتباره قانوناً دينياً إلى تميزه عن الشريعتين اليهودية والقانون الكنسي، ذلك لأن الشريعة الإسلامية أكثر تنوعاً في صورتها مما في التشريعين المذكورين؛ لأنها جاءت نتيجة نظر

---

(١) شاخت وبوزورث «تراث الإسلام»، القسم الثالث، ت. حسين مؤنس، وإحسان صدقي العمد، عالم المعرفة، عدد ١٢، الكويت، ديسمبر ١٩٧٨، ص ١٣.

وتدقيق من الناحية الدينية في موضوعات للقانون كانت بعيدة عن أن تتخذ صورة واحدة»[1].

إذن الثبات هو الأصل والتجدد ناتج تطور الزمن، وهو مشمول بالرؤية الدقيقة والثابتة، بل إن عامل الثبات فيها هو باعثها إلى التجدد فكلما حدث أمر وحاول العلماء والفقهاء إرجاعها إلى الأصل الثابت بالنظر في موقفه منها لكي يتوافق مع الأمرين على السواء الأصل الثابت والزمن المتطور المتجدد والأحداث المتجددة ،وهذا هو سر عظمة هذا الدين وبالتالي ثقافته الإسلامية الناتجة منه .

والخلاصة:

(١) إن الثبات يعني ثبات مصدر هذه الثقافة وهو القرآن الكريم، وهو ثبات يضمن لها استمرارها مهما تكالبت عليها المحن والظروف فما دام القرآن محفوظاً وثابتاً فستظل هذه الثقافة محفوظة وقائمة.

(٢) إن الثبات ناتج من هيمنة هذا المصدر الثابت على جميع معارف الإنسان فحتى الإنسان الذي لا يحفظ القرآن الكريم كله أو لا يستطيع استيعابه كاملاً يظل مرتبطاً به حتى وإن كان يبحث فيه عن مستند لخروجه أو مروقه منه فإنه يستدعيه دائماً في ذاكرته، ومن يريد أن يدرك ذلك عليه أن يتابع أحياناً حوارات الناس حول قضية التعدد «تعدد الزوجات»، . ومحاولة كل فريق أن يؤول النص حسب رؤيته، وهذا كله يعني هيمنة هذا المصدر الإلهي الرباني.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠.

(٣) إن هذا الثبات ناتج عن تمتع هذا الثقافة بالأصل الأخلاقي الذي يتلاقى وفطرة الإنسان السليمة السوية وهو أمر طبيعي لأن القرآن الكريم دستور أخلاقي رفيع جاء ليخرج الناس من ظلمات الجهالة وهي بالدرجة الأولى جهالة أخلاقية إلى نور الإيمان بالله، وهذا النور يضيء لهم طريق سلوكياتهم بتصحيح مسالكهم الأخلاقية في الحياة ولو تأملنا كل الحدود لوجدناها تهتم بتقويم الأخلاق مثل منع الاعتداء على النفس والسرقة والزنا وشرب الخمر وغيرها من الأخلاقيات الفاسدة ومن يريد مزيداً في هذه النقطة فليرجع إلى كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» لمؤلفه "عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني" حيث يوضح مدى ارتباط كل فروع الشريعة الإسلامية بالأسس الأخلاقية التي جاء بها القرآن مما ضمن ثباتها واستقرارها»[1].

(٤) إن الثبات مصدر دافع إلى الحركة وقد تجلى ذلك في العلوم والمعارف الناتجة منها نتيجة للمحاولات الدائبة لفهم أسس هذا الثبات فآيات الله في الكون ثابتة وتجددها يتم بالمحاولات المستمرة لكشف أسرارها فالسماء موجودة ثابتة والأرض كذلك وما في السماء من نجوم وكواكب ثابتة، والجديد هو ناتج البحث في أسرارها ومحاولة فك طلاسمها، وكل ذلك وارد في القرآن الكريم بأصله الثابت يدعو إلى

---

(١) راجع في ذلك: عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني «الأخلاق الإسلامية»، الجزء الأول، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.

التأمل فيها للوصول إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الثابت الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل.

(٥) وأخيراً يتجلى هذا الثبات في هيمنة هذه الثقافة على الثقافات الأخرى الممتزجة بها واستيعابها في إطارها الثابت الأساسي وهو الدين الإسلامي بنزعته الأخلاقية المقومة لكل أمور الحياة وقوانينها وقواعدها الراسخة التي تنظم كل أمور الحياة مما حفظ لها استقرارها برغم تغير وتبدل النظم السياسية وأحوال الدولة من شمولية جامعة إلى دويلات مفككة.

٣. الشمولية والإيجابية:

مصطلح الشمولية ملغز، لأنه يستخدم استخدامات متعددة فهو دال على الشمول والاتساع، ويطلق أحياناً على الأنظمة الدكتاتورية التي تلجأ إلى النظام الشمولي ليضمن لها هيمنتها واستمرارها وأكبر دليل عليها الأنظمة الشيوعية والماركسية التي اتبعت نظاماً شمولياً حتى تضمن هيمنتها بفناء الكل في واحد يكون شخصاً غالباً حتى وإن ادعى سطوة طبقه كما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي المنهار، وليس أدل على فساد هذه الأنظمة من سقوطها وانهيارها؛ لأنها ببساطة تتجاهل حقوق الإنسان الفرد، بل وتعتدي على حقوق الغالبية لصالح قلة تظن أنها أدرى بمصالح الناس فتضيع مصالح الناس.

لكن المعنى الإيجابي للمصطلح يعني الشمول الثقافي أي الإحاطة بكل أطراف المعرفة وهو ما ينطبق على الثقافة الإسلامية، ذلك أنها أولاً وكما أوضحنا في البندين السابقين «أو الخاصيتين السابقتين» ترتبط بالمصدر الرباني الشامل الواسع «القرآن الكريم»، بكل دلائل إعجازه لغوياً وبلاغياً

وفكرياً وثقافياً وعلمياً وتشريعياً، وهو دستور الحياة بكل ما تحمله الكلمة من معان وصدق فيه قول "الإمام أبي حامد الغزالي" أنه يحوي علوم الأولين والآخرين يقول: «أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها»[1].

ونظن أن الغزالي يقصد بعلوم الأولين والآخرين علوم الدنيا والدين وهذا ما يتجلى في شرحه بعد ذلك حيث يستعرض من خلال كتابه كيفية استنباط هذه العلوم من القرآن الكريم فيقسمها إلى علوم صرف وعلوم لباب، وعلوم الصرف هي ما يتصل بالقرآن ولغته والعلوم الشرعية والعربية المرتبطة به مثل الحديث والفقه وغيرها يقول: «فكذلك صدف جواهر القرآن وكسوته اللغة العربية فانشعبت منه خمس علوم وهي علم القشر والصدف والكسوة إذ انشعب من ألفاظه علم اللغة، ومن إعراب ألفاظه علم النحو ومن وجوه إعرابه علم القراءات ومن كيفية التصويت بحروفه علم مخارج الحروف، إذ أول أجزاء المعاني منها يلتئم النطق هو الصوت، ثم الصوت بالتقطيع يصير حرفاً ثم عند جمع الحروف يصير كلمة، ثم عند تعيين بعض الحروف المجتمعة يصير لغة عربية ثم بكيفية تقطيع الحروف يصير معرباً ثم يتعين بعض وجوه الإعراب يصير قراءة منسوبة إلى القراءات السبع، ثم إذا صار كلمة عربية صحيحة معربة صارت دالة على معنى من المعاني فتتقاضى للتفسير الظاهر وهو العلم الخامس»[2].

---

(١) أبو حامد الغزالي، «جواهر القرآن»، ط٥، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١، ص٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

ثم ينتقل إلى علوم الباب ويراها على طبقتين: طبقة سفلى ويضع تحتها معرفة قصص القرآن ثم محاجة الكفار ومجادلتهم ويقصد به علم الكلام وأخيراً علم الحدود الموضوعة للاختصاص وهي كما نفهم من شرحه لها علوم الفقه، أما الطبقة العليا من نمط اللباب فهي السوابق والأصول من العلوم المهتمة «وأشرفها العلم بالله واليوم الآخر لأنه علم المقصد دونه العلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك وهو معرفة تزكية النفس وقطع عقبات الصفات المهلكات وتحليتها بالصفات المنجيات»[1].

وبعد ذلك يتحدث عن العلوم الدنيوية يقول: «ولعلك تقول إن العلوم وراء هذه كثيرة كعلم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه وعلم السحر والطلسمات وغير ذلك فاعلم أنا إنما أشرنا إلى العلوم الدينية التي لابد من وجود أصلها في العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر إليه أما هذه العلوم التي أشرت إليها فهي علوم ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد»[2]، ويتحدث في شرحه لهذه المقولة عن الطب والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية المهمة في معرفة حركة الكون والأحياء فيه بالإضافة إلى أنها من وجهة نظره هي ناتج صفات الله المتمثلة في أفعاله في الكون.

(١) الغزالي، جواهر القرآن، ص٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٥.

وهكذا يبين شمول القرآن الكريم الذي هو المصدر الرباني لهذه الثقافة ولعلنا نتخيل ثقافة ومعرفة تنطلق من هذا البحر المحيط كم يكون شمولها واتساعها.

وثانياً: الواقع الذي يتمثل في التراث الإسلامي المتشعب الواسع فكل علم وكل فرع مما أشار إليه الغزالي تفرعت منه علوم ومعارف وثقافات وتم التأليف فيه وبعضها اندثر وبعضها خرج إلى النور حديثاً وهي سمة الزمن تتجدد معارف وتندثر معارف وإن كلها يظهر في بعضها ولعل المتصفح لكتاب «تراث الإسلام» للمستشرقين "شاخت وبوزورث" الذي يستعرض ما أنتجته الثقافة العربية الإسلامية، يدرك مدى شمول هذه الثقافة وتشعب مناحيها مع أننا ندرك أنه ليس نهاية المطاف وأنه لا يستطيع الإحاطة بكل ما أنتجته القريحة الإسلامية والعربية من معارف وعلوم.

فيخصص الفصل السادس للفن والعمارة الإسلامية والسابع للأدب والثامن للفلسفة وعلم الكلام والتصوف والتاسع للشريعة تحت عنوان القانون والدولة والعاشر للعلوم ويقصد بها العلوم الطبيعية والطب والرياضيات والفلك والبصريات والموسيقى»[1].

والحق أن الثقافة الإسلامية لم تترك مجالاً من مجالات الفكر النظري ولا السلوك العملي إلا وأسهمت فيه بنصيب وافر، وسواء كان هذا الفكر يرتبط بالأمور الدينية أو الدنيوية ولو وقفنا عند علم واحد من علومها نحاول حصر ما ألف فيه من كتب لم نستطع حصرها، واضرب مثالاً بسيطاً على

---

(١) راجع تراث الإسلام بأقسامه الثلاثة.

تناول هذه المؤلفات لما قد يبدو للرائي صغيراً وكيف خاض فهذا "أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي" مؤلف كتاب «تلبيس إبليس» المشهور في مجال الدين يؤلف «أخبار الأذكياء»، و«أخبار الحمقى والمغفلين»، و«أخبار الظراف والمتماجنين»، ولابد للناظر إلى هذه العناوين أن يلتفت ويستغرب خاصة إذا كان من أصحاب العقول المتحجرة التي لا تستطيع تجوز ما تحفظه وتلقنه، فكيف بواعظ كبير وفقيه مثل هذا أن يخوض في مثل هذه المسائل والأمور، ولكن الواعي المدقق يدرك أن هذه سمة الثقافة الإسلامية لا تقف عند حدود ضيقة؛ بل تسهم في كل مجال.

وقد كان العلماء والفقهاء البارزين على وعي بهذه السمة فلم يتورعوا عن الخوض فيها، وإذا كان هناك مجال يتحرج الناس من الخوض فيه فإنهم أولى بان يخوضوا إليه ويصبغوه بالصبغة الدينية الأساسية وأضرب مثالاً آخر لذلك "بابن حزم" وهو الفقيه السني الظاهر صاحب المذهب الظاهري الذي يعتمد على ظاهر النص فقد ألف «الفصل في الملل والنحل»، كما خاض في رسائله في موضوعات شتى بعد ذلك يخرج لنا كتابه «طوق الحمامة في الأُلْفة والآلاف»، الذي يعالج ظاهرة الوجدان والعاطفة ويستقصي كل أحوالها وطرائقها وظروفها، وفيه ما فيه من ذكر دقائق هذا الموضوع وأسراره ما يتحرج عنه الكثيرون من مدعي الورع والتقوى.

ولم يكن هذا الأمر بالنسبة لهؤلاء الفقهاء وعلماء الدين مجرد سقطات أو هنات أو كما قال بعض المحققين لكتب "ابن الجوزي" استراحة يميل إليها العالم ترويحاً عن نفسه بل كان وعياً منهم بحقيقة هذا الدين العظيم الشامل، فقد أحاط بكل أسرار الحياة، وفي آيات القرآن الكريم أعظم

دليل على هذا الشمول وهذه الإحاطة الكاملة ومن يقرأ سورة النساء يجد فيها الكثير عن مثل هذه الأمور، يجد آيات تتحدث عن أوصاف المنافقين وما فيها من حمق وسفاهة، ويجد فيها حديثاً عن علاقات النساء وحقوقهن وليست سورة النساء فقط بل كثير من سور القرآن الكريم تتناول كل أمور الحياة، ومن يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣٥].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في ختام مجموعة من الآيات تتناول حقوق المرأة على الرجل تبدأ من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾[البقرة: ٢٢١]، وفيها حديث عن المحيض وأذاه وحديث عن الحرث، هل يمكن أن يعالج القرآن الكريم هذه القضايا ويحجم العلماء عن الحديث فيها تورعاً، إن ذلك لو حدث يعد قصر نظر وتضييق للواسع الشامل، وتجميد للمتحرك المواكب لحركة الكون والحياة.

الإيجابية:

وثالثاً هذه الشمولية مقرونة بالإيجابية، وخير دليل على هذه الإيجابية ما ضربناه من أمثلة سابقة في ابن الجوزي، وابن حزم، وغيرهما من أمثال

الطبري والرازي والقدماء والمحدثين على حد سواء، فقد عرفوا أن الدين شامل لكل جوانب الحياة وجزئياتها وإلا فما قيمة قولنا: «إن القرآن صالح لكل زمان ومكان»، فإذا لم يعم الحياة في أزمنتها المختلفة وتطوراتها ومواقعها المتعددة في الكون فإنه سيصبح قولاً أجوف نتشدق به دون وعي».

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى في تحقيق الشمولية والإيجابية حين ألقى بظلاله الوارفة على كل دروب الحياة، وأدلى بدلوه في كل ما عني به أصحابه من حوله، معتقداتهم وعباداتهم ومعاملاتهم وآدابهم وسلوكهم وفي كل واحدة من هذه جزئيات صغيرة ودقيقة لم يتوان صلوات الله وسلامه عليه أن يقدم هديه النبوي الشريف فيه، والمطلع على كتب الصحاح وخاصة صحيحي البخاري ومسلم سيتأكد من صدق هذا القول، وهو أمر ليس بمستغرب فقد تلقى تعليمه ومبادئه من ربه ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[النجم: ٤، ٥]،

وقد أمر بتبليغ ما أنزل إليه وما تلقاه من ربه بعد أن تعلمه وعرفه ووعاه كما وصفته السيدة عائشة بأنه كان قرآناً يمشي على الأرض».

وقد اكتسب الرسول ﷺ صفة الإيجابية من القرآن الكريم نفسه حيث حدد الله مهمة القرآن بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، وحين قال: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾[الإسراء: ٨٢]، وغيرها من آيات القرآن الكريم التي

تدل على الإيجابية والفاعلية، وقد حدد أيضاً مهمة الأمة نفسها حين قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

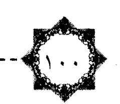
ولنقف عند هذه الأخيرة التي جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٣]، وفيها يعدد الله نعمه على هذه الأمة بعد أن أمرهم بالاعتصام بحبل الله جميعاً، ويا ليتهم يستوعبون هذا ولا يتفرقون لمجرد اختلافهم في رأي مع أنهم جميعاً يلتفون حول حبل الله المتين وهو دينه وقرآنه، ويذكرهم الله بنعمته عليهم بهذا الدين الذي ألف بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداء، ويبدو أن ميراث العصبية لم يخرج منهم ثم إذا تمسكوا بهذا الدين ونبذوا العداوة فإنهم ناجون من النار بعد أن كانوا على شفا حفرة منها، ويبين لهم أن مهمة آياته هو الهداية في قوله: «لعلكم تهتدون» فإذا ما اهتدوا كانوا صالحين لأن يبثوا الهداية في نفوس الآخرين وإن لم يكون فلن يفلحوا؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وبعد الرجاء في هدايتهم أمرهم أن يدعوا إلى الخير ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو أمر بالإيجابية والفاعلية وأن تتمثل هذه الإيجابية في الدعوة إلى الخير، فإذا فعلوا ذلك أفلحوا واستحقوا من الله القبول والرضا والفلاح، « وأولئك هم المفلحون».

وقد تمثل الرسول ﷺ وصحبه الطيبون الصالحون هذه المعاني وعملوا بها فاهتدوا وحرصوا على هداية الناس لدرجة أن الله عاتب رسوله ﷺ في قوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٣].

وهذا أمر خارج عن قدرة رسول الله ﷺ ومع هذا حرص عليه أشد الحرص وقد وصفه ربه حين قال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨]، ولما اشتد حرصه وتصوير أن هذا يمكن أن يجلب الهداية قال له سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص: ٥٦].

وقد اقتدى الصحابة رضوان الله عليهم برسولهم ﷺ فلم يدخروا جهداً ولا وقتاً في سبيل تنفيذ المهمة الموكلة إليهم بالدعوة، وانطلقوا سواء في عهده ﷺ وبأوامر تكليفية منه كما حدث مع "معاذ " "وأبي موسى الأشعري" حين أرسلهما إلى اليمن، وبعد مماته لم يتوانوا عن أداء دورهم بإيجابية وفاعلية فانتشروا في الأمصار الإسلامية دعاة وقضاة يشرحون الدين ويعلمونه للناس ويقضون بينهم في ضوء ما تعلموه من القرآن والسنة بإيجابية وفاعلية يحسدون عليها وتنقص الكثير منا الآن.

ولما اختلط هؤلاء المسلمون الأوائل بالأمم الأخرى لم يتورعوا أن يدرسوا ثقافاتهم ويتعلموا منهما ما يفيدهم في دعوتهم، ويثري ثقافتهم، وقد أثمر ذلك ثمرته في النتاج المعرفي والثقافي الإسلامي، وتمثل الفلسفة الإسلامية النموذج الأبرز في هذا المجال حيث حاولت التوفيق بين فلسفات العالم القديم والرؤية الدينية المستمدة من القرآن والسنة ونتج عن ذلك علوم كثيرة شرعية ودينية وأدبية وعلميه أثرت الحياة الثقافية والفكرية للأمة الإسلامية



وأبرزت مقدرتها على التفاعل والإيجابية متمثلة في التأثير في كثير من الأمم الأخرى التي جاورتها ، وبينما كانت "أوربا" تئن في ظلمات العصور الوسطي كانت حضارة العرب الزاهرة ترفرف على كل مكان في الشرق وفي الغرب ، وخرج العلماء من مكان فيها يدلون بدلوهم في بغداد وفي دمشق وفي مصر وفي بخارى وسمرقند وبلاد الفرس ، وفي بلاد الأندلس ، وفي كل مكان بسط الإسلام مظلته علية .

ويستعرض القسم الأول من كتاب تراث الإسلام للمستشرقين الألمانيين "شاخت وبوزورث " ، عملية التفاعل التي تمت بين تراث الإسلام وتراث الأمم المجاورة ، فالفصل الأول منهم يتحدث عن الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام ، وتتمتع الدراسات فيه ببعض الموضوعية بالرغم من أن فيها الكثير من التحامل ، ولكنه يحلل ظاهرة الإستشراق وظاهرة تأثر النظرة فيها أحياناً بالنزعات الإمبريالية إلا أنه في الفصل الثاني الذي خصص للحديث عن الإسلام في عالم البحر المتوسط يبرز الدور الإيجابي والفاعلية الكبيرة للثقافة الإسلامية في بلدان أوربا المطلة على البحر المتوسط ومنها انتقل الأثر الفعال للإسلام إلى حضارة أوربا ، يقول :" ومع ذلك فقد وصلت عناصر من الثقافة المادية الإسلامية والعلم والفن إلى إيطاليا وخصوصاً إلى جنوب إيطاليا من خلال طرق أخرى فبدلاً من وصولها عن طريق الغزوات المدمرة وصلت تلك العناصر من خلال التجارة ولنلاحظ أن تعايش هاتين الناحيتين ، خلافاً لفرضية" بيرين" ، أمر مؤكد ، وإن تكن الشواهد عليه

في هذه الفترة غير كافية ، ومن خلال الرحالة والعلماء ، وبعد قليل بواسطة الهجرة الثقافية الكبيرة من أسبانيا المسلمة "[١]

وبعد أن يستعرض بعد مظاهر هذا التأثر من خلال الأبنية الأثرية في جنوب إيطاليا وفي وسطها يقول : " وأخيراً أخذت أعمال المترجمين ومن بينهم تلك الشخصية الغامضة "قسطنطين الأفريقي" تكشف للثقافة اللاتينية في "إيطاليا" ثمار علم الطب والصيدلة العربيين حتى النصف الثاني من القرن الحادي عشر، أي قبل تدفق العلم الإسلامي على أوربا ممن خلال أسبانيا، وبعد أن فتح ذلك الطريق الأخير عبر العلم والفلسفة العربيان جبال البرانس إلى فرنسا وإيطاليا ، وكذلك عبرتها أيضاً (كما ثبت مؤخراً) أفكار شعبية إسلامية تتعلق بالتقوى والعالم الآخر، وربما كان لهذه العوامل تأثيرها حتى على الروائع الغربية الفكرية والفنية " [٢]، ويضرب بعد ذلك أمثلة لبعض الكلمات الإيطالية التي تأثرت بالعربية أو كانت عربية ونقلت بنفسها إلى الإيطالية بحروفها مثل ""دكان" وفي الإيطالية (doggan) وتعني (جمارك) و"مخزن" وفي الإيطالية (magazzlon) ومعونة (maona) في الإيطالية وهكذا .

ولمزيد من بيان الفاعلية والإيجابية للثقافة الإسلامية نستمر مع الرجل الموضوعي الذي يتسم بحثه بالشفافية يقول : " إن تنوع وكثرة هذة الكلمات المستعارة التي تتناول جزءاً كبيراً جداً من الحياة المادية والفكرية

(١) تراث الإسلام ، القسم الأول ص ١٢٤

(٢)المرجع السابق ص. ١٢٥.١٢٤

للبحر المتوسط ، لا يمكن بالتأكيد إرجاعه إلى نشاط العرب الذين كانوا يغيرون على منطقة الميز وجيورنو (MEZZOGIORNO) وينهبونها ، والذين لم يكونوا دائماً من أصل صقلي ، بحيث أن قسماً كبيراً من هذة الكلمات المستعارة لا يمكن أن يعتبر ذا أصل عربي -صقلي محدد بل إن التيار المزدوج للكلمات المستعارة الذي يشمل ألفاظاً علمية وألفاظاً متعلقة بالتجارة والحياة اليومية يناظر تماماً التيارين الأساسين للإتصالات الإيطالية مع عالم البحر المتوسط الإسلامي:الدراسة العلمية وعالم النشاطات العملية الذى يموج بالحياة، وكلاهما غني في نتائجه حتى ولو لم يكن يقارن سواء من حيث الاتساع أو النوعية بثمار اللقاء الذي تم في الأندلس " [1] .

ويستمر كاتب البحث في هذا الكتاب وهو (فرانشيسكو غابرييلي) على مدى اثنتين وثلاثين صفحة يستعرض أثر الثقافة الإسلامية والعربية على الحضارة الأوربية عبر الأندلس الذي يسميها أحياناً في بحثه بأسبانيا الإسلامية ، ويوضح تنوع هذا التأثير ما بين لغوى ثقافي (وقد عدد ما يقرب من ١٠٠ مائة كلمة أو يزيد أي تقريبياً من الكلمات الأسبانية ذات الأصل العربي والإسلامي) أو سلوكي يتمثل في مظاهر الحياة العامة والظواهر المتعلقة بالحياة المادية والروحية ، وبالعادات والدين يظهر فيها تراث الإسلام بصورة واضحة ؛ من الحمامات العامة التي كانت لا تزال منتشرة بصورة واسعة في أسبانيا المسيحية ثم منعت لأسباب أخلاقية ودينية ، إلى طقوس غسل الموتى ، ومن حجاب النساء إلى عادة الجلوس على الأرض

---

[1] المرجع السابق ص ١٢٦

على البسط والوسائد ، ومن عبارات المجاملات الفروسية وإكرام الضيف التي تعتبر من الأمور الإسبانية المميزة اليوم (وضع البيت تحت تصرف الضيف) ، وتقديم الطعام الذي يتناوله الشخص للأخريين ، وعادة تقبيل اليد إلى عادات الترحيب والتمنيات الطيبة التي تتضمن اسم الله "[١]

وهذا قليل من كثير أشاد به المستشرقين المنصفون والعلماء العرب على السواء الذين تحدثوا وبحثوا في هذا الموضوع وإن كنا قد أثرنا شهادة الأخر لأنه أوثق في التدليل على أثر هذه الثقافة بمعنى﴿ **وشهد شاهد من أهلها** ﴾ ، وهو يكفي لبيان صفة أو خاصية الإيجابية (وفي الوقت نفسه الشمول) التي تمتعت بها الثقافة الإسلامية ويكفي لأن تصدق ما نقول أن تقرأ الفقرة السابقة فقط من بحث هذا الباحث لتنظر مدى الفاعلية والإيجابية في التأثير في الحياة اليومية والعادات والتقاليد الأوربية ، وهو ما يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن الخاصية التالية وهى الواقعية وما أتسمت به من مثالية أخلاقية.

٤- الواقعية والمثالية :-

لعل قارئ الكتاب يتساءل : كيف يمكن الجمع بين الواقعية والمثالية وهما في المفهوم الحديث و الثقافة الناتجة من الاتصال بالثقافة الغربية ضدان متناقضان ؟ ومن يتساءل هذا التساؤل له بعض الحق أو بعض العذر فما أستقر في أذهان المثقفين أو الجمهور على السواء أن الواقعية نقيض للمثالية ، حيث تعني الأولى كل ما يرتبط بواقع الحياة اليومية على ظهر

---

[١] المرجع السابق ص ١٣٩

الأرض ، وتعني الثانية المفاهيم الميتافيزيقية التي ترتبط بعالم المثل الذي يرى كثير من المفكرين أنه يبعد تماماً عن كل ما يعايشه الإنسان في واقعة .

هذا هو المفهوم السائد في الثقافات ، ولذلك أطلق على الثقافة اليونانية القديمة (الكلاسيكية) مثالية لأنها اهتمت بالأفكار والقضايا العقلية أكثر من اهتمامها بالحياة اليومية ، وأطلق هذا المصطلح على فلسفة أفلاطون وأرسطوا و غيرهما من فلاسفة اليونان القديمة مع ملاحظة أن بعض الدراسات الحديثة اليوم خاصةً في الغرب بدأت تعيد النظر في هذة المقولات التي استقرت في الأذهان لأزمنة طويلة ؛ لأنها رأت أن هذه المثاليات أو الميتافيزيقيات قد أنطلقت من أرض الواقع للبحث عن حلول لمشكلات هذا الواقع .

ثم أطلق على الثقافة المادية والفلسفة المرتبطة بمعالجة مشكلات الواقع منذ أخذت أفكار " هيجل" " وأنجلز" " و ماركس " تنتشر ، أطلق عليها اسم الواقعية لأنها اهتمت بشده بكل المشكلات التي يعانيها الإنسان على أرض واقعة وبعدت عن التفكير في حلول عقلية أو فلسفية ميتافيزيقية ، بل بحثت في مشكلات المادة والاقتصاد عن جذور هذه المعضلات وطرق علاجها وهكذا .

وقد يكون من المنطقي أيضا أن يقول أحد القراء لماذا بدأت بالواقعية ولم تبدأ بالمثالية في صياغة العنوان ؟ ؛ لأنه من المنطقي أن تكون مثالية وواقعية وليس العكس ؟ ونقول إن هذا هو المفهوم القريب لدى العامة باعتبار أن الثقافة الإسلامية ربانية المصدر ، والله هو المثل الأعلى ، وليس كمثله شيء، وهو مفهوم قاصر ناتج من تراكم التقليد والحفظ دون الفهم

والوعي ، حيث يعدون الله غيباً فهو لا يُرىَ وإن كان يَرىَ ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [النعام/١٠٣].

وهذا الكلام وإن كان حقاً ظاهراً إلا أن فهمه خطأ من ناحية أخرى ، فالفهم الحقيقي له هو الإقرار بهذا تنزيهاً لله وتعظيماً وإجلال مع ضرورة الإيمان به وأول قناعات الإيمان به تنطلق من أنه موجود ، والوجود يعنى الواقع ، فهو واقع لا محالة عند من يؤمن به حقاً ، وإلا وقع فيما وقع فيه أصحاب موسى حين طلبوا من نبيهم أن يريهم ربهم وقالوا ﴿ **فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ** ﴾ [النساء / ١٥٣] ، بل إن إلحاحهم هذا أثر في نبيهم فسأل ربه نفس السؤال حين قال ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف / ١٤٣] .

ولو تأملنا هذه الآية لعرفنا كيف نؤمن بالله واقعاً ولأدركنا مدى تميز الأمة الإسلامية على غيرها فحين أخبرهم نبيهم بربهم أمنوا به ، وحين تلا عليهم آياته فصدقوها وازدادوا إيمانا بوجوده ولم يثنهم تعذيب الكفار لهم بل إن "بلالاً" كان كلما اشتدوا عليه في التعذيب قال قولته المأثورة "أحد أحد فرد صمد لا والد ولا ولد وما له كفوا أحد " ، فهؤلاء قوم موسى حيث لم يتعمق الإيمان في قلوبهم وظل منقوصاً لأنهم ماديون كانوا يريدون رؤية الله جهرةً فأرهم الله وجوده من خلال لمحة من لمحات فعلة وأثر ه في الوجود وكانت الصاعقة التي أخذتهم هى اللمحة الدالة على وجوده ذاتاً وصفات ،

وكذلك حدث لموسى علية السلام حين طلب من ربة الطلب نفسه فرد علية الله عز وجل بما يليق بجلاله وفي الوقت نفسه يثبت حقيقة وجوده وواقعيته ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ "إن رؤيتي ذاتا مستحيلة لأن هذا لا يليق بجلالي وعظمتي (لن تراني) وأمامك المثال الأكبر وهو الجبل الذي تظنه أنت ومن في مستواك البشري أضخم وأصعب وأصلب شيء في الموجودات أمامك وهو في الوقت نفسه دال على العلو والارتفاع فالجبال عالية مرتفعة شاهقة وصلبة وضخمة ، ولكنها من صنعي وأثر من آثار وجودي ، وإذا نظرت إليه وأستقر مكانة يصبح خارج دائرة قوتي (فسوف تراني) "، (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً).

وهنا يتضح وجود الله وقوته وجلاله في وقت واحد فالله موجود ويعرف من آثاره في الكون بكل ظواهره ومظاهر وجوده وواقعيته ، فالله هو الذي يسيره يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وهو الذي يحرك الرياح ، ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ويحرك الجبال والأرض وكل ذلك دال على وجوده وواقعيته .

من هنا يتضح للفاهم الواعي لماذا قلنا الواقعية قبل المثالية ، وقد استوعبت الثقافة الإسلامية هذا الأمر ، وفهمت أن هذا القرآن المنزل من لدن حكيم خبير نزل ليصلح هذا الواقع الذي اختلطت فيه المفاهيم بل امتزج الحق بالباطل وطغى فيه الباطل على الحق فجاء القرآن ليعدل ويصحح هذه المفاهيم لتصلح البشرية كلها .

وقد أستقر في أذهان النبي ﷺ وأصحابه هذا المفهوم ، وأمنوا إيماناً مطلقاً بقوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد/٤]

وهي ختام آيات توضح وجود الله واقعاً بعلمه وقدرته تقول الآيات كاملة في بداية سورة الحديد ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد/١:٤] .

إن من يقرأ هذه الآيات بقلب متفتح للإيمان يستقر في قناعته وجود الله وواقعيته ، فكل ما في الكون أمام هذا المؤمن هو ملك لله ولذلك فإنه لما سمع المسلمون الأوائل هذه الآيات أستقر في أعماق قلوبهم الإيمان بوجود الله وأنه بصير بما يعملون فلم يعبأوا بما أصابهم لأنهم سلموا أنفسهم لله وسلكوا في واقعهم على أساس هذا اليقين ويصلون وهم يعلمون أن الله معهم ، وكذلك يزكون ويصومون ويحجون ، ويتعاملون مع بعضهم وهم متيقنون أن الله معهم في كل صغيرة وكبيرة .

وكما ذكرنا في البداية أن هذه الثقافة ربانية المصدر ، والمصدر هو القرآن وهو كلام الله ، وكل القرآن الكريم يدعم مبدأ وجود الله والإيمان به واقعاً ، فإن هذه الثقافة جاءت واقعية ، فلم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأسهمت فيها بسهم ، وهو دليل على شموليتها وإيجابيتها ، أي أن الواقعية نتيجة حتمية للخصائص السابقة ، فالعبادات حتى وإن كانت في جانب منها تدعيم للمبدأ الإيماني والروحي إلا أنها جاءت على جانب آخر واقعية فهي تجميع للناس في بيت الله ورحاب الله فتصفوا نفوسهم ويتآلفون

ويتحابون ، ولكي يؤدوها لابد أن يتطهروا وهو أمر على جانب كبير من الأهمية في حياتهم خاصة إذا عرفنا أن الطهارة لها وجهان ظاهر متمثل في أركان الطهارة من وضوء وغسل وغيرها وطهارة باطنة؛ تطهير القلوب وتصفيتها مما فيها من أثار الأنانية البشرية ، والزكاة وإن كانت تقربنا إلى الله إنما هي وسيلة علاج لظواهر النقص في المجتمع وصورة من صور إصلاح الواقع بالتكافل الاجتماعى بل إننا نستطيع أن نقول إنها الفريضة الواقعية المعبرة بصدق عن قوة الإيمان وصدقه ، ولذلك جاءت مقترنة بالصلاة و تكرر الأمر ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ .

والصوم وإن كان الجانب الروحي والمثالي فيه أكبر لكنه في ناتجه واقعي ، فليس هناك معنى للصوم بدون أثره الاجتماعي والواقعي ولعل حديث رسول الله ﷺ الذي يقول : "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه "[١] وهو يوضح إلى أي مدى كانت واقعية العبادات ، فليست مفروضة من الله لإظهار عبودية البشر له فقط بل لكي يكون لها مردودها الطيب على حياتهم العملية والواقعية ، فليس هناك معنى لأن تؤدى العبادة بدون أن تؤثر فيك على مستوى إصلاح نفسك أو صلاح إخوانك ممن ينتمون إلى ملتك أو حتى إلى الملل الأخرى .

وكذلك الحج وإن كان الله قد فرضه في العمر مرة ليتذكر الناس مشهد الحشر يوم القيامة فإنه مظهر من مظاهر واقعية العبادات فهو تجميع للناس من كل صوب وحدب والآيات القرآنية في شأن الحج توضح مدى

---

(١) البخاري / باب الصوم ، ومسلم

واقعيته وفاعليته يقول تعالى ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾[الحج / ٢٧ -٢٨] وقد استلهم الرسول ﷺ وأصحابه الطيبين رضوان الله عليهم هذه المعاني وتعاملوا بها في واقعهم فتألفوا وتحابوا وأثمرت فيهم ثمرتها الطيبة فاتحدوا وتحابوا وانطلقوا فاتحين ، ونشروا هذه المبادئ بين أهل البلاد التي فتحوها ثم انطلقوا مؤلفين في كل ما يخص الناس ويفيدهم في واقعهم في فكرهم وسلوكهم ، ألفوا في العقائد وألفوا في آداب الطعام والشراب فظهرت كتبهم التي تتناول عقيدة التوحيد التي هي أساس كل واقع يحياه الإنسان ويستضيء بنورها في كل سلوكياته ، وألفوا في العبادات وارتباطها بالعقيدة وأثرها في الإنسان ، وألفوا في ظواهر الكون الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى ، وألفوا في المأكل والملبس والمشرب ،ومن يريد أن يتيقن من ذلك ينظر إلى مؤلفات "ابن قتيبة" على المثال لا الحصر لينظر المجالات التي خاض فيها وسيعرف مدى شمولية وواقعية هذا الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية فله مثلاً كتاب "أدب الدنيا والدين" ، وله تأويل مشكل الحديث وله أيضاً كتاب الأشربة وغير ذلك من مجالات الفكر الأدبي مثل الشعر والشعراء ، وإذا عدنا إلى الأمثلة التي ضربناها قبل ذلك وغيرها مما لم نذكره لتيقنا من واقعية هذة الثقافة مما كان له أكبر الأثر في إقبال الأمم الأخرى عليها وفهمها واستيعابها بل والدخول فيها وأكثر من ذلك الإسهام بنصيب في إنتاجها .

واللافت للنظر أن هذة الواقعية لم تكن في لحظة من اللحظات ضيقة بمعنى أنها قاصرة على معالجة المشكلات البشرية في حيزها الضيق أي بفكر بشرى محدود ، وهو مما يؤدى غالباً إلى الصراع ؛ صراع الأفراد أو صراع الطبقات كما نفهم من الواقعية الحديثة التي قامت على هذا الأساس، حتى وإن كان ذلك قد وصم بعض الفكر الإسلامي في بعض مراحله حيث احتدت الفرق الإسلامية و أصحاب المذاهب وتعنت كل فريق لرأيه إلا أنه في النهاية كان مرتبطاً بالرؤية الدينية وقد تمثل ذلك في محاولة اتهام كل فريق للآخر بالمروق من الدين والبدع والضلال ، وإن حدث صراع واقعي واقتتال كان بفعل **تبنى بعض السلطات السياسية** الحاكمة لآراء فرقة معينة ومحاولة فرض **آراءها على** الناس **بالقوة** كما حدث في عهد "المأمون بن هارون الرشيد" **الخليفة العباسي الذي تبنى** أراء المعتزلة في مسألة خلق القرآن وفرضها على الناس بالقوة ، مما شوه كثيراً من الإنجازات الفكرية والعلمية والثقافية التي حققها للحضارة العربية في عصره .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن واقعية الثقافة الإسلامية إتسمت بالمثالية من جانبين : الأول أنها أنبثقت من المصدر الرباني وهو القرآن الكريم الذي هو النموذج الأعلى في الفكر والثقافة بصفة عامة ولا يدانيه في هذه المسألة أي كاتب سماوي أو بشري ، ومن جانب أخر أنها تهدف إلى خلق المثال أو النموذج البشرى في أرفع صوره و أكملها ، وهو الإنسان المؤمن بربه والذي يطبق إيمانه هذا في سلوكه في الحياة يقول "سيد قطب" عن التصور الإسلامي المنتج لهذه الثقافة "إنه يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المستيقن والأثر الواقعي الإيجابي ، يتعامل مع الحقيقة الإلهية في

أثارها الإيجابية وفاعليتها الواقعية ، ويتعامل مع الحقيقة الكونية ، متمثلة في مشاهدها المحسوسة ، المؤثرة .. أو المتأثرة ... ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية متمثلة في الأناس كما هم في عالم الواقع .."[1]

واتكاء الثقافة الإسلامية في جانبها الواقعي على المصدر الرباني أو على خاصية الربانية أعطاها صفة المثالية كما قلنا قبل ﴿ **ولله المثل الأعلى**﴾ وليس مثالية يونانية حتى نطرد هذا المفهوم من ذهن القارئ ؛ لأن مثالية اليونان وإن كانت في مجال البحث عن حلول ميتافيزيقية لمشكلات الواقع إنما كانت محاولات للبحث في عالم الغيب عن مثال ترتد إليه الظواهر وتعددت الآلهه وتعددت المثل أما ثقافتنا الإسلامية فلم تعان من هذا الأمر ،لأن المثال الأعلى الذي كانت تبحث عنه الفلسفة اليونانية صار معلوماً منذ أن أنزل الله أول آيات القرآن الكريم على نبيه ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق ١/ -٥] إذن فالمثال معلوم من البداية وهو يتمتع بكل صفات الجلال والكمال تعالت ذاته وتقدست أسماؤه وصفاته ، وهو مصدر العلم والمعرفة ، وهو النموذج للإنسان في كل سلوكياته و في فكره فهو الرحمن الرحيم ،وهو الجبار المتكبر ، وهو الذي أَخْذُهُ أليم شديد ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الذي تسع رحمته عباده حتى وإن تولوا عنه وأداروا ظهورهم لكتابه ونبيه ودينه .

---

(١) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ١٧٠،١٦٩

إذن المثال موجود وهو واقع والمسلمون يؤمنون بذلك ويراعونه في كل تصرفاتهم وانطبع ذلك على فكرهم ومن يريد التأكد من ذلك فليعد إلى نتاج الفقه الإسلامي الذي خاض في كل جانب وكل جزئية صغيرة وكبيرة، ومعالجتها من خلال إطار مصطلحاته الحلال والحرام والواجب والمندوب والمكروه ، وهو مثال دال على الواقعية والمثالية ،فمسائله تتعلق بما يهم الناس في واقعهم ، ولنا أن نتأمل المقولة المشهورة في هذا العلم وهي أن الشريعة جاءت لتحافظ على الكليات الخمس وهي ؛ الدين والنفس والنسل والمال والعقل يقول" أبو إسحاق الشاطبي" في كتابه (الموافقات في أصول الشريعة) : "فقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس : وهي : الدين و النفس والنسل و المال و العقل وعلمها عند الأمة كالضروري ، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين ولا شهد لنا أصل معين يمتاز برجوعها إلية بل علمت ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد " [١]

أليس ذلك دليلاً دامغاً على واقعية الشريعة الإسلامية ومن ثم الثقافة الإسلامية الناتجة منها ؟ وفي الوقت نفسه فإنه دليل على مثاليتها إذ إن المتأمل في الأحكام : الواجب والمندوب والمستحب والمستحسن والحلال والحرام والمكروه وغيرها من المصطلحات الفقهية التي أنتجتها القريحة الإسلامية ليجد أنها ناتج قياس هذا الفعل أو ذاك بمدى قربه من المثال الذي

---

(١) أبو إسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ط المكتبة التوفيقية بمصر ٢٠٠٣ ج١ ص ٢٨

وضع له ،فالحلال مثلاً هو ما أباحه الله لطيبه ويقترب منه مثالياً بالتدريج الواجب والمندوب والمستحب وغير ذلك من درجات القرب من المثال ، وفي المقابل ، فإن الحرام هو ما نص عليه في القرآن الكريم وبينه رسول الله ﷺ في سنته القولية والفعلية ، وبالنظر إلية نجد أنه مرفوض لتعارضه مع المثال الأعلى وفي الوقت نفسه لتأثيره الضار في الواقع ومن ثم تتضح بصورة قطعية واقعية ومثالية هذا الفكر العظيم ، وعلى ربانية مصدره وعلى شموله وإيجابيته ، فهو يحاول أن يدلى بدلوه في تصحيح مسار سلوك الناس وفي فكرهم في ضوء فهمه وإستيعابه للنموذج الأعلى وهو القرآن الكريم الذي هو مصدر كل معرفة وثقافة تثقف بها المسلمون لشموله على كل ما يقربهم من ربهم سواء بأمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر .

إن هذا القرآن أنزل من عند رب العالمين الذي يعلم من خلق ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [سورة الملك /١٤] ، وهو يوضح لهم كل ما يهمهم حتى مأكلهم ومشربهم وزينتهم في واقعية ومثالية يعجز البشر عن جمعها وإدراكها في توازن عجيب ، ولم لا ، وهو من عند الخالق الذي يعرف ما يحتاجه خلقه ، ففتح لهم باب التمتع بالحياة دون المساس بحق الله أو مخالفة المثال الذي وضعه لهم ، ولنقرأ قوله تعالى ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف / ٣٢ -٣٣] .

وفي تعليقه على هاتين الآيتين يقول "سيد قطب" : "وكلما مضينا هكذا مع النصوص القرآنية التي تقرر تكاليف الحياة الإسلامية وتضع حدود المنهج الإسلامي للحياة لاحظنا الواقعية في هذا المنهج وانطباقها على واقعية الفطرة الإنسانية وحدود طاقاتها الموهوبة لها وحدود الاستعدادات المهيئة للعمل والنشاط ، بحيث لا تكبت طاقة واحدة ولا تكف عن العمل وبحيث لا تكلف كذلك أكبر من وسعها ، ولا تكلف ما ليس من طبعها وفطرتها"[1] .

ونضيف إليه في هذا المجال أن هذه الآيات وقد بدأت بالأمر الإلهي ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأعراف / ٣١]

والمتصفح لكتب التفسير وأسباب النزول يعرف أنه كان هناك جدل حول ما يأكلون و يشربون ويتمتعون بعدما علموا أن الأمم الأخرى كانت قد حرمت على نفسها أشياء كثيرة مخالفة بذلك فطرة الله التى فطر الناس عليها وذلك ما حدث في الشريعتين السابقتين اليهودية والنصرانية ، وجاء القرآن ليصحح المسار فيرفض تعنت اليهود ويوضح أن الله ما حرم عليهم ما حرموه على أنفسهم ، ولكن كان بظلمهم ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً** ﴾ [النساء / ١٦٠] .

ثم يعود في سورة الأنعام ليوضح هذه المحرمات ويؤكد أن هذا التحريم لما أحل الله كان بظلمهم لأنفسهم وليس لأنه محرم في ذاته ، والمثال لا يرفضه بدليل قوله تعالى ﴿ **طيبات أحلت لهم** ﴾ وفي مسألة النصارى يقول

---

(١) سيد قطب خصائص التصور الإسلامي ص ١٨٦

تعالى ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [الحديد / ٢٧] .

إذا هم تجاوزوا لما فهموا المثال خطأ وظنوا في أنفسهم أن تحريم هذه الأشياء يقربهم من الله وما استوعبوا أن فطرتهم الإنسانية ستجبرهم على مخالفة ما قطعوه على أنفسهم ، وبالتالي وقعوا في المحظور ولم يراعوا ما افترضوه على أنفسهم (فما راعوها حق رعايتها) وهذا تجاوز للواقعية .

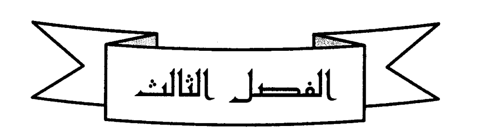
ولذلك نزل القرآن يحذر المسلمون له والمؤمنون به أن يقعوا فيما وقع فيه سابقوهم ويبين لهم ما احل وحرم حتى يلتزموا به ولا يتجاوزوه فيقول ﴿ **قل ما حرم زينة الله التي أخرج لعبادة والطيبات من الرزق** ﴾ كما حذر في أكثر من موضع من تجاوزها أمر به ونهى عنه يقول تعالى ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ**﴾ [يونس /٥٩ -٦٠] .

وفي هذا الجو البديع من الواقعية والمثالية في آن واحد نشأت الثقافة الإسلامية وخاضت غمار فكرها المتألق المتسع الشامل الإيجابي والواقعي المثالي ، فأنتجت فكراً يعالج كل ما يعنى الإنسان ، ما يدعم عقله ويجعله نشيطاً ، وهو آلة التفكير الواعي والذي حرص القرآن الكريم على أن يجعله ميزاناً للفلاح والنجاح والإيمان الصحيح حين عقّب كل آية تدعوا إلى

تدبر ما في الكون بوصف المستوعب لها بالعقل واللب، ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ ولأولى الألباب ولقوم يتفكرون إلى غير ذلك من الفواصل القرآنية التي تمتدح التفكر والتدبر والتعقل ، مما جعلها (أي الثقافة الإسلامية) تخوض في غمار العلوم النظرية اللغوية والأدبية والفلسفية والاجتماعية والعلمية كما أوضحنا سابقاً ، وكما يؤكده الواقع المتمثل في تراث هذة الثقافة والتي تزخر به مكتبات العالم مشرقه ومغربه على السواء .

كما أنتجت فكرا يعالج مشاكل الحياة اليومية بدءاً من أعلاها ممثلة في السلطة السياسية ؛ الحكم والإمامة إلى جانب علاقاتهم الاجتماعية ، ومسائلهم الاقتصادية ، بكل تفريعاتها التي تمس جوانب حياتهم ، وكل ذلك في ضوء تعاليم دينهم الذي يضع لهم المثال الأعلى الذي يقيسون عليه كل أفعالهم وحركاتهم وسكناتهم .

وهكذا تكتمل منظومة الخصائص التي تميزت بها الثقافة الإسلامية من أول خاصية وهى ربانية مصدرها وثباتها وشمولها وإيجابيتها إلى أخرها وهى الواقعية والمثالية ، وهى الخصائص التي تتفرد بها هذة الثقافة نتيجة لأول خاصية فيها وهى الربانية وتتميز بها على سائر الثقافات سواء التي نتجت عن شرائع سماوية سابقة أو عن تفكير بشري قاصر مهما بلغ مدى نضجه .



الكلام عن العقيدة

ويشمل

تعريف العقيدة - أركان العقيدة

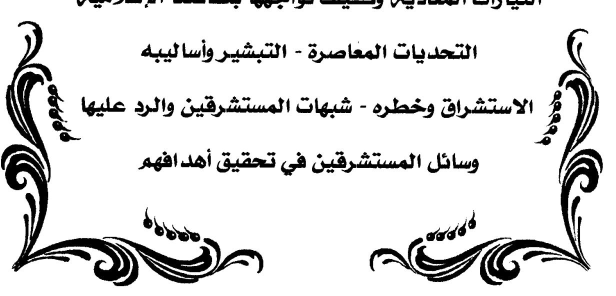
خصائصها ومزاياها -أثرها في حياة الفرد والمجتمع

التيارات المعادية وكيف نواجهها بثقافتنا الإسلامية

التحديات المعاصرة - التبشير وأساليبه

الاستشراق وخطره - شبهات المستشرقين والرد عليها

وسائل المستشرقين في تحقيق أهدافهم





العقيـــدة

تعريفها:

تمثل العقيدة الجانب النظري في الدين الإسلامي ذلك لأنها تعتمد على أساسين نظريين: النقل، وتمثله الأخبار التي وردت في الكتاب والسنة وتخبرنا عن الله سبحانه وتعالى، ثم العقل الذي يفكر في هذا النقل ويفهمه ويؤمن به، ويدعم إيمانه بالمشاهدة والتأمل في مخلوقات الله تعالى التي يشاهدها ويحاول أن يتأكد من خلالها من قدرة الله سبحانه وتعالى وبالتالي وجوده فالإيمان به ،وقد قلنا إنه نظري لأن الوصول إليه أمر نظري أيضاً مهما تعددت الوسائل في إثبات هذا المنطق.

وقد تكثفت كل هذه الرؤية في جملة واحدة عرفت على كافة المستويات بكلمة التوحيد ألا وهي: "لا إله إلا الله": ولا تكتمل صورة الإيمان بها إلا بشقها الثاني "محمد رسول الله"، وهي ضرورية بل وأساسية في الإيمان بالأولى لأنها السبيل إليها فلو لم نصدق ونؤمن بأن محمدًا رسول الله ما صدقنا بأنه لا إله إلا الله، فمحمد ﷺ هو الذي أخبرنا عن الله وعن طريقه عرفنا ما يجب علينا تجاه «لا إله إلا الله»، ولندع هذا جانباً لأنه أمر مكرر ومعلوم لدرجة أني اعتبر الحديث فيه نوعاً من التكرار الممل والمنفر، فالبديهيات لا تحتاج إلى تكرار الكلام.

أركانها: فاعلم أنه لا إله إلا الله:

إذن الأساس هو «لا إله إلا الله»، وهي التي نتج عنها الحديث في أركان العقيدة، وهي في الوقت نفسه أحد الأركان الخمسة التي تمثل العبادات الإسلامية ولأهميتها أطلق العلماء عليها كلمة التوحيد، لأنها تدل أولاً على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وتدل ثانياً على تجميع كل الآلهة وتوحيدها في الله سبحانه وتعالى الذي لاشريك له، وتدل ثالثاًعلى تجميع كل الأركان عقائد - عبادات - معاملات لتصب فيها، فتصبح شيئاً واحداً ومن هنا تواردت الفكرة الأساسية لهذا البحث.

ولأهميتها فقد استغرق القرآن الكريم وقتاً طويلاً لتأسيس مفهومها، بالرغم من أن البعض يرى بل ويتحدث فيها وكأنها مسألة سهلة، إلا أنها الكل الذي تنطلق منه الأفعال، وتعود لتنصب فيه وتؤكده كل الأفعال.

والقصص التي يركز الناسُ على الحديث فيها باعتبارها نوعاً من العظة والعبرة أو(باعتبارها مواساة للنبي ﷺ لأصحابه في أزماتهم التي واجهوها في مستهل الدعوة أو تبشيرا بأن النصر حليفهم إنما جاءت في الحقيقة لتثبيت هذا المفهوم «لا إله إلا الله»، قبل الأهداف الأخرى، ولو نظرنا إلى مضامين القصص التي وردت في القرآن الكريم لتأكدنا مما نقول، ومن أنه كان الهدف الأسمى لها قبل الأهداف الثانوية الأخرى ولا نقصد بالثانوية أنها غير مهمة بل نقصد أنها فرعية بالقياس إلى الهدف الأساسي.

إن قصة آدم تؤكد هذا المعنى «لا إله إلا الله»، له الأمر وله العلم وله الطاعة، وهذا حقه ما دام هو الله الواحد الذي لا يشركه أحد في أمره، فقد أمر سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن**

فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩]، أي أن الأمر عنده قول، والاثنان يعنيان «الخلق» فالخلق أمر والأمر «كن» وكلها تتوازي مع بعضها في القرآن الكريم، ولما تصورت الملائكة أنها تعلم بحكم معرفتها بالتجربة السابقة كما يقول كثير من المفسرين، تجربة الجن قبل البشر، وأخبرته بأن هؤلاء أفسدوا في الأرض، فرد عليهم بالعلم قائلاً: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]، أي أعلم ما تعلمونه عن الماضي وفوق ذلك أعلم ما لا تعلمون من المستقبل وهنا تأتي صفة العلم فله العلم الماضي والحاضر والمستقبل.

ثم إنه له الطاعة، فلما عصى إبليس أمره أخرجه من جنته ورحمته واعتبر عصيان أمره فسوقاً: ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[الكهف: ٥٠].

وتتوالي قصص القرآن مثبتة الوحدانية والألوهية له وحده دون غيره، فقصة نوح تؤكد على هذه المعاني، وخاصة العلم، إذ أمر الله نوحاً ببناء السفينة وتصور الناس أن نوحاً قد أصابه الجنون وسخروا منه وهم لا يعلمون حكمة هذا الصنع، ولما حاول نوح أن ينقذ ابنه أخبرهبعلمه الذي لا يعلمه أحد سواء في حقيقة الأشياء أوفي معناها ،أخبره بأنه ليس من أهله، وسواء كان معنى هذا أنه ليس ابنه كما يقول بعض المفسرين، أو أنه حكم على ابن نوح لمعصيته أوامر الله، ومن يعص لا يكون من أهل التقوى وهذا هو

حال "نوح " عليه السلام ،ومن آمن معه كما يقول البعض الآخر إلا أنه يدل دلالة قاطعة على أن العلم لله وحده.

تتجسد قضية الألوهية بصفة أكبر في قصة "إبراهيم" عليه السلام، لتتجمع لها كل خصائص الذات والصفات، فهي تنفي جميع الآلهة سواء الطبيعية كما يتصور البعض أن الطبيعة هي الإله الأعظم لهذا الكون، فأبرز له كل الظواهر الطبيعية ونفى ألوهيتها، ومن ثم عرفه بنفسه، وعرف الآخرين من خلاله، أو كانت بشرية كما في قصته مع" النمروز"، أو في الأصنام كما فعل إبراهيم معها ولم تدافع عن نفسها ليحطم لهم جميعها وليخبرهم بأنه الإله الواحد.

وكما في قصة موسى مع فرعون وقومه أو مع بني إسرائيل فقد نفى وجود إله غير الله سبحانه وتعالى، ومع عيسى أيضا، كل ذلك لتأكيد معنى الوحدانية والألوهية بذاتها وصفاتها، ولذلك كان قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في القرآن: ﴿ **وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[هود: ١٢٠]، وتثبيت الفؤاد هنا يعني الأمرين معاً، يعني تثبيت المعتقد في قلبه أولاً ويتبع ذلك طمأنة القلب أمام الصعوبات ثانياً، ومن ثم لا نستطيع أن نقول إن القصص القرآني لا علاقة له بالعقيدة، فهو أساس مهم من أسس العقيدة، فالعبارة التي أشار الله إليها في سورة يوسف وكانت خلاصة قصته هو المفهوم: ﴿ **وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**﴾، أي لا إله غيره ولا راد لقضائه وأمره، ولذلك كانت خاتمة السورة دالة على غيره هذا المعنى: ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ**

الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ❁لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١٠. ١١١].

إن كل تفاصيل القصة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه «لا إله إلا الله»، فلا إله غيره، ولا غالب إلا هو، ولا علم إلا له ومن ثم جاء اعتراف الأخوة بخطئهم، وأكدوا أنه لم يكن خطأ في حق يوسف وحده وإنما كان خطأ في حق الله سبحانه وتعالى، ولذلك قالوا ليوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، وقالوا لأبيهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ❁قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف: ٩١، ٩٧].

إن القصص القرآني يهدف في حقيقته الى هذا المضمون قبل أي شيء، أنه متصل بالعقيدة الدينية التي خلاصتها (لا إله إلا الله)ومن ثم كان الإلحاح المستمر في عقيدتنا الإسلامية على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ،لأنه في النهاية مؤد إلى هذا التوحيد الذي يعد أساس كل شيء ،ومن هنا كانت الصورة العامة للقرآن المكي ،وهي الفترة التي انصب الاهتمام فيها على تثبيت العقيدة قبل أن يشرع في فرض العبادات والأركان الأخرى،وهذه دلالة على أن هذا الأساس أهم من الأسس الأخرى لأنها مكملة له ومؤدية إليه في النهاية .

وإذا كان الإيمان بالواحد أساساً لكل المتفرعات منه، فإن الإيمان بخصائصه «ذاتاً وصفات»، ضرورة أساسية، وأولها الإيمان بوجوده، وهي مسألة لا تحتاج منا إلى بحث وإيراد أقوال السابقين، ويكفي أنه يعترف به من يؤمن به ومن لا يؤمن به، وإن مشركي مكة أنفسهم كانوا يؤمنون بوجوده: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[لقمان: ٢٥]، كما توصل إلى ذلك العلماء في العصر الحديث عن طريق العقل العلمي الخالص[١].

والإيمان بصفاته يتبع الإيمان بذاته وهي مسألة بديهية أيضا، وبالرغم من أن هذه القضية قد شغلت الفكر العربي والإسلامي في فترة المد العقلي والفلسفي أو الكلامي، إلا أنهم في النهاية لم يستطيعوا إنكارها، إن مجرد مناقشة المعتزلة لحقيقة الصفات كما قال بذلك أهل السنة أو في مجازيتها ومدلولها الرمزي إنما هو دليل قاطع على إيمانهم بهذه الصفات، وكانت نتيجة المغالاة في صراع الأفكار أن تمزقت الأمة الإسلامية بين هذا الرأي وذاك[٢].

إن الإيمان بالله كل لا يتجزأ ذاتا وصفات فما دام المؤمن قد آمن بالله فعليه أن يؤمن بصفاته، فقد آمنوا بالله نقلاً وتصديقاً لما جاء في هذا النقل، فنحن لم نر الله، ولكن القرآن الكريم أخبرنا عنه وصدقناه، فلم الخلاف إذن؟ إن هذه الصفات مثبتة في الكتاب، وقد صدقنا الكتاب فما علينا إلا

---

(١) انظر: وليم جيمس «العقل والدين»، ترجمة د. محمود حسب الله، ج١، الحلبي ١٩٤٩، ص٨١ وما بعدها حتى ص ١١٠.

(٢) انظر: محمد عبده «رسالة التوحيد»، تحقيق ودراسة محمد عمارة، كتاب الهلال، عدد يوليه، ١٩٨٠، ص٤٩ -٥١.

تصديق ما جاء به، ويبدو أن محاولة التنزيه التي قال بها المعتزلة وبالغوا فيها قد جرت إلى هذه الأقوال، وهذا يؤكد المثل القائل؛ إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده؛ فقد أرادوا التنزيه، وجرهم هذا إلى الإنكار مما جلب عليهم كثيرًا من المتاعب وكثيراً من الصفات التي كانوا في غنى عنها.

والقرآن في قصصه وفي كل مواضعه أكدهذه الصفات ،كما تحدثنا أنفاً عن القصص ومدلوله ،إنه طرح لهذه الصفات بطريقة غير مباشرة،ولكنها موصلة إلى هذه المعاني ،فكما أكد صفات القدرة والعلم والجبروت في معظم هذه الصفات أكد في قصة موسى على السمع والبصر والكلام فقد قال لموسى: ﴿ **لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾[طه: ٤٦]، وأكد صفة الكلام في أكثر من موضع في هذه القصة التي جمعت كثيرًا من صفات الله تعالى، الوجود والوحدانية والقدرة، والسمع والبصر والكلام، والقهر والتكبر ، إنه دليل آخر على مضمون القصص القرآني الذي يتعمق أكثر من مجرد العبرة والعظة والمواساة.

الملائكة :

ويتبع الإيمان بالذات والصفات، الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والبعث والحساب، والقضاء والقدر، فالإيمان بالملائكة ضرورة أساسية فهم خلق الله الذين وكلهم بكافة أوامره وخص كل واحد منهم بمهمة، وبالرغم من أننا لم نر الملائكة ولكن عرفناهم من خلال الإخبار عنهم في القرآن الكريم، إلا أن الإيمان بهم ضرورة لتأكيد العقيدة من ثلاث نواح:

الناحية الأولى: أن الله الذي آمنا به وصدقناه أخبرنا عنهم وبالتالي يكون وجودهم حقيقة.

الناحية الثانية: إن الإيمان بهم يعد اختباراً حقيقياً لصدق الإيمان بالله، فلا يستطيع واحد أن يدعي أنه يؤمن بالله ولا يؤمن بملائكته ويصبح مؤمناً حقاً، إنه دليل تصديق.

والناحية الثالثة: إن التاريخ يؤكد صدق وجودهم ولو من خلال ملاك واحد هو جبريل، الذي كلف بتبليغ رسالات الله لأنبيائه، والتاريخ يشهد بوجود هؤلاء الأنبياء وبرسالاتهم .

ومن ثم يصبح قرينة على وجود جبريل، ويتبع هذا أن يكون قرينة على وجود الملائكة جميعاً، فوجود واحد يساوي وجود الكل، والإيمان بواحد يتبعه إيمان بالكل.

بالإضافة إلى هذا الطريق العقلي في إثبات وجود الملائكة بل وقبل هذا هناك الطريق النقلي من مصدريه الأساسيين القرآن والسنة فقد أثبت القرآن في مواضع كثيرة منه وجود الملائكة، بل جعل المبدأ الأساس للإيمان الذي تدور حوله العقيدة والذي يلتزم به الرسول ﷺ والمؤمنون والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله، وصاغه في صيغة الماضي ليجعل منه أمراً حتمياً لا مفر منه كما هي طبيعة الأسلوب القرآني في حسم المواقف حينما يعبر عنها بصيغة الماضي ، يقول تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥]،

فبالإضافة إلى أنها تقرير واقع لأن الآية نزلت في أواخر أيام الدعوة المحمدية، إلا أنها أيضا إشارة إلى مقياس يقاس عليه الإيمان في كل عصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الكتب:

وهي الرسالات السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه منذ آدم حتى محمد ﷺ، وكلها تنهل من منهل واحد هو العلم الإلهي فمصدرها الله الذي أنزلها على الأنبياء لتكون دساتير للناس يهتدون بها في حياتهم حتى لا يضلوا وهي بمثابة وسائل الاتصال بين الله والبشر، فإذا كان اتصال الله بآدم أبي البشر مباشراً، وأعطاه من التعليمات ما يفيده في حياته على الأرض ليعمرها ويخلفه فيها فإن الاتصال بالبشر ثم بعد ذلك عن طريق الرسالات يصطفي الله عبداً من عباده، ويرسل إليه رسالة عن طريق جبريل الملاك الموكل بالرسالات ليبلغه بتعاليم الله وتوجيهاته لهم، حتى يستطيعوا تقويم أنفسهم فيما مضى من أخطاء وحتى يسيروا فيما هو آت على هذه التعاليم والتوجيهات.

وهذا الرسالات والكتب كانت دليلاً على تأكيد وحدانية الله وصفاته، فهو موجود وهو واحد، وهو عليم بأحوال البشر، ولو نظرنا إلى الفترات المتباعدة التي نزلت فيها الرسالات، والظروف الاجتماعية التي كانوا يعيشون فيها لتأكدنا من ضرورة هذا الاتصال وضرورة هذه الرسالات، فلما تاه الطريق من الناس أنقذهم الله برسالة منه يلاحقهم فيها، وبالتالي تصبح دليلاً على علم الله بخلقه، وفي الوقت نفسه دليلاً على حب الله لبني آدم، وتصديقاً لإكرامه لهم وأمره للملائكة بالسجود له، وإخبار الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ بأنه خاتم إنما يعني توقف

الاتصال عن طريق الرسالات وهذا يعني أيضاً أن الاتصال القادم سيكون مباشراً وهو ما يوحي بالقيامة، ولذلك قال رسول الله ﷺ : «**بعثت أنا والساعة كهذين**»، وهي إشارة إلى تلازم الساعة مع ختمه للنبوة والرسالات، ويؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه من التبشير بقرب قدوم الساعة، وتوقف الاتصال عن طريق الوحي، ولذلك جاءت الرسالة مستوعبة لكل المبادئ والمعاني السامية التي تضمنته الرسالات السابقة عليها، وفي هذا دليل آخر على صدق الإخبار بأنها خاتمة، والختام لابد أن يكون جامعاً وفي الوقت نفسه نذير للناس بقرب اللقاء مع الله، ولن يكون للقاء تعليمات، بل سيكون حساباً للناس عما وصل إليهم من تعاليم، وماذا فعلوا بها وأفادوا منها، وبالتالي ستكون النتيجة حياة أبدية إما في الجنة وإما في النار وسينادي مناد من قبل الله يوم القيامة: «يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

ومن ثم فالإيمان بالرسالات والكتب دعامة هامة من دعائم الإيمان بالله وهو العقيدة الإسلامية الخالصة لأنه يعني أشياء متعددة، فهو يعني

أولاً: التصديق بالقرآن إذ إننا لم نعرف شيئًا عن هذه الرسالات إلا من خلال القرآن الكريم، صحيح أن بعضها عاش بيننا ولكنه عاش في صورته البشرية، وغالباً ما تكون هذه الصورة مضللة لا تفيد معرفة حقيقية عن الرسالة وجوهرها الأصلي، والواقع يؤكد هذا فمن ذا الذي يستطيع أن يقول اليوم إن أحوال اليهود والنصارى بل والمسلمين تدل على رسالاتهم في حقيقتها الصافية إنها صورة مشوهة بحكم اختلاطها بطبيعة البشر.

ومن ثم فلا يصبح هناك مصدر حقيقي لمعرفة جوهر هذه الرسالات إلا من خلال تعريف القرآن بها سواء عن طريق التعريف بمبادئها الحقيقية أو إخباره عما أصابها من تحريف، أو من خلال قياسها بالمبادئ العليا العظيمة التي طرحها القرآن الكريم لأن الرسالات لا تتناقض ولا تتعارض فجوهرها واحد وإن حدثت بعض الاختلافات فإن مرد ذلك إلى الظروف والأحوال التي نزلت فيها الرسالات، وطبيعة كل أمة نزلت فيها رسالتها، كما أن هذه الرسالات نزلت في أمم، وكل أمة تختلف عن الأخرى، والدليل على ذلك تنوع المعجزات حسب ما برعت فيه كل أمة، أما القرآن فجاء للناس جميعاً وجا خاتماً ولذلك لابد أن يشتمل على الجواهر الأساسية التي هي خلاصة كل هذه الرسالات ثم هو ثانياً: دليل على الإيمان القوي بالله وبقدرته وبصفاته، فمن يؤمن بهذه الكتب يؤمن بعلم الله الذي أحاط به البشرية منذ نزولها إلى الأرض بمحاسنها وأخلاقها وخطاياها، وعدم الإيمان بها يعني العكس تماماً وهو ما يلغي الإيمان لأنه يعد ناقصاً فكيف تؤمن بالله ولا تؤمن بوحدانيته وبعلمه وبقيوميته.

ثم هو أخيراً إيمان بشمولية الرسالة السماوية المحمدية الجامعة لكل هذه، ويصبح بالتالي مسؤولية على أتباع هذا الدين الحنيف أن يراعوا حق الله في كل البشر مهما اختلفت مشاربهم حتى يكون الإيمان صدقاً في القلب وصدقاً في العمل.

الرسـل:

إن الإيمان بالرسل نتيجة حتمية للإيمان بالله وملائكته وكتبه، فمن يؤمن بالله، يؤمن بملائكته، ومن يؤمن بالملائكة يؤمن بالكتب، وهذه الكتب جاءت على لسان رسله فالتتابع قائم والخيط مستمر، والمنهج المتكامل يسير من خطوة إلى أخرى في إحكام شديد، وهناك شرط للإيمان بالرسل وهو عدم التفريق بينهم فلا تجعل لواحد منهم أفضلية على الآخرين إلا من خلال ما بينه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من حيث تمييز كل واحد منهم بميزة أو لنقل خاصية محددة: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[البقرة: ٢٥٣]، والرسل بشر من عباد الله اصطفاهم منهم، وتمثل الاصطفاء في رعاية إلهية مخصوصة لكل واحد منهم، ومن ينظر في قصص الأنبياء في القرآن الكريم يعرف كيف كان الله سبحانه وتعالى يرعى كل نبي منذ ولادته وحتى انتهائه من أداء مهمته، ولنضرب أمثلة بإبراهيم"عليه السلام" الذي لقنه الله العلم والحجة صغيراً، ثم حفظه بعد ذلك من الحرق وأعطاه الحجة والبرهان حينما طلبهما وهو يحاج "النمروز" الجبار الذي ادعى الألوهية، وحينما طلبها لنفسه في قضية معرفة البعث.

ومن ينظر أيضاً في قصة" يوسف" "عليه السلام" يتأكد من هذه العناية المخصوصة منذ الطفولة وحتى أن أصبح عزيزاً لمصر مروراً بالبئر، وبمؤامرة امرأة العزيز وفي السجن ، وفي كل مرحلة كانت هناك عناية مخصوصة وتربية مخصوصة ثم لننظر في قصة موسى "عليه السلام " بعد ذلك منذ

كان رضيعاً وكيف حفظه من القتل، ثم تأديبه وتربيته بعد حادثة القتل التي ارتكبها وتوبته عنها، ثم إيصاله إلى نبي آخر لتكتمل له التربية الخاصة التي تؤهله بعد ذلك لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة، وتدعيمه بالآيات والمعجزات سواء مع فرعون أو مع المارقين من قومه بني إسرائيل، إن هذا كله يدعم الإيمان بالله عن طريق الإيمان بالرسل.

والإيمان بالرسل كما بينه القرآن الكريم يؤكد الإيمان بمحمد ﷺ، فهو واحد منهم وهو خاتمهم فلا يضعف واحد من المؤمنين لمجرد بلاء ينزل بالرسول وأصحابه، وكان بعض هذه الفتن يفت في عضد بعض ضعفاء الإيمان حيث كان الشيطان يسيطر على أحدهم ويقول أين حماية الله لنبيه ومن ثم يخرج عن إطار الإيمان بالله، ولكن المؤمنين المتمسكين بدينهم كانوا ينظرون إلى قصص الأنبياء فيزدادوا تمسكًا بإيمانهم لأنهم كانوا يدركون الحكمة الإلهية، ولذلك نلاحظ أن القصص القرآني معظمه نزل في هذه الفترة التي شهدت أوقاتاً عصيبة بالنسبة للنبي ﷺ ولأصحابه من المؤمنين المخلصين وهي الفترة المكية، وهكذا كانت مثبتات للإيمان.

ولقد كانت بمثابة دروس لهم في حياتهم ولنا نحن لتوضح لنا أن الطريق إلى الله ليس سهلاً ولا هيناً، والله القادر على كل شيء يبتلى أنبياءه بهذه البلايا - مع أنه قادر لا شك في ذلك على تجنيبهم لها - ليعلمنا ألا نركن إلى الله ومعجزاته فلا تعمل، وإنما يريدنا أن نعمل ونجد ونتحمل من البلايا ما نستطيع دون ضعف فتعمر الأرض ونحقق هدف الله من خلقنا في الأرض، وإذا أصابتنا محن فلا نجزع ونخرج من الإيمان، لأن الأنبياء الذين هم قدوتنا

قد واجهوا ما هو أصعب منها وكان النصر حليفهم في النهاية، إنه طريق للعمل وعدم التكاسل والتواكل.

ولإيماننا بالرسل جميعاً جعلنا الله شهداء على الناس وسنكون بمثابة النموذج الذي يقاس عليه الإيمان فإن احتج بعض أتباع الديانات الأخرى والذين لا يؤمنون بكل الرسل بأنهم ما آمنوا إلا بما وصلت إليه معارفهم، أتى الله بالمؤمنين من أمة محمد ﷺ ليكونوا شهداء عليهم فنحن بشر مثلهم، ولم نعرف كل تفاصيل رسالتهم ومع هذا آمنا برسلهم ولم نفرق بين أحد منهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٢].

اليوم الآخر:

إن الإيمان باليوم الآخر يحقق هدفاً مزدوجاً، فهو تأكيد على الإيمان بالمبادئ السابقة لأنه يجري مجراها من ناحية الغيب ومن ناحية الإيمان النظري، فاليوم الآخر ملك لله وحده مالك يوم الدين، والإيمان باليوم الآخر ببساطة شديدة يعني الإيمان بالله لأنه هو الذي حدده، وكما خلق اليوم الأول والإنسان الأول فقد خلق الآخر، وهو دليل على الإيمان بصفات الله من قدرة وعدل وأزلية: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الحديد: ٣].

وهو إيمان بالملائكة لأنهم كما كانوا قبل بداية الخلق، فإنهم سيكونون بعد فناء الدنيا، وسيكونون بعد فناء الدنيا ،وسيكونون منفذي أوامر الله في الآخرة، كما كانوا منفذي أوامر الله في الدنيا، فهم

الموكلون بتوصيل أوامر الله لكل مخلوق من مخلوقاته السماوات والأرض والكائنات والناس وسيكونون حملة العرش يوم القيامة ويأتون صفاً صفا بين يدي الله، ويستقبلون أهل الجنة بالترحاب ، وهم خزنة النار ومنفذوا أوامر الله بالحساب، وبالتالي فإن الإيمان بالآخرة يعني الإيمان بالملائكة أيضا.

والإيمان بالآخرة يعني الإيمان بالرسل لأنهم ما بعثوا إلا ليحذرونا من هذا اليوم وينبهونا إلى ما سيكون فيه، فإن آمنا باليوم الآخر كان معنى هذا أننا نصدقهم، وتصديقهم هو الإيمان بهم، لأن الإيمان أساسه الصدق، والإيمان بالرسل هو في صميمه إيمان بالكتب لأنها نزلت على هؤلاء الرسل، وهكذا توصل كل حلقة إلى الأخرى.

أما الهدف الثاني فهو قرين الإيمان أيضاً وهو العمل فمن يؤمن باليوم الآخر لابد أن يراعي ما يحدث فيه من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار وهذا كله يورث العمل الصالح في الدنيا ولن يكون ذلك إلا بالإيمان الحقيقي الذي يورث العمل الصالح.

البعث والحساب:

يتبع الإيمان باليوم الآخر شق آخر منه، وهو الإيمان بما يستتبعه هذا اليوم من بعث، وحساب، فالبعث قرين قيام اليوم الآخر لأنه يحدث إفناء لمظاهر الدنيا، وخلق جديد لعالم جديد: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ١٥]، تتغير فيه الأرض وتتبدل هي والسماوات ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[إبراهيم: ٤٨].

إذن يشمل البعث كل مظاهر الكون الذي نعيش فيه ونراه السماوات والأرض والناس وكل شيء إنه بعث جديد، وإذا كان هذا هو حال كل الكائنات العظيمة مثل السماوات والأرض فإن مسألة إعادة خلق الناس تصبح مسألة سهلة ومقبولة، ويشرح القرآن هذا بوضوح في قوله تعالى:

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[غافر: ٥٧]، إنه بعث لكل شيء وهي قدرة الله، حتى يتهيأ كل شيء للعالم الجديد، إنه عالم جديد بكل معنى الكلمة سماء جديدة وأرض جديدة وأناس جدد لأنهم مؤهلون لحياة أبدية ،خلود بلا موت.

ولكي يصلوا إلى هذه النهاية لابد من حسابهم، والحساب حقيقة واقعة تؤيدها الشواهد النقلية والشواهد العقلية، أما الشواهد النقلية فكثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وأما العقلية فتتلخص في أن الإنسان في عمله في الدنيا لابد أن يرى نتيجة له، فإن عمل جيداً في حقل أو في مصنع أو في مذاكرة، فسيجني نتيجة ما فعل، وإذا طبقنا هذا على الرؤية الدينية عن المؤمن فإنه يعرف أن الله خلقه لهدف محدد ليكون خليفته في الأرض

يعمرها بقوانين الله ومنحه كل ما يمكن أن يعينه على هذه المهمة وأنعم عليه بنعم كثيرة حتى يحقق الهدف، فسخر له الليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر والحيوانات والكائنات، ولابد أن يحاسبه على ما قدم مقابل هذه النعم، وهي أمور ملموسة بين يديه، وليست غيباً عنه إنه ينعم بها وظواهرها بين يديه ليعرف بها قدرة الله في الكون ولينعم بها ما يشاء، ولذلك خصص "الرازي" في كتابه «أسرار التنزيل وأنوار التأويل»؛ القسم الثاني كله من الكتاب لبيان هذه الظواهر الدالة على وجود الله وقدرته، وذلك بعدما خصص القسم الأول لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله»[1].

والإيمان بالبعث والحساب دليل قوي على صدق الإيمان بكل المقدمات السابقة، فهو دليل الإيمان بالله الواحد، وبذاته وصفاته، والإيمان بملائكته الموكلون نتيجة الحساب، والكتب التي أخبرت عنه، والرسل الذين نزلت عليهم هذه الكتب، وأخبروا بها واليوم الآخر لأنه اليوم الذي سيشهد البعث والحساب، إنها أنهار تصب في بعضها وتؤدي إلى بعضها.

---

(١) انظر: الرازي، «أسرار التنزيل وأنوار التأويل»، تحقيق محمود أحمد محمد وآخرين من العراق، ١٩٨٥م، وقد خصص القسم الأول من الكتاب «الباب الأول» لأسرار كلمة التوحيد.

القضاء والقدر:

نموذج آخر لصدق الإيمان، فالمؤمن الذي يرد كل شيء إلى الله لإيمانه به،ويعلم أن مقاليد أموره بيديه لابد أن يؤمن بالقضاء والقدر، فكل أمر من الله، وهذا لا يعني التقاعس والتواكل، وإنما يعني العمل وترك الأمر على الله، والإيمان بالقضاء والقدر دليل صدق الإيمان الحقيقي من جهة أخرى لأنه يعني - بأبسط أسلوب - التسليم لله بالألوهية وللعبد بالعبودية وإذا كانت مقاليد أمورنا الدنيوية نظن أنها بيد الآخرين فإن مقاليد أمورنا الدنيوية والأخروية هي بيد الله سبحانه وتعالى، وما هؤلاء الآخرون إلا وسائل لتنفيذ إرادة الله سبحانه وتعالى.

وأعني بمقاليد أمورنا الدنيوية هنا أن تكون نموذجاً للإنسان للتدليل على القضاء والقدرة فالإنسان يعمل ولا يمكن أن يضمن النتيجة إن العامل يعمل ويجد وتكون نتيجة عمله وتقديره بيد رئيسه، فهو لا يضمن التقييم، ومع هذا يعمل، والطالب يذاكر جيداً ولكنه لا يملك تقدير درجات نفسه مهما أجاب بدقة وهذا مثال بسيط ساذج مع أنه دال في الوقت نفسه على ما نحن بصدده.

أولاً: لأنه يعني أن الإنسان يسلم أمره لغيره وبالتالي يكون أولى أن يسلم أمره لله، وإذا كان الإنسان يشكو ظلم الناس وعدم تقديرهم له لأنهم بشر مثله يخطئون كما يخطئ وتختلف الموازين فيما بينهم، لكنه لن يجد ظلماً عند العادل الذي يؤمن به، وبالتالي فإن تسليم المقادير له لن يضره بل يفيده أكثر إفادة.

ثانياً: إن في المثال دليلاً آخر نحن في حاجة إليه فبالرغم من أن الكل لا يرضيه التقييم الذي يلاقيه لعمله «على مستوى البشر» فإنه لا يتوقف عن العمل، وهذا برهان آخر لمن يشككون أو يتشككون في القضاء والقدر، وإذا رضوا بظلم الناس فلماذا لا يرضون بعدل الله، إنهم يريدون أن يوجدوا لأنفسهم سنداً للتكاسل والتواكل فمادام القضاء والقدر بيد الله فلماذا يعملون؟ ونوجه السؤال بطريقة أخرى من منطلق الإيمان إذا كانوا لا يرضون عن تقييم أعمالهم فلماذا يظلون يعملون ويجتهدون؟ سنرى الإجابة، إنها ضرورة الحياة «عند الدنيويين»، وهي نفسها عند المؤمنين إنها سنة الله في خلقه، إنهم يعملون ويتركون النتيجة على الله، إنها ضرورة الحياة أيضاً، فالله خلقهم لهذا العمل، وتكلف بأمورهم ومن ثم فالمؤمن يحرص على العمل أكثر رغم تسليمه المطلق بقضاء الله وقدره لأنه يعرف أن هذا مدعاة للعمل أكثر منه مدعاة للتواكل.

ثالثاً: إن هذه القضية بالرغم من وضوحها أثارت جدلاً كبيراً بين الفرق الإسلامية منذ القدم وحتى اليوم، ومناقشات تخرج بصاحبها أحياناً من حلقة الإيمان إلى الإلحاد أحياناً أخرى، ولذلك رأينا مصطلحات الجبرية والقدرية والحرية فمن قائل بأن الإنسان مسير، وقائل بأن الإنسان مخير، وقائل بالوسط بين الجبر والاختيار[1]، ولن نخوض في هذا الأمر لأننا نسير

---

[1] يقول الجبرية بأن الإنسان مجبر، ويقول المعتزلة بحرية اختيار الإنسان لأفعاله، وذهب الأشعرية مذهباً وسط بين الجبر والاختيار، فقالوا: إن الإنسان مجبر في الأمور التي لا يملك من أمرها شيئاً ومخير في افعاله التي سيحاسب عليها وهو اختبار سلوكه في الحياة.

في خط محدد نحاول ألا تتشعب به السبل، ألا وهو كيف يكون الإيمان بالقضاء والقدر دليلاً قوياً على الإيمان؟

إن المؤمن حين يسلم بالقضاء والقدر إنما يعني التسليم بالله وبذاته وصفاته جميعاً، ويسلم باليوم الآخر، وبالبعث والحساب ،لأن الله يقضي ويقدر هو الله خالقه ورازقه ومعينه على العمل ومانحه كل النعم حتى يستطيع أن يسير بها في الحياة وهو في الوقت نفسه تصديق بالكتب والرسالات لأن اخبار القضاء والقدر جاءت فيها واضحة مبينة حدودها التي لا يرقى إليها شك إلا عند المتنطعين سواء الذين يريدون أن يرموا الإسلام بالتناقض بين أقواله، أو أولئك الذين يريدون التكاسل من منطلق أن الله رازقهم لا محالة، وبالطبع هذان النموذجان مرفوضان تماماً لأنهما يعنيان عدم فهم القرآن أو السنة أو حتى سيرة الصحابة فإنهم فهموا المسألة على حقيقتها،فأمنوا وسلموا وعلموا فأكرمهم الله وأعانهم على خلق دولة إسلامية قوية لأنهم فهموا حقيقة العلاقة بين الله والإنسان من خلال فهمهم للقضاء والقدر إنه في أوضح صوره إقرار لله بالألوهية وللعبد بالعبودية وفي هذا الإطار تسير العلاقة، لا جبر مطلق لأنه يتنافى مع العدل، ولا اختيار مطلق لأنه يعني الشرك ولذلك لخص "الشيخ محمد الغزالي" الموقف في خاتمة إجابته على سؤال حول القضاء والقدر في كتابه؛ مائة سؤال عن الإسلام؛ قائلا: «وأرى أن إنكار الاختيار البشري فرار من وظائف العبودية واتهام لصفات الربوبية، وهذه جريمة»[١].

---

(١) محمد الغزالي، «مائة سؤال عن الإسلام»، ط٢، دار ثابت بالقاهرة، ١٩٨٣، الجزء الأول، س١١، ص٧٨.

وهذا لا يعني وقوفه إلى جانب الاختيار المطلق، وإنما كان نقداً لفكرة الجبر المطلق، وقد جاء بعد استعراض واضح للمسألة.

وهكذا بعد استعراضنا لكافة أركان العقيدة دون الدخول في تفاصيل المناقشات والخلافات، نصل إلى ما نريد أن نصل إليه وهو الرؤية المتكاملة لجوانب العقيدة الإسلامية الشاملة والسمحة، إنه بناء متماسك ينطلق من «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ويتتابع في إحكام شديد ليرتقي بالإنسان من درجة إلى أخرى حتى يصل إلى أعلى الدرجات وهو القضاء والقدر، وقلنا إنه أعلاها لأنه دليل قاطع على صدق الإيمان، وبه تمتحن النفوس في إيمانها فإما صدقت، وإما فشلت في الامتحان، فمن كان يؤمن بالله ورسوله حقاً فإنه سيسلم بقضائه وقدره دون اعتراض، لأنه بأبسط الصور لا يستطيع أن يحدد حكمه أمر يقع له، ويصدق أخبار الله عنه بأنه خير، ومن كان غير ذلك فإنه سرعان ما يطلق لنفسه العنان ليبيح لنفسه أفعالاً شائنة من منطلق قضائه وقدره، ويأخذ في طرح التساؤلات واحداً تلو الأخر؟ أما المؤمن فيمكن أن يرده موقف واحد في القرآن دال بدرجة قاطعة على ضرورة الإيمان به دون مناقشة لأنه داخل في علم الله الذي لم ولن يصل إليه أحد مهما كانت مكانته ومهما أوتي من علم.

ذلك المشهد الذي صوره القرآن عن موسى والعبد الصالح الذي أعطاه الله بعض علمه، وطلب منه موسى أن يصحبه فأخبر موسى أنه لن يستطيع الصبر معه وتحمل أفعاله لأنه باختصار لم يصل إلى مكنون علم الله مع أنه

كليمه، فألح عليه موسى واعداً إياه بالصبر، ثم قام الرجل الصالح[1]، بعدة أعمال هي في ظاهرها شر مثل خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة جدار بالقرية رغم أن أهلها أبوا أن يضيفوهما، ولذلك اعترض "موسى" عليه السلام، على كل واحدة بما يتناسب معها فعن خرق السفينة قال له «لقد جئت شيئاً إمرا»، وهو الخطأ ولكنه يمكن إصلاحه، وعند قتل الغلام قال له «لقد جئت شيئاً نكرا»، وذلك أنه أمر لا يمكن إصلاحه ولن يقبله أحد، وعن الجدار قال: «لو شئت لاتخذت عليه أجرا» ما دام أهل القرية قد رفضوا أن يكونوا كرماء معهم وبالتالي لا يجب أن يكونوا هم أيضاً كرماء مع أحد من أهلها، وهو أمر منطقي الجزاء من جنس العمل.

ولكن الله أراد على لسان العبد الصالح أن يعطيه ويعطي المؤمنين من بعده درساً في الإيمان بقضاء الله وقدره فلولا خرق السفينة لأخذها الملك الظالم الذي كان يسير في البحر يأخذ كل سفينة صالحة غصباً «وهي قراءة عبد الله بن مسعود»، وأما الغلام فكان مستقبله ملئ بالكفر وأبواه مؤمنان فحرص الله على ألا يعكر عليهما حالهما ولا يفسد عليهما إيمانهما بسبب هذا الغلام فأمر بقتله، وأما الجدر فكان "لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما"، فليس لهما ذنب في بخل أهل القرية، وقد أراد الله لهما أن يحفظ عليهما الكنز حتى يكبرا ويستخرجاه رحمة من عنده، وكانت نهاية الآية عظيمة الدلالة على هذا المعنى الرائع «وما فعلته

---

[1] بعض الروايات تقول إنه الخضر، ولكن كثيراً من المفسرين يكتفون بقولهم: إنه رجل صالح أعطاه الله بعض علمه خاصة في هذه المسألة.

عن أمري﴾، حتى لا يذهب ظن موسى "عليه السلام" وبالتالي قارئ للقصة أن هناك من يعلم غيباً، أو يحظى بسر من أسرار، فعزا الأمر كله لله، وهذا ما تفيده الجملة بطريقة عكسية فإذا لم يفعله عن أمره فعن أمر من فعله؟ إنه أمر الله الذي لا راد لأمره.

والهدف الأسمى من القضاء والقدر أيضاً هو خلق ذلك الفرد المتوازن الذي يعزو كل ما هو فيه سواء من سرور أو حزن إلى الله، وبالتالي لا يفرح لدرجة نسيان الله فإن أصابه خير شكر الله واعترف بأن الفضل من الله، وإن أصابه مكروه أرجع الأمر لله فلا يجزع من الإيمان في الحالتين فالسرور ينسيه الله، والحزن يجعله رافضاً لأمر الله ومن ثم جمعها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[الحديد: ٢٢].

وهكذا تتكامل أركان **العقيدة** الإسلامية للجانب النظري منها، فكل ركن منها يؤدي إلى الآخر ويتدعم به، إن هذا دليل واضح على أن المنبع واضح والصراط المستقيم **متماسك** لا تتفرق به السبل ولا تضل به العقول وإن ضلت الأهواء المنحرفة وكله منبثق من هذه الجملة البسيطة في تركيبها والعميقة الواسعة في معناها «لا إله إلا الله» ولذلك صدق رسول الله ﷺ في قوله عنها «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي، لا إله إلا الله**» إنها بحق أفضل قول وأعظم مبدأ منه تتفرع الفروع وتعود لتصب فيه وتؤكده وتعمقه في قلب المؤمن.

خصائص العقيدة الإسلامية

هذه العقيدة التي أوجزنا تعريفها وتركناها تتجلى في أركانها تتمتع بعدة خصائص نستعرضها فيما يلي .

١- الثبات :

ذلك أن أساسها هو الإيمان بالله وهو ثابت لا يتغير ولا يتبدل ، وينعكس ذلك على المؤمن به ، فالذي يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقضاء والقدر والبعث والحساب وغير ذلك من الأركان المؤسسة لعقيدة المؤمن ، لابد أن يكون ثابتاً على مبدئه لا يغيرة مهما حدثت النوازع أو الكوارث وقد تمتع أصحاب رسول الله ﷺ بهذه الميزة وقد ثبتوا على عقيدتهم باستثناء نفر قليل من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب ، وقد تعلموا هذا الثبات من إمامهم وقائدهم ورسولهم الذي آمنوا به حين حاول الكفار إغراءه بشتى الوسائل عن منهجه فرد عليهم رده المشهور الذي نقله لهم عمه أبو طالب " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتة حتى يظهره الله أو أهلك دونه " .

وهاهم أصحابه ،وهو معهم ﷺ ، يتعرضون لأحلك الظروف وأقسى معاملة فيطردون ويحاصرون في شعب بني طالب بالجبل مدة تقرب من العامين ولم يتزحزحوا عن عقيدتهم بالله ، لم يثنهم الجوع والعطش ولم يرهبهم التخويف والترويع عن الثبات على عقيدتهم ، بل إن "بلالاً" كما تروى كتب السير والتاريخ كان كلما اشتدوا عليه في التعذيب يزداد إيماناً ويردد قولته المشهورة "أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد ، وما له كفواً أحد" .

وأعتقد أن ثباتهم هذا ناتج من أمرين ، ياليت مسلمي اليوم ومؤمنيهم يتعلمون منهم وهما

أولاً : وعد الله لهم بالتثبيت والذي تجلى في قوله تعالى

﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء﴾ [إبراهيم] وما دام الله قد وعد فوعده حق **(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)** فقد وعدهم بالتثبيت في الدنيا والآخرة ، والثبات في الدنيا على المبدأ يورث رضا من الله يمن به على عباده المؤمنين يوم الحساب : فيجعلهم يثبتون على مبدأهم ويثبتون على الصراط حتى يصلوا إلى مقامهم الذي أعده الله لهم جزاء ما قدموه .

ثانياً : أنهم يثبتون نتيجة النور الذي يقذفه الله في قلوبهم فيجعلها صالحة لتلقى آيته بكل اطمئنان ، وينير لهم قلوبهم فتعي آيات الله في الكون نتيجة لثباتهم على عقيدتهم بمداومة ذكر الله سبحانه وتعالى يقول تعالى **﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** [الرعد] .

وهذا ينتج ثباتاً في المعرفة والثقافة ؛ لأن التأثير والتأثر المتبادل بين المعتقد والفكر شيء طبيعي فكل سلوك للإنسان وكل فكر له وثقافة ينطلق من معتقده ، وحينما تتمتع العقيدة بالثبات فإن هذا يكون سياجاً يحمى ثقافة المسلم من تأثير الهوى ومن تأثير التيارات المضادة المتمثلة في الصراع السياسي أو الصدام المادي أو الغزو الفكري .

٢- الرسوخ :

يتبع الثبات في العقيدة رسوخاً فيها وكما قلنا أنفا ، إن الثبات يعنى الرسوخ وهو أمر تابع له بالضرورة مما ينعكس أثره على الفرد والمجتمع ، فالمسلم ثابت العقيدة يصمد أمام أى مؤثرات ؛ خارجية أو داخلية ، الخارجية تتمثل في المحاولات الخارجية لهدم الدين والدولة معاً سواء بحروب عسكرية أو غزوات فكرية مثل الغزو الثقافي الغربي الذي يحدث الآن ويهدف إلى محو الهوية الإسلامية العربية ، والداخلية تتمثل في الشهوات والطموحات التي تنتاب الإنسان عبر حياته اليومية وهو الذي وصفه رسول الله ﷺ بالجهاد الأكبر ؛ جهاد النفس والهوى ، ويعبر بوضوح عن رسوخ العقيدة .

وكلما نازعت الإنسان نزعة من هذه النزعات تذكر قول رسول الله ﷺ "والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما" ولما سأل "عمر بن الخطاب" ؛ ومن نفسي ؟ قال : ومن نفسك يا عمر ، قال عمر : ومن نفسي يا رسول الله . قال الرسول ﷺ : الآن يا عمر ؛ أى الآن فقط أدركت الإيمان الحق .

هذا الرسوخ يدفع بالمؤمن إلى بذل النفس والجهد فلا يعبأ بما يصيب جسده بل بما يصيب روحه وإيمانه ، فيعلم أن هذا الجسد فان فلماذا إذن يضيع نفسه بتسخيرها لرغبات هذا الجسد ومتطلباته بل يقلب الآية لتكون في مجراها الصحيح وهو أن هذا الجسد مسخر لتحقيق سمو الروح حتى تتحقق الخلافة الحقة لله في الأرض ، والأمثلة كثيرة ترويها كتب التاريخ عن المؤمنين الذين لم يتزحزحوا عن عقيدتهم نتيجة تعذيب

أجسادهم وأبرزهم التابعي "سعيد بن المسيب" فقيه المدينة الذي لاقى عنتاً من أحد أمراء بني أمية ولم يتخلى عن مبدئه وكذلك الإمام الممتحن "أحمد بن حنبل" الذي ثبت على عقيدته في الله وفي القرآن وتحمل ما تحمل من أتباع "المأمون" حتى انتصر له الله .

٣- القوة

العقيدة الثابتة والراسخة تمنح صاحبها قوة في الحق يقول الرسول ﷺ "المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف وفي كل الخير"[١] .

وهذه القوة ليست هي الشائعة لدي الناس من قوة البنيان والبطش بالناس ؛ لأن القرآن وصف الإنسان في بنيانه بالضعف ، إنما هي قوة العقيدة ،فطبيعة الإنسان ضعيفة بإقرار خالقه وهو الله سبحانه وتعالى ﴿ **وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً**﴾ [النساء/٢٨] .ويقول سبحانه وتعالى أيضا ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾ [الروم/٥٤]

ولكن العقيدة الراسخة و الثابتة تحول هذا الضعف إلي قوة تفوق قوة البدن ويتجلى ذلك في تكليف الله لرسوله بأن يأمر المؤمنين أن يغلبوا الكفار ولقوة الإيمان والعقيدة جعل الواحد من المؤمنين بعشرة من الكفار ، ثم خفف عنهم وجعله باثنين .

يقول تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ**

[١] البخاري

كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ٦٥ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال / ٦٦،٦٥] ففي البداية جعل الله قوة العقيدة ، نتيجة المعرفة بالله والإيمان به ميزانا لتفوق المؤمن على عشرة من الكفار لأنهم قوم لا يفقهون ، ثم خفف عنهم لعلمه سبحانه وتعالى وهو خالقهم ، بضعفهم على المستوى البدني وكذلك الإيماني جعل الواحد منهم باثنين .

والمتأمل لهاتين الآيتين يدرك مدى ما تضفيه العقيدة من قوة على صاحبها والمقياس الأول هو الأمثل والنموذجي والمؤمن فيه بأمة ، والمقياس الثاني هو المعتاد إذ حتى في حالة الضعف يكون المؤمن باثنين ، وتعينه الملائكة على تعويض الفارق ولذلك أمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة ثم خمسة آلاف من الملائكة ليكون الإجمالي هو العشرة المقررة في النموذج الأمثل ولم لا وقد أوحى الله لملائكته في هذه المعركة أن يثبتوا الذين آمنوا يقول تعالى **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾** [الأنفال / ١٢] وهكذا يجب أن تكون عقيدة المؤمن قوية لأنه من البداية يدرك أن الله معه وأنه ناصره ومؤيده كما أنه خالقه ومحييه ومميته وصدق قول القائل " إذا كان عمري ورزقي بيد ربى فممن أخاف " وفي الوقت نفسه فإن وعيه بالمعية يمنعه من مخالفة ربه فلا يضعف أمام أي مظهر أو مثير للضعف ..

٤- التوازن :

مـن خصـائص ومزايـا العقيـدة الإسـلامية والتـى تميزهـا عـن غيرهـا مـن العقائد أنها متوازنة وذلك على مستويين :

الأول : بين الجانب المادي والروحي، فهي عقيدة وسط لا تعلى من جانب على جانب آخر ، فهي لا تدعم شهوات الإنسان ومتطلباته المادية فقط ، ولا تقتصر على جانبه الروحي، وهذا التوازن يعطيها القوة لأن جميع متطلبات الإنسان فيها متحققة ومحفوظة؛متحققة لأن القرآن الكريم والسنة لم يدعا شيئاً من متطلباتها إلا وحققه له ومحفوظة لأن كل جانب يحفظ الجانب الآخر ، فإذا ثارت رغبات الإنسان ومتطلباته المادية والحيوانية تمكنت روحانياته من ضبطها أن تتجاوز حدودها وتدفعه إلى المعاصي .

الثاني : التوازن بين الشدة واللين أو القوة والرحمة ذلك أن المؤمن وإن كان قوياً إلا أن قوته لا تعنى القسوة والتجهم والعبوس في وجه مخالفيه أو خصومه ، وإلا ما قال الله تعالى لنبيه ﷺ **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** [آل عمران /١٥٩] ، إنه وإن كان مطالباً بالقوة في وجه أعدائه إلا أنه في الوقت نفسه مطالب بالرحمة واللين وألا يكون فظاً غليظ القلب حتى يستطيع تأليف الناس من حوله ، ومن هذا المنطق المتوازن مطلوب منه العفو والاستغفار كل ذلك محمول على التوكل على الله الذي بيده مقاليد الأمور كلها " **له مقاليد السموات والأرض** " .

وهـذا التوكـل ولـيس التواكـل راجـع إلى تـوازن آخـر تحدثـه العقيـدة الراسخة أو هو ناتج عنها ، وهـو التوازن بـين المعلوم والمجهول أو بـين الغيب والشهادة يقول تعالى ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [الحشر/ ٢٣] وقد تكـرر هـذا الوصف لله في القـرآن الكريم كثيراً لينبه الإنسان المؤمن إلى تثبيت عقيدته بالعيش في معية الله وما ضعفت عقائد الآخرين إلا لأنها لم تشمل الجانبين يقول "سيد قطب" " إن العقيـدة الـتي لا غيـب فيهـا ولا مجهـول ولا حقيقـة أكـبر مـن الإدراك البشـري المحـدود ليسـت عقيـدة ولا تجـد فيهـا الـنفس مـا يلـبي فطرتهـا وأشـواقها الخفيـة إلى المجهـول المسـتتر وراء الحجـب المسـدلة ، كمـا أن العقيدة التي لا شيء فيها إلا المعميات التي لا تدركها العقول ليست عقيدة ؛ فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي ، والفكـر الإنسـاني لابـد أن يتلقـى شـيئاً مفهومـاً لـه ، ولـه فيـه عمـل ، يملـك أن يتـدبره ويطبقـه ، والعقيدة الشاملة هي التي تلبى هذا الجانب وذاك وتتوازن بها الفطرة وهـي تجد في العقيدة كفاء ما هو مودع فيها من طاقات وأشواق "[١] .

هـذا التوازن بـين الغيـب والشـهادة نـاتج مـن قـوة العقيـدة وثباتهـا ورسـوخها ومردود عليها في الوقت نفسه بالقوة في كل مسالكها .

أثر هذه الخصائص والمميزات في الثقافة الإسلامية :

إن تمتع المؤمن بعقيدة لها مثل هذه المميزات والخصائص يورثه ثقافة قوية وثابتة وراسخة ومتسعة وعميقة ومتوازنة ، فبحث المؤمن الدائم عما يقوى

---

(١) سيد قطب / خصائص التصور الإسلامي ص ١٢٠

هذه العقيدة يمده بثقافة متسعة ؛ لأنه سيديم النظر في ملكوت السماوات والأرض لترسيخ هذه العقيدة وتثبيت الإيمان بالله ، وهنا ينتج الأتساع ؛ لأن ملكوت السماوات والأرض متسع وشامل والنظر فيه ينتج معرفة شاملة تتشعب علوماً ومعارف تضئ للعالمين حياتهم وهذا هو الذي حدث في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، وهو الذي فسّر لنا كل المميزات التي تمتعت بها الثقافة الإسلامية.

ثم يحملنا مسئولية مواصلة الدرب على هذا النهج القويم فنبدأ بترسيخ عقيدتنا وتثبيتها ؛ إن الإيمان بالله يجعلنا لا نهاب أحداً ولا نخضع لأحد ولا نتبع أحداً والنظر في كتابه وتأمله ومحاولة فهمه تنتج لنا معارف تكون ملكاً لنا (ولسنا تُبَّعاً) إن العقيدة القوية تدفع بصاحبها إلى بذل الجهد والوقت في تدبر آيات الكون وابتكار كل ما يفيد في تدعيم الإيمان بالله ، ومن ثم يصبح علينا أن نمتلك أدوات المعرفة والعلم بكل تجلياته النظرية والعلمية لنملك أمرنا خاصة أن الله عز وجل أمرنا بهذا صراحة فقال ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال / ٦٠] .

وهذا ما يدفع إلى إنتاج ثقافة متوازنة أيضا ، فالمعرفة الناتجة من البحث الدائم عما يدعم العقيدة بخصائصها التي ذكرناها ، لابد أن تكون متوازنة لأنها بحث في حكمة الخفي والغيبي وفي الوقت نفسه يلبي متطلبات الإنسان في حياته اليومية حتى يحقق الهدف الذي خلق من أجله ، وهو خلافة الله في الأرض ، وقد وكلت العقيدة الإسلامية أمر تدبير هذه

الخلافة إلى الإنسان نفسه محوطاً بعقيدته فلا ينحرف و بالتالي يحرف ما أنزل الله سبحانه وتعالى كما فعل كثير من الأمم السابقين ، وكان من نتائج تمتع هذه الثقافة الإسلامية ، بكل المميزات التي أشرنا إليها وبكل المميزات والخصائص التي تتمتع بها العقيدة التي تقف وراءها ، أن لاقت قبولاً وانتشاراً عند كل من تثقف بها أو اتصل بها وقرأها ، بل وأفاد منها ، فقد امتزج الفكر العالمي في الشرق والغرب بهذه الثقافة وتأثر بها هذا ما حدث في بلاد فارس وبلاد الهند ، وهذا ما حدث أيضاً في أوربا حيث أقبل الكل على الثقافة الإسلامية ينهل منها ويفيد ويطور نفسه من خلال أفكارها ومبادئها .

أثرها في حياة الفرد والمجتمع :

حينما يمتلك الإنسان عقيدة بهذه المميزات والخصائص ، وتتبعها ثقافة مستمدة مميزاتها منها فإن ذلك ينعكس أثره على الفرد ، إذ يصبح هذا الفرد قوياً صامداً في مواجهة المحن كما بينا من قبل ذلك وأوضحناه بالأمثلة من المسلمين والمؤمنين الأوائل وهم السابقون إلى الإسلام ، إنها عقيد ترسخ صلته بربه فيعيش في معيته ، وحين تواجهه أزمة يتذكر حديث رسول الله ﷺ لأبى بكر وهما في الغار " يا أبا بكر ما ظنك بإثنين الله ثالثهما " والتي ذكرها القرآن صراحة في قوله تعالى ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة/٤٠]

إن مجرد ذكر هذا الموقف يحدث في الفرد قوة لا تعادلها قوة فيثبت على إيمانه أمام نوازع الشيطان وأمام أية محاولة لإخراجه من حظيرة الإيمان حتى ولو كانت قوة البطش الغاشمة لأعداء الدين ،وحينما يصبح المسلم على هذه الحالة من القوة والثبات والرسوخ فإنه سيسعى بكل طاقته إلى فعل الخيرات والبعد عن الموبقات ، فينجو بنفسه من مهاوي الضلال والفساد ، أي أنه في النهاية يتمتع بهذه الصفات : (القوة – الثبات – الطهارة – الميل إلى الحق – العدل – التواضع أمام عظمة الخالق – النبل في الأخلاق).

ولنا أن نتخيل مجتمعنا ينعم أفراده بهذه الصفات ، هل ينتابه ضعف ؟ أبداً سيصبح المجتمع قوياً بقوة أفراده ، راسخاً بدفاعهم عنه في الحق ، أمناً ، إذ من أين يأتي له الترويع فالجريمة منعدمة ؛ لأن الأفراد محاطون بسياج أمن هو أقوى من كل ما أخترعه الإنسان من وسائل الأمان وهو الإيمان والعقيدة القوية ، وما ضعفت المجتمعات وفقدت أمنها وسلامتها إلا نتيجة ضعف الإيمان وصدق "إقبال" في قوله

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيي دينا

إن المجتمع الذي يتكون من أفراد مؤمنين يشكلون نواته الأساسية وهي الأسرة المسلمة المتحاب أفرادها في الله يطبقون منهجه ؛ قرآنه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وكلهم ثقة في الله ويقين يصعب أن ينال منه الضعف أو تنال منه أيدي العابثين ، إن العقيدة القوية حصن منيع للمجتمع ،فقوة إيمان الأفراد تحميه من هجمات الأعداء ، وهي في الوقت نفسه تحميه من شرور وآثام النفس الأمارة بالسوء فتقل فيه الجرائم ، وإذا قلت الجرائم زاد الحب بين الناس والوئام والسلام والأمن وهذا لا يمنع من وجود بعض

الإسثاءات لأن الله عز وجل يقول ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ ويقول أيضاً ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج] .

ولن تكون هناك جنة لله على أرضه ، ولكن بحساب الغالبية يكون مجتمعاً مثالياً .

و'ذا أردنا التثبت من هذه الحقيقة فلنعد إلى الماضي وإلى عصور النور في حياة .لأمة الإسلامية ، وسنرى فيها تطبيقاً لمبادئ العقيدة الإسلامية السمحة يه ع من قوة الاعتقاد ، ومن سلوك طيب تابع له ، ولنقرأ في تاريخ الدولة الإسلامية فترة وجيزة ، هي حكم الخليفة الخامس "عمر بن عبد العزيز" التي لم تتجاوز العامين بكثير (عامان وشهور قليلة) ، وكيف أصبحت الدولة بلا فقراء ، وبلا عاجزين وما ذاك إلا ناتج قوة العقيدة التي تمتع بها ولى أمرها وتطبيقه الصارم لمنهج الله متأسياً في ذلك برسول الله ﷺ وصحابته الكرام ؛ صحيح أنه قتل بأيد قذرة ، ولكننا آن ذلك كان فضلاً من الله ومنه عليه ليرزقه الشهادة وليس نتيجة تطبيقه للمبادئ الإسلامية العظيمة، إنه كان مكافأة من الله له على ما قدم وليس عقاباً على التطبيق الصحيح لمنهج الله .

وفي كل مرة يتم فيها التطبيق الصحيح لمنهج الله يتحقق النصر لهذه الأمة ، فالعقيدة تحمى المجتمع من الداخل وتجعله قوياً متماسكاً ، ومن ثم تحميه خارجياً لأن أفراده يكونون على قلب رجل واحد ،وحينما يدعو داعي الجهاد تجدهم كأنهم فرد واحد ، وكأني بهم يطبقون تعاليم رسول الله ﷺ في قوله " المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا".

وهذا لا يحدث إلا إذا تمتع المسلم باعتقاد ثابت وراسخ ويقين إيماني على مستوى عالي .

إذن تحقق العقيدة الإسلامية القوية للأفراد مميزات عديدة مثل : القوة والثبات والصفاء والنقاء والحب والتعاون والتآلف والتآزر والتعاضد ، وتحقق للمجتمع القوة والهيبة والانتصار ، والتقدم والرخاء ، والأمن والأمان والسلام ، وبالتالي الرقى و التطور .

وكلها (على مستوى الأفراد والمجتمع) مبنية على بعضها البعض ومتراكمة فوق بعضها ، وراجعه إلى العقيدة القوية فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقضاء والقدر يحقق كل هذه النتائج الطيبة وهذه الآثار الإيجابية والخيرة ، وكل ذلك راجع إلى الله سبحانه وتعالى فهو الخير كله والحق كله والعدل كله والرحمة كلها .

التيارات المعادية
وكيف نواجهها بثقافتنا

لا شك أن ثقافة بهذه الخصائص والسمات لابد أن تواجه تيارات معادية وقد ظهرت هذه الأحقاد الكامنة بعد أحداث ١١سبتمبر في والولايات المتحدة الأمريكية ، وبروز علي السطح ما كان خافيا في الصدور أو في مراكز الأبحاث التي كانت تخطط وتنظر للصدام مع الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية.

لقد حاولوا طمس معالم هذه الثقافة والهيمنة عليها تحت راية العولمة بعد سيطرة القطب الواحد نتيجة انهيار "الاتحاد السوفياتي" الذي كان يمثل رمانة الميزان أما الهيمنة الأمريكية التي برزت في الصورة في أثناء الحرب الباردة مناصرة للحقوق الإنسانية وداعمة للتوجهات الإسلامية في معاداتها للفكر المادي الشيوعي ومحاولته السيطرة علي بلدان الشرق كما حدث في أفغانستان حيث أمدت أمريكا المجاهدين الأفغان بالسلاح لمقاومة الاحتلال السوفيتي.

ولم يكن هذا الدعم خالصا من منطق الإيمان بحقوق هؤلاء الناس ولكنه يتضح أنه كان يهدف مقاومة السيطرة السوفيتية فقط بدليل أنه لما خرج الإتحاد السوفياتي من أفغانستان يجر أذيال الهزيمة والخيبة أمام قوة المجاهدين بدأت أمريكا تدير ظهر المجن لهؤلاء المجاهدين وتتربص بهم، وهالها أن سيطر هؤلاء المجاهدون بقيادة حركة طالبان علي مقاليد الأمور وأرادوا أن يقيموا دولة إسلامية ونجحوا إلي حد كبير في تكوين مجتمع ذي صبغة إسلامية، فأظهروا وجههم الحقيقي في معاداتهم لإسلام ودبروا هذا الحادث اللعين ونسبوه إلي منظمة القاعدة لأنها إسلامية المشرب، وراح

إعلامهـم يهـاجم كـل مـا هـو إسـلامي ويصـفه بالإرهـاب وبـدأوا حملـتهم المسمومة إعلاميا بل وعسكريا.

فعلـي المسـتوي الإعلامـي اسـتطاع إعلامهـم الصـهيوني التوجـه والـدعم والتكـوين وغسـلوا عقـول أوربـا وبـدأوا يخيفـون العـالم الإسـلامي بتوجيـه الاتهـام إلـي كـل نظـام إسـلامي في أفغانسـتان وباكسـتان وإيـران والمملكـة العربيـة السـعودية بـلاد الحـرمين الشـريفين لدرجـة أن أنظمـة عربيـة كـثيرة بدأت تتخلي عن توجهها العربي والإسـلامي، وتغير برامجها التعليمية وتقلل مـن كثافـة التعليم العربـي لصـالح الثقافـة الأجنبيـة حتـى تتقـي شـر الاتهـام، وتثبت مواكبتها لركب العولمة.

وعلي المستوي العسكري بدأوا حـربهم الغاشمة ضـد أفغانسـتان الإسـلامية للقضـاء علـي التوجـه الإسـلامي لحركـة طالبـان بـدعوى أنهـا داعمـة لتنظـيم القاعـدة منبـع حركـة الإرهـاب في العـالم مـن وجهـة نظـرهم، والغريـب أنهـم يعلمون مصدر الإرهاب الحقيقي في العالم ويدعمونه ويؤيدونه في كل ما يفعل ألا وهي دولة إسرائيل الصهيونية سبب الإرهاب الحقيقي في العالم كله.

إنهم يرون ما يفعلونه في فلسطين الأرض العربية الإسلامية من قتل أبرياء وسـفك دمـاء بـلا وجـه حـق ويتبـاهون بتـدبير المكائـد في العـالم، ويضـربون بكـل قـوانين الشـرعية الدوليـة الـتي تتغنـى بهـا أمريكـا زيفـا وكـذبا عـرض الحائط وتساندها أمريكا، بل استفتت قانونا خاصا اسمه معـاداة السـامية، وما نظن ذلك في حقيقته إلا محاربة للإسـلام وثقافته، فكـل مـن الصـهيونية وداعمتهـا أمريكـا يعرفـون جيـدا أن الإسـلام وثقافتـه بكـل مـا تحمـل مـن عناصر(الجمال والكمال والخير والحق) هـي الأقوى، وهـي الميزان الحقيقـي

لكشف زيف ثقافتهم ودعواهم؛ لأن ثقافتهم نتاج تفكير بشري خاضع لمؤثرات الهوى والابتزاز الصهيوني الذي يعلم حقيقة أن الإسلام هو الحق ومنهجه هو المنهج الذي يتوافق مع الفطرة الإنسانية الصحيحة ومع النفوس السوية وقد بدأ يغزو عقول كثير من مواطنيهم ورعاياهم، ومن هذا المنطلق راحوا يحاربونه بكل الوسائل الممكنة وقد تمثلت هذه الحرب في عدة مظاهر:

١-إزكاء روح الفتنة بين المسلمين

وذلك منذ بداية الحملات الصليبية وحتى الآن منهم يعرفون أن سر تفوق المسلمين وقوتهم تكمن في وحدتهم تحت راية هذا الدين، ولما بدأوا حملتهم الاستعمارية مع مطلع القرن التاسع عشر قرروا أن يبثوا روح التفرقة أولا عن طريق الحدود التي وضعوها بين هذه البلدان أولا ليمنعوا أو على الأقل ليحدوا من عملية التواصل والاتصال الذي كان بينهم، والذي كان يحدث ترابطا شديدا عن طريق الانتقال من بلد إلى بلد والاندماج بالتزاوج والتصاهر الذي كان يجعلهم قلبا واحدا وأسرة واحدة، وتحت راية ترسيم الحدود وضعوا هذا الفواصل.

ولما بدأوا يكتشفون الثروات التي أنعم ا لله عليهم وأرادوا أن يبتزوها لأنفسهم، غرسوا في نفوس أهل كل بلد روح الأنانية والإحساس بالتملك، وذلك لتدمير مبدأ أصيل من مبادئ الإسلام وهو أن المال مال الله ولكل فقير في ديار المسلمين حق ولابد أن يعم النفع به، وكما قررت كتب الأصول وكتب الفقه أنه يجوز نقل مال الزكاة من بلد إلى بلد آخر إذا استوفى أهل البلد الأصليين حقوقهم منه، ومعنى هذا أن يعم الخير وتزداد قوة الأمة الإسلامية.

ولما حلت الدولة العثمانية محل الدويلات الصغيرة، ورفعت شعار الإسلام عنوانا لها فكسبت به قوة وسادت معظم مناطق العالم الإسلامي القديم مما جعلها تغزوا أوربا من جديد بعدما ظنوا أنهم قضوا على الخط الإسلامي في الأندلس، أقلق هذا مضاجع الأوربيين وأخذوا يحاربون هذه الدولة الإسلامية حتى أنهكوا قوتها وساعدهم على ذلك تخلي كثير من ولاتها عن مبادئهم الإسلامية، وسيطرة رغباتهم الدنيوية والمادية مما جعل البلاد الخاضعة لهم تنفر منهم، وأخذ الغرب يبث سمومه في هذه البلاد تحت سياج التحرر ودعم حركات المقاومة نفسه إزكاء روح التعصيب والمحلية لإضعاف روح التوحيد تحت الإسلام فتسهل مهمتهم التي كانوا يخططون لها بعد فترة من الزمن، ونجحوا في ذلك واستولوا عليها وقسموها فيما بينهم دول احتلتها فرنسا وأخري احتلتها انجلترا، وأخري إيطاليا وهكذا وزعوها على أنفسهم، ونفذوا مخططهم الناجح، والذي تصاعد أثره وما يزال حتى الآن.

إننا الآن نعيش في عالم إسلامي مفكك رغم كل محاولات الهيئات الإسلامية لإعادة الروابط والاتصالات بعقد المؤتمرات والفاعليات التي تقرب بين وجهات النظر، والتي غا لبا ما يسودها التنافس من أجل فرض وجهة نظر بلد على سائر البلدان فتحدث الفرقة بدلا من الترابط والتواصل، بل إن المسألة تتجاوز ذلك إلى داخل البلد الواحد بالتنافس بين كل جماعة وأخري.

٢- تحويل الخلاف الفكري إلي صراع

وهو أحد نواتج التحدي الأول والذي تحدثنا عنه آنفا، فقد قامت في الجزيرة حركة سلفية بقيادة الإمام محمد بن عبد الوهاب تهدف إلى إحياء سنة الرسول ﷺ، وسلفه الصالحين، بنبذ البدع والخرافات وما ساء الأمة من

بدع وضلالات، وتوجهت نحو إحياء المجتمع الإسلامي الأول بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومنهج أصحابه وتابعيه من السلف السائرين على دربه، وكتب لها النجاح فهالهم ذلك وراعهم أن تعود صورة المجتمع الإسلامي الصحيح الذي يمثل قوة تهدد الأهداف التي كان يخططون لتطبيقها فيما بعد فسلطوا عليها الدولة العثمانية التي أوكلت إلى محمد على حاكم مصر مهمة القضاء عليها ومحاربتها في مهدها ونجحوا في ذلك ظاهريا ومؤقتا، ولأن الفكر لا يموت أبدا أحيت من جديد حين تبني رجل قوي صالح هو الملك عبد العزيز بن سعود لها فأعاد لها روحها وهيبتها ومكانتها لكن محاولات التربص ما زالت مستمرة.

وقامت في ليبيا الحركة السنوسية التي مزجت في فكرها بين السلفية والصوفية كما قامت في السودان الحركة المهدية التي كان فكرها أيضا مزيج من السلفية والتصوف، ولكن الحركتين قامتا أصلا لمواجهة الأتراك ومحاربتهم للتحرر منهم فشجعوهما على ذلك، وفي داخل هذا التشجيع كان هناك هدف خبيث يتحقق بتصوير كل فرقة أو حركة على أن منهجها هو الصحيح دينيا، ومن ثم يبدأ الصراع، فبدلا من أن تتلاقى هذه الحركات على هدف واحد هو التحرر من الاستعمار التركي ثم أي استعمار بعد ذلك من أجل رفع راية لا إله إلا الله، تحول الأمر إلى صراع حول من الذي على الحق في منهجه ومن الذي يسير على النهج الديني الصحيح، مع أن الاختلاف في الفهم حق، وأمر جائز شرعا ما دامت الثوابت العقائدية قائمة.

ولما أنبري جمال الدين الأفغاني لدعوة الإصلاح في العالم الإسلامي، وأخذ يدعوا إلي جامعة إسلامية تضم كل الحركات والأفكار في سبيل توحيد الكلمة والصف أمام الخطر الذي يهدد العالم الإسلامي من خارجه لقيت دعوته قبولا لدي البعض وهجوما من البعض الآخر بدعوى أن هذا المنهج الإصلاحي يقوم علي أفكار إسلامية مختلطة برؤى وأفكار غربية أو غير ذلك من الاتهامات التي وجهة إلي هذه الدعوة مع أنها قامت علي مبادئ تلتقي مع أفكار معظم هذه الحركات وتجمعها في إطار واحد وهي:

١ - الدعوة إلي سلفية دينية تعود إلي المنابع الإسلامية الأولي النقية والبسيطة متخطية ومتجاوزة البدع والخرافات التي أثقلت العقل الإسلامي العربي بالقيود والأغلال.

٢ - الدعوة إلي استخدام العقل وبراهينه في فهم الدين وفقه نصوصه ووعي مقاصده ومراميه.

٣ - الدعوة إلي التجدد الذاتي الذي ينبعث من ترسانة الأمة الفكرية وتراثها الحضاري وهو خير ما يعينها علي مواجهة المهام ومجابهة التحديات.

٤ - الدعوة إلي النظر في الحضارة الغربية من موقع مستقل ومتميز لمعرفة أسرار تفوق الخصوم حتى تمتلك هذه الأسرار وتتمثلها وتستعين بها في الصراع[1].

وهي دعوة متوازنة مستفيدة من كل ميراث الأمة الثقافي لإصلاح الشأن الإسلامي والعربي وتجديد الدماء والأفكار من أجل مواجهة هذا الصراع الذي تحدثه أوربا وتريدبه القضاء علي الفكر الإسلامي وطمس معالم

---

(١) د. محمد عمارة، الإسلام وقضايا العصر، ط١، ١٩٨٠، دار الوحدة بيروت، ص ٣١، ٣٢.

الهوية الإسلامية، ولكنها لم تسلم من الهجوم والنقد والتجريح، ومع ذلك فإنها حركت الماء الراكد وآتت أكلها على المدى البعيد، وأحدثت صحوة إسلامية حتى وإن شاب هذه الصحوة بعض التعصب والتشدد.

وكان النصف الثاني من القرن العشرين مسرحاً لظهور العديد من الجماعات والحركات الإسلامية ولكنه شابها روح التصادم بدلا من روح التسامح والقبول للآخر، وقد قرأنا في التحقيقات التي تمت مع بعض أعضاء هذه الجماعات حين اصطدمت بالقوى السياسية الحاكمة في هذا البلد أو ذاك عن تمويل خارجي، وإن كان أعضاؤها قد نفوا هذا الاتهام لكن مثالاً واحداً بارزا دل على اليد الخفية التي وقفت وراء إزكاء روح الفتنة والتعصب لدى أعضاء هذه الجماعات وهو قبول الحكومات الغربية والأمريكية لهؤلاء الأعضاء كلاجئين سياسيين في أراضيها، وهو أمر مثير للدهشة والعجب فكيف للذين يحملون كل هذه الكراهية للإسلام أن يحموا هؤلاء الإسلاميين؟ إنه المخطط الذكي الذي يظهرهم وكأنهم يدافعون عن حقوق هؤلاء المسلمين ولا يحملون لهم حقداً أو ضغينة، ولكن ما إن وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والإعلان بوضوح عن العداوة وتكريس الاتهامات حتى بدأوا يتربصون بهم، وها هو رئيس وزراء بريطانيا توني بلير يعلن عن أسفه وندمه لقبول هؤلاء كلاجئين سياسيين وأنهم السبب في أحداث التفجيرات التي شهدتها لندن عام ٢٠٠٥

إن مشكلة أعضاء هذه الجماعات أنهم لا ينظرون إلا في مرآة أفكارهم، لأنهم مثقفون بثقافة الإسلام وسماحته يصدقون دون تأمل عقلي ظاهر الأشياء وهو أحد نواتج الوقوف عند النقل دون إعمال العقل للدرجة

التي تجعلهم يدركون ما وراء الأشياء فيقول (الدكتور أحمد كمال أبو المجد في كتاب حوار لا مواجهة) إن أطراف الحوار حول قضايا الإسلام والمسلمين جديرون جميعا بأن يذكرون أن وحدة الحقيقة لا تنفي تعدد زواياها، واختلاف العقول في تفسيرها، ولو استقام ما يتوهمونه من ضرورة اجتماع الناس واتفاقهم على فهم واحد لما نشأت بين المسلمين علوم التفسير والكلام ((أصول الدين والعقائد)) وأصول الفقه، ولما سجل التاريخ اختلاف الصحابة في أمور عديدة وردت فيها نصوص قرآنية وأحاديث نبوية، ولما سجل اختلاف التابعين وتابعي التابعين والأئمة أصحاب المذاهب من بعدهم.

إن التوقف عند هذه الحقائق التاريخية جدير بأن يخفف من غلواء كثير من أطراف الحوار المعاصر حول الدين وقضاياه .. وذلك حين يذكرون أن أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم وهم علي ما عرف عنهم من الورع والتقوى والحرص علي وحدة الأمة قد اتسعت صدورهم لهذا الخلاف فأداروه بينهم في صفاء قلب وعفة لسان وحرص متبادل على صون الكرامات وحفظ المودات[1].

ولو أراد قارئ مزيدا من الأمثلة علي ما قاله (الدكتور أبو المجد) فليرجع إلي كتاب الشيخ محمد محمد المدني بعنوان نظرات في فقه الفاروق عمر بن الخطاب الذي أصدر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر لينظر مدى

---

(١) د/ احمد كمال ابو المجد، حوار لا مواجهة، دراسات حول الإسلام والعصر، كتاب العربي عدد إبريل ١٩٨٥، الكويت.

أدب الصحابة عند الاختلاف في الفهم. وأيضا نموذج إعمال العقل والفهم في النقل لعلنا نقتدي بهم في اختلافنا حول مسألة من المسائل[1].

٣- روح الانهزام:

إننا نظن أن السبب في روح التعصب والتشدد هذه راجعة إلى روح انهزامية تستشعر ضعفا أمام سيل الاتهامات الموجهة بدءا من اتهام عدم مواكبة الإسلام للعصر بروحه العلمية شديدة التسارع والتطور والتي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين وانتهاء بهذه الموجات المتلاحقة من الاتهامات التي ظهرت في الرابع الأخير منه حول المرآة والدعوة المخلوطة بأن الإسلام هو سبب هذه المكانة المتدينة لها ثم بعد ذلك إلصاق تهمة الإرهاب في أي مكان بالإسلام والمسلمين، وأمام هذا كله يظن كثير من ينتمون إلي الفكر الإسلامي بإخلاص يتمثل في التمسك بكل مظاهره وإن كان ينقصه الوعي بروحه وجوهره أن شدة التمسك بهذا المظهر الإسلامي هو إعلاء للدين، ودفع للاتهام عنه، ويتمادى هذا التيار في توجهه فيظهر الفكر الإسلامي منغلقا ، ويتضح للمتأمل الحقيقي مدي شعور الداعية إلي هذا الفكر بالانهزام أمام هذا الاتهام أو ذاك حتى يصل الأمر إلي رفض كل جديد دون تدبر له ومعالجته من خلال هذا البناء العظيم المتماسك عقيدة وعبادة وسلوكاً.

---

(١) المزيد من التفاصيل راجع الشيخ محمد محمد المدني، نظرات في فقه الفاروق عمر بن الخطاب، نشاط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ٢٠٠٣م.

وأبـرز مظـاهر هـذه الـروح هـو رد الاتهامـات بمثلهـا مـن الشـتائم وكيـل السـباب للفكـر المضـاد ، وهـو مـا يخـالف روح الإسـلام، إن الـرد الحقيقـي والمتسق مع النهج الإسـلامي الصحيح يكون بالوعي بها وتفنيدها ثم إبراز نظـرة الإسـلام الشـاملة والواعيـة لهـذا الكـون بحياتـه وإنسـانه وكـل متطلباتها ، وذلك يعطي الآخر الذي يعتمد علي العقل أو التحليل العقلي والمنطقي للقضايا صورة مغايرة، إننا يجب أن نتعامل معهم بأسلوبهم، نتعلم لغتهم ونفهم ما يقولونه فهما حقيقيا بتحليله والوقوف علي أساليبه ثم نبدأ في ردشبهاتهم دون أن نظهر روح والعداوة، وإنما نركز علي طرح القضايا بأسلوب علمي متكامل يحلل الظاهر، ويبحث في النقل عن نصوص لمعالجتها ثم إظهار الفهم العقلي لها ، وربما أدى ذلك إلي أمرين:

أولا: رد المسألة ردا علميا محكما يظهر للآخر روح الفكر الإسلامي السمحة الشاملة والمتعمقة.

ثانيا: وهي تنتج من الأولى تغيير صورة الفكر الاسلامي لدي الأوربي الذي عاش دهرا طويلا معمى بأفكار تبثها فيه روح العداوة للإسلام منذ قرون طويلة بتصويره في صور بدائية بدوية غير متحضرة، وأن المسلمين لا يملكون العقل الواعي بل هم فئة تعتقد في بعض النصوص الدينية وتحمل سيفها لفرض هذه الأفكار والمبادئ وترفض من يعارضها وتخيفه وترهبه لحد القتل.

تلك كانت لمحة سريعة عن التحديات الداخلية التي تواجه ثقافتنا الإسلامية بل وتحاول أن تنال من معتقدنا الإسلامي الصحيح الرصين والثابت ذي المصدر الإلهي العظيم وتبقي التحديات الخارجية التي تتمثل فيما يلي:

١-التبشير وأساليبه.

لعل أوفى كتاب في هذا الموضوع هو الكتاب الذي ألفه العالمان الجليلان الدكتور عمر فروخ عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة ودمشق والدكتور مصطفي الخالدي أستاذ فن التوليد في الجامعة الأمريكية في بيروت، وفي هذا الكتاب عرض علمي مفصل ورائع للجهود التبشيرية التي جاءت تطبيقا لتوصيات مؤتمر التبشير الذي عقد في أدنبرة ((باسكوتلنده)) عام ١٩٩٧ والتي تختلف عن عشر مجلدات ثم مؤتمر التبشير الذي عقد في القدس عام ١٩٢٨ واستمر مدة أسبوعين ووضع تقرير في ثمانية مجلدات، نحن نذكر عدد المجلدات في هذين المؤتمرين فقط لنبين حجم الموضوعات التي طرقت والأساليب والوسائل التي وضعت لتنفيذها ناهيك عن المؤتمرات التالية التي عقدت حول هذا الشأن نفسه في كل من انجلترا وفرنسا وغيرها من بلدان أوربا وأمريكا.

وحول الهدف الحقيقي للتبشير يقول المؤلفان: إننا إذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالما ملحداً لا يؤمن بدين، وعالما ماديا لا يعرف للروح معنى إن أمريكا التي تعبد الحديد والذهب والبترول كما يقول أمين الريحاني قد غطت نصف الأرض بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلي حياة روحية وسلام ديني، وبينما نري فرنسا دولة علمانية في بلادها نجدها الدولة التي تحمي رجال الدين في الخارج إن اليسوعيين المطرودين من فرنسا هم خصوم فرنسا في الداخل وأصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها وكذلك إيطالية التي

ناصبت الكنيسة العداء وحجزت البابا في الفاتيكان، كانت تبني سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين [1].

ويستمران في سرد الوقائع والأحداث التي تظهر الوجه الحقيقي للتبشير باعتباره وسيلة أساسية لتحقيق الاستعمار ونهب الثروات وطموحات الأفراد الذين يأتون في صورة مبشرين ويعددون أولا افتراءات المبشرين مثل:

١ - إن المسلمين أعداء الصليب وأعداء الديانة الكاثوليكية.

٢ - الإسلام مقلد وأخذ أكثر نصوصه من النصرانية.

٣ - الإسلام قام بحد السيف وأخضع البلاد التي خضعت له بالتخويف واستخدام السيف في قتل المعارضين له وسفك دمائهم.

٤ - إن محمداً في حقيقته عابد أصنام وإدراكه لله كاريكاتوري، وبعضهم قال عنه ﷺ، كذاب مكة وأنه لم يفهم النصرانية فهما حقيقيا بل فهمها بصورة مشوهة بنى عليها دينه.

٥ - إن المسلمين لم يفهموا الأديان السابقة على الإسلام، واليهودية والنصرانية ولذلك اعتنقوا دينهم الجديد أو بكلامهم هم ألفوا دينهم الجديد.

ونكتفي بهذا القدر متجاوزين عن بقية الاتهامات التي تتجاوز العشرات بل تصل إلى المئات وتوضح مدى جهلهم بهذا الدين وعداوتهم له وما نظن ذلك إلا لأنهم في أنفسهم يدركون الحقيقة الجلية وهي أن هذا الدين صحيح وعظيم ومبادئه إنسانية عالمية وهي التهديد الحقيقي لأفكارهم الدنيوية الساذجة التي يصبغونها بصبغة دينية مع أنهم غير مؤمنين بها كلية.

---

(١) د. عمر فروخ ود. مصطفى خالدي: التبشير والاستعمار ط رابعة بيروت ١٩٧٠ ص ٣٤.

ونصل إلى المنافذ التي انطلق منها المبشرون وهي في الوقت نفسه تمثل الوسائل التي استعانوا بها على تحقيق أهدافهم فيستعرض الفصل الثالث من الكتاب الطب وحيلة التبشير، ويرى المؤلفان أن المبشرين استغلوا آلام البشر في سبيل تحقيق أغراضهم: ولقد أدرك المبشرون هذا الميل في البشر فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الإنسانية وسخروا الطب في سبيل الغايات، حسبك دليلا على نوعها قولهم هم: حيث تجد بشرا تجد آلاما، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير [1]، ويوضح المؤلفان كيف استغل كبار مبشريهم الطبيب وسيلة لتحقيق الأهداف والغايات ويذكرون بالاسم كبار أطبائهم مثل كارنيليوس فانديك وجورج بوست والدكتور طومسون وغيرهم من خالفوا ميثاق الشرف الطبي واستغلوا وظائفهم ومهنتهم السامية الراقية للتبشير والتنصير والتهويد.

ويستغرق الفصل الثالث مسألة استخراج التعليم باعتباره ميدانا فسيحاً للتبشير يقول أحد المبشرين: إن أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الإرساليات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة، إن المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى واسطة لتمرين قسس للكنيسة، حتى إن الموضوعات التي تعلم من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين تحمل معها الآراء النصرانية، وعلى هذا الأساس كتب المبشر هنري هريس جسب إلى المحترم و. ستيوارت دودج في الخامس من كانون الأول عام ١٨٧٠ لنبتهل إلى

(١) المرجع السابق ص ٥٩.

الله في سبيل تعميد نفوس أولئك الشباب الذين يترددون على الكليات ويرى هنري جسب نفسه، إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة على غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية [١].

ويتجلى كل ذلك في المدرسين والكتب المدرسية ثم المدارس التي أنشأوها وبنوا بها كنائس وفرضوا على التلاميذ المسلمين دخول هذه الكنائس وتلقينهم تعاليمها، ثم نقلوا ذلك إلى الكليات والجامعات الخاصة [٢] والمراكز الثقافية البحثية، ثم في المبعوثين من البلدان المسلمة إلى بلادهم للتعليم وهكذا اتخذ التعليم وسيلة للتبشير.

ويتناول الفصل الخامس (السياسة طريق التبشير) وفيه يستعرض المؤلفان التاريخ السياسي للتبشير بدءا من الحروب الصليبية وحتى النظام السياسي الحالي وكيف كانت السفارات وسلكها الدبلوماسي يمثل حماية لهؤلاء المبشرين، ثم منح الجنسيات الأوروبية هدية لمن يترك دينه ويتنصر ودور اليسوعيين وانتهاجهم سياسة الجزويت نتيجة فشلهم في تحقيق مسعاهم بالصورة التي يشدونها ويشهدان بما حدث في الجزائر، ثم تلا ذلك إثارتهم للحروب بين البلدان المسلمة لإيجاد وسيلة للتدخل ثم الحصار الذي فرضوه على هذه البلدان بإبعادهم عن الشواطئ والسواحل حتى تنقطع الاتصالات بينهم، ثم منح الامتيازات الأجنبية في أراضي المسلمين لمن ليس له

---

(١) المرجع السابق، ٦٦.

(٢) يذكر المؤلفان اسمان مثل الجامعة الأمريكية في بيروت، والكلية الثانوية وسائر المدارس الأمريكية وكلية غوردن في الخرطوم ((إنجليزية)) ثم المؤسسات التعليمية الفرنسية.

حق فيها، وتقسيم هذه البلدان بعد نجاح الفتنة كما حدث في ١٨٦٠ وهي الفتنة المشهورة بفتنة الدروز التي أدت إلى تقسيم لبنان طائفيا.

ويصل المؤلفان إلى قضية سياسية خطيرة أخذت شكل جميلا في البداية لكنها في حقيقتها كانت خطيرة وهي القومية، فقد سعوا إلى إشارة النعرات القومية، بداية في عهد الدولة العثمانية بزعم التحرير منها، وأحيانا جعلوها وطنية أي خاصة بالوطن الضيق لأنهم رأوا في القومية أيضا نزعة جماعية يمكن أن، تؤثر على مسلكهم وهدفهم.

ثم يتضح التواطؤ بين هذه الحركات والإرساليات التبشيرية من جانب والصهيونية من الجانب الثاني، وتوحدا في هدفهما ضد الإسلام والمسلمين، وراح أعضاء الإرساليات يتجسسون لصالح الصهيونية، ويساعدونهم في التخطيط لتحقيق مسعاهم بإقامة دولة اليهود على أرض عربية مسلمة هي فلسطين وكان نجاحهم في ذلك عام ١٩٤٨ نتيجة لتوحد جهودهم مع جهود المبشرين.

ثم يتعرض الفصل التاسع (للأعمال الاجتماعية) باعتبارها طريقا للتبشير، ويتمثل ذلك في صورتين:

الأولى: المساعدات الخيرية التي يجمعونها من أثرياء أوربا المتعصبين للفكر المسيحي باعتبار أنهم يسهمون في نشر تعاليم المسيح وبسط سلطانه على الأرض والتالي يتمثل في الجمعيات الخيرية مثل المبرات التي أقاموها في كثير من البلدان الإسلامية وكانت جامعة للعناصر السابقة مثل الطب والتعليم والسياسة، بالإضافة إلى تقديم المساعدات الخيرية للفقراء وعن طريق ذلك تبث سمومها في نفوس هؤلاء الضعفاء وانتشرت كذلك جمعيات الشبان المسيحية والشابات المسيحيان، وأخيراً يتمثل ذلك العون المادي

والاجتماعي في الأندية الاجتماعية والأبنية الفخمة التي تقام من أجلها والمجانية التي يقدمونها في مدارسهم الخاضعة للإرساليات التبشيرية وكذلك المكتبات الضخمة التي أقاموها والمطابع ودور النشر والصحافة وكل هذه الوسائل التي يستطيعون عن طريقها نشر أفكارهم.

وأخيراً (تشجيع المحليات) باعتبارها وسيلة لبث الفرقة بين البلدان الإسلامية بما يقبع ذلك من إزكاء روح المحلية عن طريق تشجيع اللهجات العامية تدعيما لهذه الروح الانفصالية، وتمثل ذلك جليا في شمال إفريقية في بلاد المغرب العرب خاصة حيث دعموا توجههم الاستقلال أو الانفصالي وإن لم ينجحوا نتيجة تغلغل الروح الإسلامية فيهم لكنها دعوة لها خطرها على المدى البعيد، وراحوا يزكون روح التنافس والصراع بادعاء أن هذه اللهجة هي الأقرب إلى العربية الفصحى الجامعة لهؤلاء تحت رايتها، ومن ثم يمكنهم بعد ذلك تدعيم حركة الانفصال القائمة فعلا بين هذه البلدان نتيجة جهودهم المستمرة عبر قرون طويلة.

وكان الهدف الحقيقي من ذلك هو تدمير اللغة العربية الفصحى ليس لأنها لغة قومية جامعة للعرب تحت رايتها، ولكن في الأساس لأنها لغة القرآن الكريم، فإذا ضعفت هذه اللغة بعد الناس عن قرآنهم وسنة نبيهم ﷺ فما دام القرآن قد نزل بلسان عربي مبين فلابد من تدمير هذا اللسان العربي، ومن ثم تنقطع الصلة بين أتباعه وبينه فيبحثون لأنفسهم عن منهج يكون أقرب إلى أفهامهم وعقولهم، وهكذا يتم تدمير الثقافة الإسلامية العربية في النفوس، والغريب أنهم يدعون أن (الدكتور أنيس فريحة) أستاذ اللغات السامية بالجامعة الأمريكية بتبني هذه الوجهة مما يوحي بشبهة

التواطؤ بينه وبين فكر المبشرين وفي مقال له بعنوان نحو عربية ميسرة أخذ يقارن بين التوراة في لغتها الإنجليزية ويصفها بأنها تحفة فنية رائعة بل وأدب شكسبير في إنجليزيته القديمة والإنجيل والتوراة في اليونانية واللاتينية وحتى الحبشية والسريالية وعند القرآن قال إن نشر اللهجات المحلية لا يؤثر عليه لأنه لا يوجد فرق شاسع ((بتعبيره هو)) بين لغته والعاميات المحلية ومن السهل فهمه عن طريق هذه اللغات وذلك لأن لغته لا تبعد كثيرا عنها[1].

وهكذا يتضح الهدف الخبيث والحقد الكامن في النفوس، وخاصة في نفسية هذا الرجل الذي فضح نفسه؛ لأنه من غير المعقول أن يكون أستاذ اللغات السامية ولا يدرك إعجاز القرآن لغة ودلالة وبلاغة وتمايزا عن اللغة العربية الفصيحة المنتشرة والسائدة بين أهلها فما بالنا باللهجات العامية المحلية؟!

٢-الاستشراق وخطره:

يتمثل المظهر الخارجي الثاني للتحديات الخارجية في جهود المستشرقين التي كان ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، فللحق إنهم بذلوا جهودا جبارة في سبيل تحقيق التراث الإسلامي والعربي الذي انتقل إلى مكتبات أوربا في عصور الظلام العربية والإسلامية وزخرت به مكتباتهم في اسطنبول وليدز وليبزج والأسكوريال وغيرها من المكتبات الأوربية التي تمتلئ بالمخطوطات الإسلامية والعربية، وكان من الطبيعي أن يحققوا هذا ا لتراث أولا لكي ينقلوه صحيحاً إلى لغاتهم ليفيدوا منه بعد ذلك في نهضتهم وكان فاتحة خير عليهم.

إن من ينظر إلى منهج التأويل الذي يسود الفكر الأوربي بصفة عامة في مجال العلوم الإنسانية وفي مجال الدرس الأدبي بخاصة يدرك مدى الأثر

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣١.

الذي أحدثته الثقافة الإسلامية في هؤلاء، وكان مؤثرا لهم على عظمة هذا التراث الإنساني العظيم الذي هو نتاج هذا الدين وفي الوقت نفسه على خطر هذه الثقافة عليهم، فقد فتحت لهم آفاقا من المعرفة لم يكونوا يحلمون بها، وقادتهم إلى الثورة على كهنوت الكنيسة والتحرر من قيودها.

ولكن هذا الأمر لم يمر بسلام وشكران بل ترك في النفوس أثراً من بعض الحقد الكامن في نفوسهم خاصة أولئك الذين غلب عليهم التعصب الديني، وكيف يمر وهو يهدم الثوابت العقائدية التي ترسخت في أذهانهم وسلوكهم عبر أجيال وعصور ودهور؟ ومن ثم كانت لابد لهذه الآثار أن تظهر في جهودهم مرة بالهمز ومرة أخرى باللمز وثالثة بالتصريح ولا أدل على ذلك من العبارة التي ذكرها (الدكتور عبد الحليم النجار) في مقدمته لكتاب مذاهب التفسير الإسلامي للمستشرق الألماني جولد تسيهر الذي نقله إلى العربية يقول عن الكتاب وقيمته: " ولا يحط من قيمة الكتاب اشتماله على قليل من النزعات الدينية التي نبهنا إلى أهمها، وهي نزعات لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين، لاسيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب، عليها عليهم هوى متبع أو قصد جائر، ولو اعتمدنا ذلك سبباً في إطراح هذه الكتب وإهمالها لفاتنا خير كثير[1]"

وقد وضع عبد الحليم النجار يده بذكاء على سلبيات وإيجابيات المستشرقين وإن كان رأيه يميل إلى التجاوز عن هناتهم في مقابل حسناتهم وإيجابياتهم، وربما كان هذا ناتج قراءته لجولد تسيهر الذي كانت هناته

(١) جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، د. عبد الحليم النجار، ط ٣، بيروت ١٩٨٥.

قليلة بالمقارنة إلى إيجابيات الكتاب، ولكنه لا يمنع من وجود نماذج أخرى يتضح فيها تربصهم الناتج من هذه النزعات التي أشار إليها النجار مثل لويس (ماسينيون) الذي يذكر (الدكتور عمر فروخ) له وقوله في كتابه: "التبشير والاستعمار" تدل على مدى ما كان يحمله للإسلام والمسلمين من تربص يقول: "يتمنى ما سينيون في إحدى مقالاته أن يعود الاعتقاد الإسلامي في رجوع عيسى بن مريم فيتفق مع الحادث الثاني للمسيح النصراني الذي يعمل المهدي العربي على انتصاره، ويقصد ماسينيون بكلمة ثانية أوضح أن يعود المسلمون عن قولهم: عيسى بن مريم إلى القول: عيسى ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وفحوى مقال ما سينيون كله أنه ما دام لدى المسلمين أخبار برجوع المسيح عيسى بن مريم، فلماذا لا يكون هذا المسيح الراجع هو المسيح الذي يعتقد به النصارى اليوم؟

ولقد ردد ماسينيون هذه الفكرة المأخوذة عن غيره والمدخولة في نفسها وجعلها عمدة عبقريته في الدعوة إلى أن يُحمل المسلمون على ترك دينهم حتى يسهل استعمارهم على أهل الغرب، أقول هذا وأنا أتألم إذا أقوله عن رجل عرفته أستاذاً إلى أستمع منه ولكن الحق أكبر من ما سينيون [١]".

وما بين رؤية الدكتور النجار والدكتور عمر فروخ تجري محاولات المستشرقين وأهدافهم فيما بين مخلص للعلم منهم وإن كان لا يستطيع التغلب على بعض نزعاته الدينية وهواه وبين متعصب يبحث في نقاط يتصورها ثغرات ينفذ منها ليهدم الثقافة الإسلامية، بل والدين كله

---

(١) الدكتور: عمر فروخ والدكتور: مصطفى خالدي التبشير والاستعمار ص ٨٣.

بتشكيك المسلمين في معتقداتهم، ولعل أبرز أثر للويس ما سينيون يتجلى في فكر طه حسين وتلاميذه الذين أغراهم بأستاذيته ومنهجه البحثي فتابعوه فيما قال دون أي تدبر أو حمية عربية إسلامية.

ويصنف الدكتور محمد رأفت سعيد في كتابه "الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة" المستشرقين إلى طوائف:

١ - طائفة مهتدية درست علوم الإسلام دراسة دقيقة مستوعبة وفتحت قلبها وشرح الله صدرها للإسلام فأسلمت، وكان من إنتاجها كتابات قيمة استفادت من القراءات الإسلامية ومن أمثال هؤلاء: محمد أسد ومن كتاباته التي أفاد منها كثير من العلماء المعاصرين ((الإسلام في مفترق الطرق)) وكتاب: ((الطريق إلى مكة))، وكتاب ((منهاج الحكمة في الإسلام))، ومن هؤلاء المهتدية مريم جميلة التي أحسنت في كتاباتها عن الإسلام ومنها كتاب ((الإسلام بين النظرية والتطبيق)).

٢ - طائفة منصفة، اكتفت بالوصف الموضوعي لحقائق الإسلام، وما وجدته من المؤلفات فيه، فلم تغير ولم تحرف، ولكنها لم تفتح قلبها لما درست فتنتفع به.

٣ - طائفة مغرضة وهي التي ظلت في فلك التنصير والاستعمار، وعرفت الحق ولكن حرفته وشوهته، وهذه هي الطائفة الخبيثة التي تمثل التحدي الذي تنبثق منه صور أخرى من التحديات التي أثارتها [1].

---

(١) د. محمد رافت سعيد: الإسلام في مواجهة التحديات، ط. أولى المنصورة، مصر ١٩٨٧، ص ٥٢، ٦٣.

وهكذا يتعامل الرجل بصورة علمية مع الظاهر ويصفها وصفاً موضوعيا ليبين الحق، وفي الوقت نفسه يوضح التحديات التي تواجهها الثقافة الإسلامية.

شبهات المستشرقين حول الإسلام والرد عليها:

كان من نتاج دراسات المستشرقين مجموعة من الشبهات التي راحوا يرددونها في كتبهم إما صراحة أو ضمنا في ثنايا الكلام ولنتناولها بصورة مبسطة ومرتبة:

أولا: الطعن في القرآن:

يتمثل أول تحد أثاره **المستشرقون في دراساتهم** وأولى شبهاتهم حول القرآن وكثير منهم راح **في ثنايا كتبه** أو أبحاثه **يطعن** في القرآن الكريم وصدق نزوله وحيا من الله، **وقال بعضهم إنه مجرد أقاويل** جمعها محمد ﷺ من نصوص التوراة والإنجيل، وحاول بعضهم مثل جولد تسيهر أن يقول إنه نصوص من ملة إبراهيم الحنيفية ولم يزد عليها، وما أشبه الليلة بالبارحة فقد قال أقرانهم القدماء من اليهود والنصارى مثل هذا الكلام، وقد رد الله عليهم بما يستحقون من استخفاف وامتهان لعقولهم حين قال في سورة النحل: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ [النحل: ١٠٣]، وهو قمة السخرية من عقولهم التي لم تستطع التمييز بين الأعجمي والعربي فكيف سيتعلم محمد ﷺ الأعجمية وهو لم يكن يقرأ أو يكتب كما يعلمون، ثم كيف سيتمكن من هذه اللغة ومن اللغة العربية حتى يستطيع نقل هذا الذي تعلمه بالأعجمية إلى اللسان العربي بصورة متقنة ليكون مبيناً؟!.

والأمر نفسه مشابه لما يثيره هؤلاء المستشرقون وقد درسوا وعلموا أن نصوص التوراة الأصلية ضائعة والموجود محرف وأغلبه حكايات وروايات، وإن حاخامات اليهود يعلمون هذا جيداً وإلا ما سعوا قديما وما زالوا يسعون للسيطرة على القدس ويحاولون هدم جدران المسجد الأقصى بدعوى إعادة بناء هيكل سليمان وهم في الحقيقة يتمنون أن يعثروا على التابوت المحفوظة فيه ألواح التوراة الأصلية التي تلقاها موسى عليه السلام من ربه حين اختار لميقاته أربعين ليلة وذلك ليكون لهم سند ودعم حقيقي، ومعنى هذا أنهم لا يرون في التوراة التي بين أيديهم مصدراً حقيقياً حتى وإن كانوا يتعصبون له في الظاهر حتى لا يفقدوا مصداقيتهم.

إن المستشرقين يعلمون هذا ويعلمون أيضاً أن الإنجيل الصحيح غير موجود بدليل تعدد روايات الإنجيل أو تعدد الأناجيل بتعدد روايات الحواريين.

فمن أي منها أخذ محمد ﷺ وكون قرآنه، والغريب أنهم يدعون ويزعمون أنهم يملكون ناحية المنهج العلمي، إذ كيف يكون ذلك ويكون ادعاؤهم الكاذب حول القرآن الكريم.

ثم يستندون إلى الروايات الضعيفة والنسخ المكذوب التي ظهرت للمصحف نتيجة الفتنة الكبرى التي حدثت بين المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان واستغلها قدماؤهم أسوأ استغلال فبثوا في روع الناس نصوصاً محرفة نتيجة لتعدد الروايات حول جمع الصحابة كل منهم على حدة لنسخة من المصحف وقد أثبت السجستاني ذلك في كتابه المعروف: "كتاب المصاحف" والذي صححه ووقف على طبعه المستشرق آرثر جفري وذكر ذلك الجمع للصحابة مع أنه أثبت في النهاية اتفاق الصحابة مع عثمان على الاتفاق على

مصحف واحد حتى إن عبد الله بن مسعود الذي أبى في البداية هذا الأمر إلا أنه أذعن له في النهاية واتفق مع بقية الصحابة على هذا الأمر وصار للمسلمين مصحف واحد، وحدث الأمر نفسه مع التابعين وإن كانوا في نهاية الأمر قد أجمعوا على مصحف عثمان [1].

نقول ربما أغراهم ذلك بالطعن على القرآن واتهام ذي النورين عثمان بن عفان بالدكتاتورية وعدم العلمية وذلك لأنه جمع الناس على مصحف واحد وأحرق ما دونه من المصاحف ، ولكنهم لم يدركوا أن الله وعد بحفظ كتابه في الصدور قبل المصحف، ولو أن شيئا في مصحف عثمان يخالف ما يحفظه الحفاظ لثاروا عليه ورفضوا الإجماع الذي كان ينشده.

هذا باختصار شديد الرد الموجز على افترائهم ولو فتحنا الباب في هذا الموضوع لما كفته كتب وليس صفحات قليلة أو كثيرة.

ثانيا: الطعن على رسول الله ﷺ:

ولتكمل الدائرة بالطعن في الدين راحوا يشوهون صورة رسول الله ﷺ ، وذلك أن هدم شخصيته يتبعه بالضرورة هدم الدين كله، فهو واسطة الرسالة بين الله وبين البشر، وما دام محط طعن فإن ما جاء به يكون غير صحيح، هذا من وجهة نظرهم المسمومة، وأبرز من طعن منهم على رسول الله ﷺ المستشرق مارجليوث الأسباني الذي كان أستاذ لطه حسين وبث فيه كثيرا من سمومه التي انصاع لها العميد وضمنها كتابه ((في الشعر

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب المصاحف للحافظ ابي بكر السجستاني بتصحيح وطبع ارثر جفري، ط أولى ١٩٣٦، المطبعة الرحمانية بمصر.

الجاهلي)) في صورته الأولى التي لاقت هجوما شديدا سرعان ما انصاع له ونقحه في كتابه ((في الأدب لجاهلي)) يزعم مارجليوث أن محمدا كان يمارس الشعوذة وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية [(١)]، ولا ندرس من أين أتى بهذا فلم نر مصدراً من المصادر القديمة حتى الحاقدة منها تتضمن أية إشارة إلى هذا، ويدعمه لامانس اليسوعي الذي ينسب إلى الرسول ﷺ الإكثار من الطعام والشراب والشره، وهنا يتصاعد العجب من هؤلاء، فكل كتب السيرة وكتب الأحاديث تؤكد أن النبي ﷺ كان عزوفا عن الطعام وكما تقول أم المؤمنين عائشة: ((كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً إنما هو التمر والماء إلا أن يؤتى باللحيم)) [(٢)].

وأبلغ من ذلك الموقف الذي صوره القرآن الكريم في سورة الأحزاب بآيات تخير نساء النبي ﷺ بين متاع الدنيا والآخرة يقول تعالي : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، وقد أثبتت كتب التفسير وأسباب النزول أن هذه الآيات نزلت حين أشتد الأمر علي زوجات النبي ﷺ وأبدين بعض التبرم بحياة التقشف اللائي يعشنها فخيرهم الله بين متاع الدنيا وبين رسول الله ﷺ والآخرة فاخترن رسول الله ﷺ.

ومن بين ما أثاروه من شبهات حول رسول الله ﷺ قضية تعدد زوجاته وإلصاق تهمة الشراهة الجنسية بهذا الرسول العظيم والنبي الكريم، ولم يفهموا

---

(١) محمد رافت سعيد: الإسلام في مواجهة التحديات ص ٥٥.

(٢) اخرجه البخاري في الأدب ومسلم والترمذي.

ويستوعبوا حكمة تعدد زوجاته التي كانت إما لأغراض دعوته مثل زواجه من جويرية بنت الحارث أو تنفيذ الأمر الله كما في زينب بنت جحش حتى إن بعض زوجاته فهمن الهدف من اقترانه بهن فكن يتركن أيامهن مثلا لعائشة أو زينب أو حفصه، والمتأمل البصير حين يعرف أحوال زواجه من كل واحدة سيدرك علي الفور أنه لم يكن ناتجا عن رغبة أو شراهة أو هوي في نفسه بل بأمر من السماء وتأليف لقلوب أصحابه من حوله أو مواساة لامرأة فقدت عائلها أو لتدعيم أوامر النسب حتى يؤلف قلوبه نفر من الناس حول الإسلام .

فواحدة بنت أبي بكر وثانية بنت عمرو وأخري كانت متزوجة من مولاه، هذه القصة وحدها كفيلة بالرد علي كل الشبهات، فقد كانت لزينب بنت جحش وهي بنت عمته مكانة في نفسه، وآثر علي نفسه ابنه بالتبني ومولاه زيد بن حارثة حتي انفصلا ومع هذا تورع عن إظهار ما في نفسه حتى أمره الله في قرآن يتلى علي الناس يقول تعالي : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب :٣٧].

إنهم يعلمون حقيقة الأمر من خلال ما اطلعوا عليه من تراث الإسلام إن كانوا قد قرأوه حقا ولكنهم يبحثون عن المواضع التي لم يفهموها علي حقيقتها للأسف والتي حاولوا من خلالها تشويه صورة النبي ﷺ بل وأصحابه من بعده .

٣-شبهات حول التشريع الإسلامي

واستمرارا لهذا النهج واتباعا لما سبق راح نفر منهم يطعن في التشريعات الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ ويزعم أن هذه التشريعات مأخوذة من القانون الروماني بل وبالغ بعضهم بأنها من قانون بابل القديمة والهند والصين وفارس، وقد ألف نفر منهم غير قليل كتبا وبحوثا حول الشريعة الإسلامية والتشريع الذي جاءت به شاملا جميع نواحي الحياة، ولكن بعضهم كفانا مؤونة الرد عليهم ومن يريد تفاصيل إلي البحث الذي كتبه شاخت الألماني وكتابه "تراث الإسلام" والذي فند فيه بعض أقوال أقرانه من المستشرقين وأثبت فيه إسلامية القانون الإسلامي والشريعة الإسلامية، وإشارة مترجم كتاب ن.ج. كولسون في تاريخ التشريع الإسلامي، إلى هذا وإشادته به حيث يقول: ((وقد وجه يوسف شاخت اللوم إلى كولسون لهذا والفرق بين والفرق بين الرجلين أن شاخت يدرس التشريع الإسلامي من وجهه نظر تاريخية بحته وعنده أن هذا التشريع إنما يستحق الدراسة لأنه كان تشريعا عظيما في فترة تاريخية مضت ولن تعود [1].

ومن بين القضايا التي تحدثوا فيها تشويه التشريع الإسلامي موضوع تعدد الزوجات الذي أباحه الشرع الإسلامي ويعدونه نقيصة في حق المرأة وسنعالج هذا الموضوع في الفصل القادم الخاص بالموضوع نفسه .

---

(١) ن. ج. كولسون، في تاريخ التشريع الإسلامي ترجمة وتعليق د. محمد احمد سراج، ط. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر القاهرة ١٩٩٢، وكذلك كتاب تراث الإسلام ضمن سلسلة عالم المعرفة القسم الثاني ص ٩٥ وما بعدها.

٤-تشويه اللغة العربية:

ومن أساليب التشويه والشبهات التي أثاروها الطعن على اللغة العربية واتهامها بالجمود تارة والازدواجية تارة أخرى، وذلك باعتبارها لغة القرآن الكريم، وتشويهها ينتج عنه تشويه للقرآن وسنة النبي -عليه الصلاة والسلام - ونضرب أمثلة لذلك بكتاب العربية للمستشرق يوهان فك والذي ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب إلى العربية وهو يربط في مقدمته ربطا جميلا بين العربية والقرآن ويوضح أن القرآن نزل معربا وأن هذا سر عربيته، ولكنه حين يأخذ في استعراض التطور التاريخي للغة عبر العصور المختلفة من ظهور الإسلام حتى تاريخ تأليف كتابه يوضح دور الازدواج الغوي في ضعف التعامل بلغة القرآن ونفور الناس منها وإقبالهم على لهجاتهم المحلية مما أدى إلى تشويه الأفهام، وبعد الناس عن القرآن الكريم نتيجة تعثر فهمهم له.

ويتطرق إلى لغة الحديث النبوي الشريف ويوضح لماذا لم يكن مصدرا للاستشهاد عند اللغويين نتيجة تعدد رواياته أو أحيانا ضعف رواياته، وهو لا يعلم أن لغة الحديث مستمدة بلاغتها ومصداقيتها من لغة القرآن الكريم باعتبار أن النبي ﷺ أمي لم يكن يقرأ أو يكتب قبل نزول القرآن الذي علمه وتجلى هذا التعليم واضحا في أحاديثه ﷺ.

ثم تجلى تشويههم للغة العربية في إزكاء روح الفتنة بالإشارة باللهجات المحلية وأنها أقدر على التعبير عما في نفس قائلها خاصة الأدب، وأن اللغة الفصحى متجمدة عند عصور بعينها ولا يوجد فيها تطوير، وإنما تمثل

التطوير في هذه العاميات المتعددة التي صارت أقدر على التعبير عن روح العصر سواء في التعبير العادي أو في الأدب.

ثم تلك الدعوى بأن العربية الفصحى غير قادرة على مواكبة التطور العلمي وأنها لا تستطيع استيعاب المفردات الحديثة المنبثقة من العلوم أو الناتجة عن التطور الرهيب في العلم ونظرياته ومستحدثاته، وكل ذلك في النهاية يصب في فكرة تجميد القرآن الكريم عند عصور بينها ولم يعد صالحا لمواكبة العصر التكنولوجي الذي نعيشه وهو هدم للثقافة الإسلامية فما دام المصدر الرباني لها قد تجمد عند عصر بعينه فلا فائدة ترجى من ورائها وقد انبرى علماء كثيرون ولاسيما مجمع اللغة العربية بالقاهرة أو أعضاؤه منذ نشأته للتصدي لهذه الدعاوى وتفنيدها ومن يريد مزيدا من التفاصيل فليرجع إلى مجلة اللغة العربية بالقاهرة لينظر كم البحوث التي أنشأت في هذا المجال، والتي تضمنت تفنيدا علميا لهذه المزاعم وبيان مدى تطور اللغة العربية ومرونتها وقدرتها على كل ما زعموه من عجز فيها فهي أقدر على التعبير العلمي، وتجلي الرد عمليا أيضا في مجموعات المصطلحات التي يترجمها المجمع في كل مكان، وليس مجمع اللغة العربية بالقاهرة وحده في الميدان بل هناك جهود مجمع اللغة العربية بدمشق والمجمع العلمي العربي في العراق ببغداد وغيرها من المجامع التي أنشئت حديثا في الأردن والسودان والمملكة العربية السعودية.

وسائل المستشرقين في تحقيق أهدافهم:

أولا: في سبيل المضي على الدعوة ورسولها الكريم استخدموا الوسائل التالية:

أ - استعمال الروايات الموضوعة.

ب - الاعتماد على المصادر غير الأصيلة.

ج - التأويل الفاسد للمواقف والنصوص.

د - معرفة الحقائق وعرضها معكوسة.

وأبرز مثال على ذلك ما رأيناه في كتاب مذاهب التفسير الإسلامي حيث استخدم كل هذه الوسائل مع ما في الكتاب من قيمة بحثية وقد ظهر هذا في معالجته لموضوع تفسير ابن عباس واستغل كثرة المرويات الموضوعة عنه للتشكيك في تفسيره للقرآن الكريم بالإضافة إلى كثرة إيراده للروايات التي تفيد أخذ ابن عباس من الكتابيين والتوراتيين وأنه كان دائم الرجوع إلى كعب الأحبار، ولو تأملنا المصادر التي نقل عنها من داخل كتابه نفسه مثل الطبري وفيه روايات كثيرة غير موثقة بالطرق المعروفة عند علماء الحديث في توثيق الروايات وكذلك في طبقات ابن سعد وهو كتاب تاريخ غير موثق الروايات أيضا مما يوحى بالهدف الكامن في داخله تجاه تفسير هذا الصحابي الجليل.

ولننظر إلى العبارات التي يطرحها في الحديث عنه مثل: ((إذا فإلى هذا العالم المحيط بتفسير القرآن يقصد معاصروه المتطلعون إلى المعرفة بكل ما يحبك في صدورهم من شكوك وأنا أحكي هذا طبعا على أساس الأخبار الإسلامية، واختلافهم إلى هذا المفسر القديم لم يعرض دائما في أسلوب مدرسي جاف، بل أحيانا في مظهر مسرحي زاخرا بالحياة فقد روى مثلا أن

مستمعيه غمرتهم نشوة من السرور إذ فسر الآية ٢٣ من سورة النور حتى وثب بعضهم فقبل رأس الإمام الحكيم [١].

وبعد ذلك بأسطر قليلة يقول في مسألة أخرى: وطبيعي أن ابن عباس لابد أن يجد حلا فهو يعلم كل شيء [٢]، وبعد ذلك بقليل يقول: وفي كل مشكلات التفسير يبين وابن عباس كأنه نبئ بأخبار الغريب وأحيانا كأنه مظهر إلهي [٣]، وبالرغم من أن النجار اكتفى في تعليقه على ذلك بقوله لا يتفق هذا مع عقيدة المسلمين في ابن عباس ولا غيره، إلا أن الحقيقة أن معبر تعبيرا حقيقيا عن الهدف الأساسي وهو الطعن في هذا الصحابي الجليل وفي تفسيره من منطلق الرغبة في الهدم مع أن الظاهر هو النقص العلمي للموضوع، ويكفي لبيان نية التربص أن ننظر في مصدر من مصادره لنعرف كيف كان يتلمس الأخبار من المواضع التي يريد أن يأخذ منها مثل كتاب بغداد لابن طيفور.

ثانيا: على المستوى الاجتماعي يتخذون من واقع المسلمين المتخلف وسيلة للطعن على الإسلام فهم يصورون واقع المجتمعات المسلمة تصويرا يبرزها في حالة نم المهانة والتخلف حتى يشمئز العالم الآخر من هذه المجتمعات وفي الوقت نفسه يرجعون هذا التخلف إلى الإسلام الذي ينتمي إليه هؤلاء المسلمون فيكون الطعن في مثل هذه الصورة طعنا غير مباشر حيث يقولون للمشاهد وللقارئ لو كان الإسلام صالحا لأصلح من هؤلاء، وحاولوا ترسيخ هذا المعنى

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٩١، ٩٢.

(٢) المرجع السابق ص ٩٢.

(٣) المرجع السابق ص ٩٣.

في الأذهان بتصوير السلبيات في المجتمعات المسلمة وحجب أي مظهر إيجابي يشعر بصلاحية هؤلاء أو استعدادهم الحضاري على الأقل[1].

وفي سبيل ذلك وامتدادا له راحوا يروجون فكرة فصل الدين عن الحياة بحجة أنه أي الدين غير قادر على مواجهة العصر أو مواكبته، ويستشهدون بما حدث في أوربا من تقدم وأن ذلك لم يحدث إلا بعد أن انفصلت الحياة المدنية عن الكنيسة وعن الدين وهو استشهاد في غير محله؛ لأن أوربا كانت محكومة بسلطة كهنوتية لاهوتية وليس بروح الديانة المسيحية السمحة الصحيحة التي هي جزء من رسالات الله إلى الإنسانية أما في الإسلام فإن الأمر محكوم بمنهج الله الصالح والقادر على توجيه دفة الحياة توجيها سماويا خالصا مبرءا من الأهواء والنزوات.

ونسى هؤلاء دائما أن حال المجتمعات لا تعبر عن صحة دينها وقوامته فحتى حينما كانت أوربا تخضع لسطوة الكنيسة فإن ذلك لم يطعن في مصداقية الديانة النصرانية نفسها وإنما كان الطعن والتمرد على القوانين والقواعد الكنيسية التي حرفت الدين لصالح أشخاص بعيهم صاغوا القواعد المنحرفة لبسط نفوذهم على الناس، ومن ثم فإن واقع المجتمعات الإسلامية لا تعد دليلا مع أو ضد الإسلام إلا إذا اتخذته منهج حياة بكل كلياته وآفاته الواسعة المتوائمة دائما مع واقع الناس والصالحة لإرشادهم إن هم أرادوا الإرشاد والهداية فيه.

وإذا ادعوا أن الواقع الجديد هو العلمانية فإنما يعني هذا الإسلام بعينه ولعل الذي خدعهم في ذلك هو سوء فهم كثير من الشيوخ وعلماء الدين

---

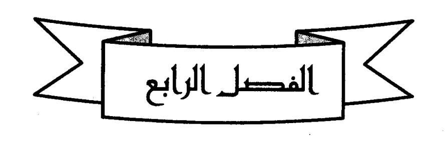
(١) د. محمد رافت سعيد: الإسلام في مواجهة التحديات ص ٦٩.

وفقهائه الذين مازالوا يرددون المصطلح في مقابل الدين أو الفكر الديني لا أدري بغفلة وجهالة أم بعلم ودعم للتوجه الاستعماري؛ لأن المسلم الواعي والفقيه الحصيف لا يرى تناقصا أو تضاربا بين الاثنين، وليس ذلك الكلام الذي نقلوه جريا وراء عادة كثير من الباحثين بالتعليق بأي شيء جديد وإلصاق الدين به، أبدا فنحن نعتقد اعتقادا يقينيا بأن ديننا الإسلامي العظيم هو أكبر من كل ذلك ونحن معه أقوى من أية أفكار بشرية إنما حقيقة الأمر إنه إذا كان العلمانية من العلم فهو القرآن والدين بعينه ويكفي دليلا على ذلك كثرة ما ورد في القرآن الكريم من آيات تذكر العلم أو تحث عليه بل إن أول ما بدئ به نزول القرآن كان قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ◆ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ◆ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ◆ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ◆ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]، وفي هذه الآيات دعوة واضحة إلى أن العلم وإلى أن هذا الدين هو دين العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وإذا كانت العلمانية منسوبة إلى العالم والعالمية فهي سمة الدين الأساسية يقول تعالى لنبيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومرة ثانية يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، يقول في فاتحة الكتاب: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

ولكن ماذا نقول وقد بث المستشرقون سمومهم في فكر علمائنا بالإيحاء إليهم بأن هذه العلمانية المزعومة هي بديل الدين ونقيضه ليجعلوا علماءنا يهدمون دينهم بأيديهم دون تدبر أو حرص.

ومن ناحية ثانية وفي إطار المستوى الاجتماعي نفسه راحوا يروجون فكرة المساواة بين الرجل والمرأة، وأن الدين الإسلامي ينقص من حقوق المرأة لحساب الرجل باعتباره دين يزكي فكرة الذكورة، وإن كنا سنتناول ذلك بالتفصيل في الموضوع القادم المخصص للحديث عن المرأة في الإسلام غلا أن ذلك لا يمنع من عرض هذه الوسيلة الذكية والخبيثة في آن واحد للطعن في الدين وتشويه صورته، وإلصاق تهمة الظلم وعدم العدالة، ومن ثم لا يصح أن يكون دينا منزلا من عند الله العادل، وبنفس منطقهم نرد عليهم بأنهم إذا كانوا يدركون حقا أن الدين الحقيقي هو دين الله العادل فلماذا حرفوا دينهم المسيحي أو اليهودي ليوافق أهواءهم البشرية؟ ولماذا فضلوا المذاهب والنظريات البشرية على مبادئ الأديان السماوية السمحة؟ وهل هم أدرى بعباد الله من خالقهم، إنهم يريدون نقل صورة مجتمعاتهم الغربية المليئة بالانحرافات والموبقات إلى المجتمعات المسلمة فيفسدون عليها دينها وعلاقتها بربها، وإذا كانت نصوص القرآن الكريم وآياته تكرم المرأة وترفع من منزلتها فلماذا يفسدونها على غير معناها ليصلوا إلى مبتغاهم، إنهم يريدون للمرأة المسلمة أن تتخلى عن عفافها وأن تمتهن كرامة نفسها تحت دعوة الحرية والمساواة فتخرج سافرة إلى العمل والشارع وتمارس رغباتها دون التورع من حساب أو عقاب أو مراعاة لخشية خالقها الذي يعرف صالحها.

وهكذا يستخدم المستشرقون كل وسيلة من شأنها هدم أسس الدين الإسلامي ومصادره الأصيلة وبالتالي ثقافية نتيجة وعي كبير منهم بأن هذا الدين حق وثقافته هي الأعظم لتكامل جانبيها المادي والروحي، وهي بهذه الصفة تمثل التهديد الحقيقي لثقافتهم بل ولمعتقداتهم ودينهم.



المرأة في الإسلام

ويشمل

وضع المرأة الاجتماعي قبل الإسلام

تكريم الإسلام للمرأة وصور ذلك التكريم

أهمية الزواج – حسن اختيار الزوجة

حسن اختيار الزوج – الرضا والكفاءة




المرأة في الإسلام

تقديم:

لعل هذا الموضوع من أهم الموضوعات المثارة حاليا في حوار الحضارات، وكان في بداية النهضة ومع اهتمام الغرب بدراسة تراث الإسلام عن طريق المستشرقين والمستغربين على السواء، من الموضوعات التي يحاول المستشرقون والدارسون لتراثنا الهمز واللمز حوله، بعدما أعطوا المرأة في بلادهم حق التحلل من كل قيم أخلاقية ودينية تعبيرا عن حريتها ومساواتها بالرجل في كل شيء، ومن ثم راحوا ينعون على الفكر الإسلامي عدم إعطائه للمرأة هذه الحقوق التي يعطونها لها هم، متخذين من قضايا التعدد والميراث وقوامة ا لرجل والشهادة منطلقات لهم للطعن على الدين واتهامه بعدم الصلاحية والملاءمة للعصر.

وفي غمرة حماسهم نسوا حقيقة مهمة وفارقة في المواقف، وهي أن موقفهم نابع من رؤية بشرية تختلط فيها الرغبة في الثورة على القوانين الكنسية في أوربا التي حرفت النص المقدس لصالح بشر، بالأهواء والنزعات والرغبات الحيوانية الكامنة في نفس الإنسان لإشباع هذه التطلعات المادية الكامنة فيه، بينما رؤية الإسلام للموضوع برمته أي من كافة جوانبه منطلقة من توجيهات إلهية منزلة من الخالق الذي خلق وسوى وقدر وهدى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم من خلق وما يفيده وما يضره، ويعلم أيضا طبيعة خلقه وإمكاناته، ولذلك جاءت توجيهاته سبحانه وتعالى وتشريعاته لصالح هذا الخلق ومتفقة مع طبيعة

خلقته بكامل هيئتها وتقويمها، لا تشبع جانبا دون الآخر بل يحقق التوازن التام لهذه الخلقة يقول تعالى: ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

إنهم يتصورون حين يعطون المرأة حقا في الميراث مساويا للرجل أنهم يعدلون بهذا الفعل، ولم يحاولوا تبين أثرا هذا على المستوى النفسي والاقتصادي، ولم يجروا اختبارات نفسية على الرجال الذين تم تطبيق هذا الأمر معهم، ولا اختبارات نفسية واجتماعية على أثر ذلك على المرأة نفسها، وحين تحدثوا عن التعدد واعتبروه نوعاً من الظلم الشديد نفسيا للمرأة ومن ثم حرموه، نسوا أمراً مهما أنهم قبل ذلك أباحوا لأنفسهم امتهان المرأة نفسها، وما أعطوا المرأة هذه الحقوق والحرية المزيفة إلا لأنها من طرف آخر تعينهم على إشباع رغباتهم منها، وللأسف فإن نساءهم خُدعن أيضا فيها أو أعجبتهن بإرادتهم لأنها تحقق لهن نفس هذه الرغبات، وحينما أتأمل هذا الموقف أسمع قول الله عز وجل لنبيه ﷺ عن اليهود والمشركين القدماء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

ولا نملك إلا أن نمتثل لأمر الله لنبيه بالعفو والصفح والإحسان لنضرب مثالا لهم في علو الخلق الإسلامي وسموه.

أولا: المرأة قبل الإسلام :

بداية لكي نعرف وندرك من النعمة التي أنعمها الله على المرأة في ديننا الإسلامي الحنيف لابد من تعرف أحوالها قبل الإسلام في المجتمع الجاهلي وغيره من المجتمعات الأخرى التي كانت ذات حضارة عريقة مثل الرومان

والفرس والمصريين يقول الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه الإسلام والحياة: "من المعروف تاريخيا أن رب الأسرة في اليونان والرومان ومن إليهم من الأمم القديمة كان يعتبر مالكاً للمرأة كما يملك متاعه، وكان له عليها حق الحياة والموت، فإذا تزوجت انتقلت هذه الحقوق لزوجها، فليس لها أن تستقل بأمرها في شأن من شئونها [١]".

ويؤكد الشيخ الشعراوي في كتابه المرأة في القرآن هذا المعنى حين يوضح أن المرأة عند اليونان كانت من ممتلكات الرجل سواء عند أبيها أو عند زوجها بعد الزواج ولا تستطيع أن تتصرف في شيء، ثم يضيف إليه، " وفي القانون الروماني كانت المرأة تعامل كالطفل أو كالمجنون أي لا أهلية لها، وكان لرب الأسرة أن يبيع من يشاء من النساء من هن تحت ولايته، وفي شريعة اليهود، تعتبر المرأة في منزلة الخادم عن بعض فرق اليهود وتحرم الأنثى من الميراث سواء كانت أما أو زوجة إذا ما كان للميت ذكور، وهذا موجود في الإصحاح ٢١ من سفر التكوين...

وفي القانون الصيني، كانت القاعدة أن النساء لا قيمة لهن، ويجب أن، يعطين أحقر الأعمال ،وفي القوانين الهندية لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها أن تجري أي أمر وفق مشيئتها ورغبتها، وأن المرأة في مراحل طفولتها تتبع والدها، وفي مراحل شبابها تتبع زوجها فإذا مات تبعت أولادها[٢]".

ويدعم ذلك ويؤيده ما قاله(بييرمونتيه) عالم المصريات الفرنسي في كتابه الحياة اليومية في مصر في عهد الرعاية، عن المرأة يقول: ((لم تتخلق

---

(١) د. محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة، ط. مكتبة وهبة بالقاهرة، ص ١٢٩.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي، المرأة في القرآن ط. اخبار اليوم القاهرة، ١٩٩٠، ص ٨، ٩.

النصوص الأدبية المرأة المصرية ، فصورتها مستهترة، تهتم بزينتها، هوائية، ليس في قدرتها أن تكتم سراً، كاذبة، محبة للانتقام، غير وفية بطبيعتها، يرى فيها الرواة وعلماء الأخلاق بذرة كل خطيئة وجراب كل خبث)) [١].

وبعد ذلك بقليل يقول: ((وفي بلد حيث كان للعصا دور كبير ، كان للزوج الحق في تأديب زوجته والأخ أخته على شرط ألا يسيء الاستعمال)) [٢].

هكذا كانت المرأة في مجتمعات متحضرة وذات قوانين ونظم مستقرة تنظر إليها على أنها متاع أو مصدر الخبث ، وإذا أضفنا الصفات التي ذكرها (مونتيه) لنا أن نتخل طبيعة المعاملة التي كانت تعامل بها المرأة ما دامت تصف بمثل هذه الصفات .

ولم يكن الأمر عند العرب الجاهليين بأحسن من هذا بل كان أسوأ حالاً، فباستثناء نساء قليلات أخذن مكانهن بين صفوة المجتمع وكانت لهن كلمة فيه مثل أم المؤمنين (خديجة بنت خويلد) "رضي الله عنها" التي كانت نموذجاً للمرأة العربية ذات المكانة الراقية والتي ملكت أمر نفسها، وكذلك بعض النساء اللائي أخذن مكانة طيبة أو أشاد بها الشعراء في شعرهم، نقول باستثناء هذا كانت المرأة مهيضة الجناح، مهضومة الحقوق، فكانت تعتبر متاعا يورث بعد وفاة زوجها، كما كانت لا ترث من أبيها ولا زوجها، إذ كانوا يورثون الميراث بين الذكور الكبار الذين يستطيعون

---

(١) بيير مونييه: الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسة ترجمة عزيز مرقس منصور، ط. هيئة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٦٥، ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق ص ٧٤.

القتال وإحراز الغنائم ،ولا عجب في هذا فقد كانت ثرواتهم وحياتهم تقوم على الغارات والحروب وما يغتنمونه منها [١].

وإذا كانت المرأة تلعب دوراً معينا في الحياة اليومية في العصر الجاهلي، وعند الرجل كما صورتها أشعار الجاهليين فإن هذا الدور لا يتعدى كونها متعة أو متاعاً، وفي تصويرهم لها ما يحط من كرامتها وكما صورها(امرؤ القيس) في معلقته تصويراً يذري بها ويسيء إليها حيث لم يرتدع هذا الرجل أن يتحرش جنسيا بزوجة أبيه حتى طرده من دياره لأنه منفلت السلوك.

ويوضح (الدكتور حسني عبد الجليل)في كتابه (العقل في الشعر الجاهلي) "أن المرآة كانت مقابلا للعقل فإذا كان العقل هو الحارس الأمين علي الشخصية ، فإن تأثير المرأة حين يغلب العقل يغلب الفرد بعامة" [٢]، ولنا أن نتصور موقف الجاهلي حين يشعر أن المرآة هي التي تسلبه عقله وتحط من قدره، إنه بالضرورة لابد أن يعاملها معاملة تبرز قوته أمامها مثل التملك والتحكم والحرمان من المميزات التي وضعها الله فيها .

وإذا استمررنا في استعراض صورة المرآة قبل الإسلام عند العرب وغيرهم سيطول الأمر وتتعدد الصفحات ولكننا يكفي أن نقول إن الصورة المقابلة التي وضعها الإسلام للمرآة تبرز ما كان عليه حالها الذي لا يسر عدواً ولا حبيباً . قبل الإسلام، ومن هنا جاءت رسالة الإسلام وشريعتة لتعدل من الأوضاع المقلوبة للمرآة وتعطيها حقها .

---

(١) محمد يوسف موسى، الإسلام والحياة ص ١٢٩ .

(٢) د.حسني عبد الجليل يوسف "العقل في الشعر الجاهلي" مكتبة الأداب بمصر ١٩٩٣ صد ٨٢.

ثانيا: تكريم الإسلام للمرآة

لو حاولنا استعراض الموضوع بالتفصيل لاحتجنا إلي كتاب مستقل قائم بذاته، ولكننا سنقف قدر الإمكان عند نقاط بعينها حتى يخرج الموضوع في صورة معبرة عنه وإن كانت سريعة موجزة، فهذا هو المهم وخير الكلام ما قل ودل، وتتمثل صور التكريم فيما يلي:

أ- المرأة شطر المجتمع وجزء من النفس:

تعبر آيات القرآن الكريم عن هذا المفهوم الذي يقر حقيقة ويصحح مفاهيم خاطئة ولنبدأ مع قوله تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ٢].

فالمرآة إذن جزء من النفس أي شطر له، وهما الاثنان معاً مشتركان في مسئولية الحفاظ علي الجنس البشري ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾، ثم التحذير الذي تنتهي به الآية عن مخالفة هذا النهج والمتمثل في قوله تعالي ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾، ومفاده أن الله سيراقب أفعالنا حتى لانتخلي عن هذا النهج ونسلك غيره، وقد تعددت الآيات التي توضح أن المرآة جزء من النفس

ثم تأتي بعد ذلك الآية الأخرى في (سورة الروم) والتي توضح أهمية وجود المرأة بجانب الرجل وبدونها لن يقدر علي مواصلة حياته يقول تعالي: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] .

ولو لم تتحقق للإنسان السكنى لما استطاع أن يقوم بالتكاليف التي كلفه الله بها فستكون حياته شقاء في شقاء، وتمثل الزوجة الطيبة

السكينة والهدوء والراحة التي يحتاجها الإنسان، وهل من عاقل متأمل لهذه اللمحة التكريمية والمكانة الطيبة يجعلها جزءاً من نفس الإنسان وصنوا له تعينه علي الحياة، وربما فصلنا بعض الشيء في الموضوع التالي عن الزواج فهو أنسب للحديث فيه.

ولكن لبيان الموقف بصورة أوضح تلك الجملة التي وردت ضمن آية في سورة النساء وهي قوله تعالي: ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾، وهي توضيح مسألة المساواة والمشاطرة فكلاً من الرجل والمرأة جزء من الآخر فبدون الرجال لا تلد النساء، وبدون النساء لا تبقى الذرية .

ب- الوصية باحترام المرأة وإكرامها.

إذا كان كثير من الناس الباحثين يبحثون هذا الموضوع في مسائل الزواج فإن الآيات التي وردت في شأن الطلاق تعد أكثر تعبيراً عن هذا الاحترام الذي فرضه القرآن الكريم علي الرجل للمرأة ومن يقرأ آيات الطلاق في القرآن الكريم يستوعب مدي التكريم الذي وضعه الإسلام للمرأة بدءاً من المعاشرة بالمعروف إلي المفارقة بالمعروف ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، وقوله ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾، [النساء: ١٩].

ثم الآيات التي تليها وتحرم عادة جاهلية ذميمة كانت تحدث قبل الإسلام وهي استبدال الزوجات فيما يشبه المتاع دون أن يكون لهن حق الاعتراض، فقد كان الرجل يعجب بزوجة صاحبه، والآخر كذلك، فيتفق الرجلان علي تبادل الزوجتين دون أدني مراعاة لشعورهما أو حقهما في القبول والرفض، فجاء الإسلام وحرم هذا يقول تعالي: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ

زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ◆ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١، ٢٢].

ثم نأتي إلي الحقوق التي فرضها الله للمرآة عند الطلاق وأولها المعروف ثم عدم إنقاص الحقوق ثم عدم الضرار يقول تعالي: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ثم يقول: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ثـم لم يفرض عليهن إرضاع الأولاد وأعطي لهن الحق في الاختيار دون إجبار يقول الله تعالي: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقد دَعَم هذه الحقوق في سورة الطلاق، فنهى عن إخراجهن من البيوت عند الطلاق ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [الطلاق: ٢].

ثم يأمر مباشرة وصراحة بإسكانهن في مكان ملائم مثيل لما يسكن الرجل: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ [الطلاق: ٧] .

إن من يتأمل هذه الآيات يدرك مدى احترام الإسلام لحقوق المرأة وحريتها وكرامتها، فقد نهى في هذه الآيات وكذلك في مواضع من (سورة النساء) عن الإعضال وإنقاص الحقوق، فبعد أن أمر بالمعروف في المفارقة والإحسان فيه أمر بإسكانهن في مكان لا يقل عن المكان الذي يسكن فيه الرجل ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ ثم نهى عن الإعضال والمضايقة ﴿ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ وقد قالها صراحة في سورة البقرة ﴿ وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ ، ثم أمر بالإنفاق عليهن إن كن أولات حمل وذلك لأن عدتهن تستمر حتى الوضع، بل وأمر الرجل أن يعطيها أجر الرضاعة إن اختارت أن ترضع ولدها أي إن لم يكلفها فرضا بالرضاعة بل أعطاها الحق في الاختيار فإن رفضت فعليه البحث عن مرضعة أخرى .

إلي هذا الحد يعطي الإسلام للمرأة حقوقها من الحرية والكرامة فلا فرض عليها ولا إنقاص من حقوقها، وذلك ناتج من الصورة الأولى وهي أنها جزء من النفس فكيف يقدم المرء علي إيلام جزء منه.

ج- المساواة بالرجل في التكاليف والثواب والعقاب.

ولتتضح هذه الصورة نبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ أي أنه كلاً من الرجل والمرأة بمنزلة واحدة في التكاليف، ولو تأملنا آيات الحدود لاتضحت المساواة بصورة ظاهرة جلية، يقول تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وفي الزني يقول تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ◆ الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢، ٣].

وهكذا لم يفرق القرآن بين الاثنين بل جعلهما صنو بعضهما باعتبارهم جزأين متكاملين من نفس واحدة وكما لا يوجد فرق في العقاب لا يوجد أيضاً فرق في الثواب، يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ويقول تعالى:﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [١] .وهكذا يتجلى بوضوح مبدأ المساواة بين الاثنين .

وعلي مستوي الحياة يوضح الرسول ﷺ في حديثه الشريف حق المساواة وذلك في حديثه المشهور "كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرآة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها[٢] .

---

(١) سورة آل عمران /١٩٦.

(٢) البخاري ومسلم .

وقد كانت المرأة المسلمة تقوم بواجبها هذا في صدر الإسلام وتعلم أنها سكن ورحمة وأنها مسئولة عن رعيتها فتشارك زوجها في تحمل أعباء بيته وتعينه علي عمله وعلي طاعة الله سبحانه وتعالى .

د- المساواة في الحقوق والواجبات .

في إطار حديث القرآن عن حقوق المسلمين علي بعضهم يقول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ** ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى هذا أن النساء لا تقل حقوقاً عن الرجل فكما نهى الرجال عن السخرية من بعضهم فقد نهى النساء عن السخرية من بعضهن وتكون هذه الحقوق أيضا بالتبادل فيما بين الرجال والنساء.

وتتضح المسألة أكثر في خطبة الوداع التي ألقاها رسول الله ﷺ في حجته الوحيدة حيث يقول ﷺ: ((أما بعد ، أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حقا ،لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ،

وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت! اللهم فاشهد))[١] .

ويعلق (الدكتور محمد عمارة) بقوله "وفي هذه الخطبة أكد الرسول ﷺ ، على مساواة النساء للرجال في الحقوق والواجبات ..وأوصى بهن خيرا، بل وبدأ يذكر حقهن على الرجال مما كن عليه من ضعف بالقياس على الرجال، فكانت عباراته التي تحدثت عن حق النساء على الرجال وحق الرجال على النساء ((العقد الإنساني الإسلامي)) المنظم والحاكم لعلاقات الجنسين أحدهما بالآخر [إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق][٢] .

فعلى المستوي الإنساني تبرز الخطبة (الوصية) مساواة الجنسين في الحقوق والواجبات فالذي تمنع منه المرأة هو ما يؤذي مشاعر زوجها، لو فعلها هو نفسه لتأذت منها فمن التي ترضى أن تري زوجها مع امرأة غيرها في فراشها أو تراه وهو يدخل رجلاً تكرهه بيتها أو يأتي بفاحشة مبينة، إن هذا أمر مرفوض إنسانياً وأخلاقياً، وبالتالي فإن ما أعلنه رسول الله ﷺ من العقوبة هو حق، ولنلاحظ قوله ﷺ: ((فإن الله قد أذن لكم "أي أن الإذن من الله سبحانه وتعالى وليس الأمر أمر (محمد) ولكنه أمر الله، وبالتالي فإذا التزمن فلهن حق الرزق والكسوة بالمعروف ثم كرر ﷺ التوصية بالنساء خيرا لأنهن عوان أي أسيرات بالميثاق الذي عقد بينهما وهي أمانة الله "واستحللتم فروجهن بكلمة الله " ، وهذا الميثاق كلمة الله)).

---

(١) نقلا عن كتاب د. محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق سلسلة عالم المعرفة الكويت عدد ٨٩ مايو ١٩٨٥ صـ١٦٦.

(٢) المرجع السابق صـ١٦٤.

هـ- القوامة ومعناها الحقيقي .

ويتوارد إلى الذهن التساؤل التالي إذا كان ما سبق يعني المساواة فما الأمر في موضوع القوامة التي نص عليها القرآن الكريم ؟

ونقول وبالله التوفيق: إن القوامة أجلى مظهر من مظاهر تكريم الله للمرأة وبالتالي تكريم الإسلام لها، إن كثيرا ممن تصدوا لتفسير الآية الكريمة التي تنص علي القوامة طرحوها وكأنها وصاية فرضها الله للرجل علي المرآة، ولنعرض الآية أولاً ثم نتناول مظاهر التكريم فيها، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤].

ولو تدبرنا لفظ قوامون على حقيقتة لوجدناه صيغة مبالغة [قوام على وزن فعال] من اسم الفاعل "قائم" وفي معاجم اللغة القائم على الأمر أي المسئول عن تنفيذه ورعايته وهي مسئولية تكليف وليست مسئولية تسلط(وولاية) أي أن الله سبحانه وتعالى يكلف الرجل بالقيام بمسئولية المرأة وهي مسئولية خطيرة لابد أن تتضمن كل معانى الاهتمام والرعاية وتدبير أمرها، وكأن المرأة هي سيدة الموقف، وفيها دلالة الإقرار بالواقع فالرجل يبذل أقصى طاقته لإرضاء المرأة التي تتعلق عاطفته بها ويكون ذلك أكثر حينما تصير زوجاً له، ألا يعد ذلك تكريماً ؟

وبعدها مباشرة يوضح مسألة التعادل في الأفضلية "بما فضل الله بعضهم على بعض"، فلكل موقعه وميزاته وأفضليته ولا يفضل واحد منهما الآخر

مطلقا، فكل واحد منهما له دوره الذي يؤديه في الحياة، ثم أوضحت الجملة التالية معنى القوامة التكليفية للرجل ﴿ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ وهي التي أيدتها الآيات الكثيرة التي عرضنا لبعضها في موضوع الطلاق، وما نصت عليه خطبة الوداع "فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف" ثم تلتها جملة تقرر ميزة الصالحات القانتات الحافظات للغيب وأن الله يحفظن .

فهل هناك تكريم في أي شريعة ومذهب يعادل هذا التكريم ؟

وإذا قال واحد إن الآية نصت على عقوبات أذن الله بها للرجل على المرأة، فإننا نرد عليه أولاً بأنه عليه أن ينتبه إلى العبارة كاملة ولا يأخذ جزءاً ويترك الآخر ،وإذا تأملنا الأمر وتدبرناه لفهمنا نص القرآن على حقيقته وقلنا القول الصحيح فالعبارة تحدد هذه العقوبة لمن خالفت المنهج وشذت عن الطريق يقول الله تعالى: ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ ،إذاً نحن أولاً بصدد الناشزات وليس كل النساء، فقد أعطى الصالحات حقهن في الجملة السابقة ومدحهن، ثم جاء في المقابل بالناشزات، وهل هناك شريعة أو قانون لا تعاقب المخالف ؟ إذن لماذا الهمز واللمز على الإسلام؟ إن العقوبات مقررة في كل الملل والمذاهب الدينية والدنيوية، فما بالنا بالإسلام وهو أعلاها وأعدلها وأكملها هل يترك المخالف هكذا دون ردع .

ثم إننا لو تأملنا العقوبات المزعومة لوجدنا منهجاً محترماً للإصلاح وليس لمجرد التعنت والعقاب، فالبداية وعظ وإرشاد فإن تحقق المراد انتهى الأمر ولا يتبع ذلك شيء آخر، وإذا لم يفلح الوعظ والإرشاد، توجد إذن عقوبة معنوية شديدة وهي بالمناسبة ليست شديدة علي المرأة وحدها ولكنها على

الرجل أيضا ولكنه مضطر لإنقاص حقه حتى يعدل من سلوك زوجته، ألم نقل إن القوامة ليست سلطة بقدر ما هي تكليف ومسئولية تتطلب تضحيات أليس الهجر ضاراً بالرجل ومع هذا يأذن الله له فيه من أجل إصلاح الزوجة؟ ثم ماذا بعد ؟

أي إذا لم تفلح هذه الوسائل الإصلاحية المعبرة عن المشاركة، فهل هذا الشخص يرجى منه خير دون عقاب رادع ؟فحدده بالضرب وخوفا من إساءة فهم الوسيلة وتطبيعها حسب الأهواء مما يسبب إيذاء للمرآة التي قد لا تتحمل بنيتها ضرباً قاسيا أو عقاباً شديدا، حدده رسول الله ﷺ ((بالضرب غير المبرح)) وقد سبقها صلوات الله وسلامه عليه في خطبة الوداع بأن هذا إذن الله لتكتمل الصورة من خلال المصدرين الأساسين لهذا الدين الحنيف الكتاب والسنة وليبين أن المسألة تجري في إطار التقويم وليس العقاب، فالذي يقرأ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يعلم أن العقاب بيد الله وليس بيد البشر، وأن البشر حينما ينفذون حداً من حدود الله فعليهم الالتزام بأمر الله وليس الخضوع لأهوائهم .

هذا هو أبرز مظهر من مظاهر تكريم الله للمرأة والذي يتجلى فيه بوضوح عظمة هذا الدين في تكريمه للمرأة بصورة لا تدانيها صورة أخرى، وقد جاءت نهاية الآية معبرة ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ أي إذا تحقق الهدف ونجح التقويم فليس لكم عليهن سبيل أي لا تحاولوا إيجاد حجج ومبررات لإيذائهن ومن يحاول ذلك من منطلق أنه الأكبر والأعلى أو المفضل فعليه أن يتذكر أن الله علي كبير وهنا نتذكر القول

المأثور "إذا دعتك قدرتك علي ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك" وهو يجري هنا مجرى التوضيح لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ .

وفي اعتقادي أن هذا هو أكبر وأبلغ صورة للتكريم الذي خص الإسلام به المرأة وبالإضافة إلي ذلك هناك صور أخرى نوجزها في نقاط محددة:

١- **حق المرأة في ذمتها المالية**: فالمرأة في الإسلام لها ذمتها المالية الخاصة ولا يحق للرجل إجبارها علي أي شيء فيها مثل الأخذ منها أو الإنفاق على البيت أو سلب أي حق لها في مالها، بل عليه الإنفاق عليها مهما كانت غنية

٢- **حق التعليم**: وهذا يستفاد من سيرة رسول الله ﷺ حيث كان يجعل للنساء حظاً في مجالس العلم وفي الذهاب إلي المسجد للصلاة وسماع دروس العلم "لا تحرموا إماء الله بيوت الله "وفي كتب الحديث ما يؤكد ذلك ويدعمه فهناك كم كبير من الأحاديث مروية عن أمهات المؤمنين وأكثرهن رواية (أم المؤمنين عائشة) التي أذن الرسول ﷺ لأصحابه في الأخذ منها ((خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء)) وهكذا يمتد الأمر إلي الإذن بالأخذ عنهن أليست هذه ثقة وصورة جميلة من صور التكريم .

٣- **حق مشاركة الرجل في الحروب**: وقد روت السيرة كثيراً من هذا وأبرز مثال علي ذلك (أم عمارة بنت كعب المازنية) وما فعلته في (معركة أحد) حين اشتد الكرب علي المسلمين فأخذت تضرب بالسيف وترمي بالقوس وتزود عن رسول الله ﷺ الأعداء الذين تكاثروا عليه والرسول ﷺ يدعو لها ولزوجها ولولدها .

٤- حق الإجارة : وقد حدث هذا مع (أم هانىء) حين استجار بها رجل فتجيره فجاء (علي ابن أبي طالب) يريد وجهه فمنعته منه وحاكمته إلى رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء" .

٥ - **الميراث:** وهو الموضوع الذي يلمزون فيه، ولو قارنوا بين ما كانت تفعله الأمم الأخرى وقت نزول القرآن لأدركوا مدى ما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق كانت منقوصة، ولو حسبوها بالعقل لو جدوا أنها صورة من صور التكريم وليس إنقاص الحقوق، فإذا كانت المرأة تأخذ نصيباً يعادل نصف نصيب الرجل أو الذكر فإنه نصيب خالص دون التزامات وفي مقابل ذلك النصف يلتزم الرجل كما نصت الآيات وآية القوامة بالإنفاق عليها منذ بدء علاقته بها ؛ الصداق والنفقة والمتاع ،حتى في حالة الطلاق هو ملزم بإعطائها حقوقا مالية فأي أفضلية هذه المزعومة للرجل ؟إنه مثقل بالأعباء التي تفوق هذا النصف الذي يأخذه من الميراث، وليس في ذلك تفضيل ولا تميز، إنه نوع من العون يقدمه الله عز وجل **للرجل في مقابل** ماكلفه به من أعباء.

٦ - **الشهادة:** وينعون أيضا **موضوع الشهادة** ويقولون: لماذا شهادة امرأتين في مقابل شهادة الرجل ؟ وإذا **تأملنا السياق** الذي وردت فيه لتبين لنا أنه ليس غبنا ولا ظعنا ولا إنقاصا من حقها، فهو أي الشهادة جاءت في سياق المال والتجارة والدين وهو أمر عام، قليلا ما تخوض فيه المرأة؛ لأنها ليست معنية به، فالرجل هو المسئول عن ذلك، وبالتالي تركيزها فيه يكون قليلاً ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ **أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى** ﴾ ويجري هذا أيضا علي كثير من الأمور التي تتطلب فيها المرأة للشهادة .

هذه نماذج وصور من التكريم أوجزناها بعد المظاهر التي تحدثنا عنها بشيء من التفصيل حتى لا نطيل على القارئ، وكما قلنا سابقاً إن المسألة تحتاج إلى كتب وليس كتابا واحدا، وما قيل فيها في صفحات كثيرة من الكتب يغطي مساحات واسعة ولكن الإشارة تغني عن التفصيل .

أهمية الزواج في الإسلام

شرع الإسلام الزواج باعتباره فطرة الله التي فطر الناس عليها في كل زمان ومكان ،فالرجل والمرأة يحتاج كل منهما إلي الآخر ، ولذلك لابد أن تقوم بينهما علاقة محترمة مشمولة بتوجيهات إلهية شرعية ليحفظ لكل طرف حقه في الحياة الكريمة القائمة علي المساواة والعدل، كما أن الإسلام شرع الزواج لتكوين الأسرة المسلمة التي يقوم عليها مجتمع صالح فهو يضمن لكلا الطرفين ممارسة حقه في الحياة وفي إشباع جزء أساسي منه وهو غريزته ، ويضمن ظهور نسل صالح لأنه نتاج أمر شرعي، ولو حافظ كل طرف من الطرفين علي حقوق الآخر والتزم بما شرعه الله سبحانه وتعالى لاستقامت العلاقة ودامت، وتربى الأولاد على تقوى الله العظيم وطاعته، وتستمر المسألة ، فالأبناء الذين نتجوا عن هذا الزواج الصحيح شرعيا ودينيا سيواصلون المسيرة حينما يأتي دورهم في تكوين أسرهم علي نفس المبدأ الصالح ، وهكذا نضمن استمرارية المجتمع الإسلامي الصالح.

أولا: الزواج أمر شرعي بالكتاب والسنة .

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وفي هذا أمر ضمني بضرورة الزواج لتتحقق السكينة إلى النفس الجامحة دائماً والراغبة في تحقيق ذاتها بإشباع رغباتها ولو لم يتحقق لها هذا الزواج لظلت على حالها من القلق الذي قد يؤدي بها إلي الفساد في الأرض بتحقيق هذه الرغبة بأي صورة وبأي شكل.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء))[1]، أي أن الزواج حصن منيع لكل من الرجل والمرأة، وأغض للبصر وأحصن للفرج وبالتالي تمتنع الرذيلة من المجتمع، وفي المقابل إذا لم يتحقق ذلك فعليه بالصوم، لأنه هو الذي يمكن الإنسان من التحكم في إرادته وتسييرها بما يرضي الله سبحانه وتعالى .

ولذلك فإنه لما جاء نفر من أصحاب النبي ﷺ وسألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر ؟فقال بعضهم، لا أتزوج النساء وقال بعضهم، لا أكل اللحم، وقال بعضهم لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال: ((ما بال قوم قالوا كذا وكذا ؟ لكني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني))[2] ، أي أن الحياة تعادل بين هذا وذاك وتوازن بين المادة والروح فهو ﷺ يوصيهن عن طريق ضرب المثل بنفسه، فيصوم ويفطر ويصلي وينام ويتزوج النساء ويحذرهم بأن من يحيد عن هذه السنة فهو خارج عن ملته وليس من رسول الله ﷺ في شيء .

إذن فالزواج مهم للأسباب التالية:

١- أنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وقد أوصت به كل الملل والديانات السابقة ولم تمنعه ملة أو مذهب بشري إلا إذا كان مذهباً فوضويا يدعوا إلى شريعة الغاب البدائية ولم توجد حضارة في الدنيا تدعو إلى الفوضى

---

(١) صحيح مسلم كتاب النكاح حديث رقم ٣٣٣٨ /والبخاري في الصوم والنكاح .

(٢) صحيح مسلم /٣٣٤٣.

فكل الحضارات السابقة من مصرية قديمة إلي صينية إلي بابلية وفينيقية ويونانية ورومانية قام فيها المجتمع على الزواج حتى ولو كانت طريقتها مخالفة للطريقة التي يتم بها الزواج في الشريعة الإسلامية .

وقد ذكر ذلك بوضوح (الدكتور أحمد غنيم) في بحثه القيم "موانع الزواج في التشريع الإسلامي المقارن " حيث يعرض لمشروعية الزواج في الديانات السماوية وحتى الديانات الوثنية ويقول معقبا علي ما قاله: "بل لقد كان من البديهي أن يتجلى مرة أخرى –جلال هذا الزواج وخطره إذ ترى الشرائع السماوية بالذات هي التي تستأثر بتنظيم الزواج وتتشبث بالهيمنة عليه، حتى ليرسخ سلطانها الديني بشأنه في أعماق الضمائر والقلوب ..وحتى ليمكننا القول إن لنظام الزواج أصلا دينيا عميقاً في أغوار النفوس قبل أن يكون له تنظيم وضعي في التقنين البشري"[1] .

٢- أنه عامل مهم من عوامل نجاح المجتمعات القوية والتي كونت حضارات، لأن الإنسان إذا أشبع رغباته الإنسانية بالطريقة الصحيحة كان أقدر علي التفكير السليم والعمل الناجح فينتج ثقافة وحضارة لها قيمتها .

٣- أنه مانع للفساد ، فإذا تحصن الإنسان في علاقة زوجية ناجحة امتنع عن ارتكاب الموبقات ، والمتأمل الواعي يجد أن إشباع هذه الرغبة دافع قوي لارتكاب الجرائم الأخرى ناهيك عن جريمة الفاحشة نفسها التي هي أساس كل الموبقات ولذلك شدد الله سبحانه وتعالي عقوبتها وجعل فاعلها مشركاً، ثم هي العقوبة الوحيدة والحد الوحيد الذي

---

(١) د.أحمد غنيم: موانع الزواج في التشريع الإسلامي المقارن ، ط. دار النهضة العربية بالقاهرة .

أمر بأن يشهد تنفيذه طائفة من المؤمنين فقال تعالي: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ٣.الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢، ٣].

٤- أنه أدعى إلي العون الإنساني: من خلال استعراض الآية الكريمة التي ذكرناها في سورة الروم والتي تنص علي السكني ﴿ لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ يتبين مدى حاجة الرجل إلي من يعينه، وإن كنت أري أن الآية عامة للاثنين الرجل والمرأة؛ فكلمة "زوج " تطلق في اللغة العربية علي الاثنين معا، وكذلك من خلال ما جاء في العهد القديم في سفر التكوين "وقال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينا نظيره" .ويعلق عليه (د.أحمد غنيم) بوضع عنوان له وهو " المدلول الإنساني التعاوني "[١] .

٥- أنه يساعد علي حفظ النوع الإنساني، ذلك أن الزواج يحقق هذه النتيجة فإذا مارس الإنسان حقه البشري بدون زواج فإن ذلك سيؤدي إلي ضياع النوع حتى ولو أدت الممارسة الغير شرعية إلي أولاد غير شرعيين فإن هؤلاء الأولاد لن يكونوا أسوياء وسيدمرون أنفسهم ويدمرون المجتمع وبالتالي ينقرض النوع الإنساني ولكن بالزواج الشرعي نضمن استمرار النوع بطريقة صحيحة وسوية وقد أشار إلي

---

(١) موانع الزواج ص٢٢.

ذلك (الشيخ محمد أبو زهرة) في كتابه "تنظيم الإسلام للمجتمع "[١]

ودعم هذا المعنى برسالة باحثة أوربية توصلت إلي نتائج خطيرة حول أولاد الملاجئ .

والحق أن الزواج يحقق هذه المهمة علي أكمل وجه خاصة إذا أقيم على أساس شرعي خاضع لتوجيهات إلهية ربانية ، وراعى كل طرف فيه حقوق الآخر وطبقا توصيات الرسول ﷺ نحو مسئولية كل طرف تجاه الآخر ، ووصيته (لعبد الله بن عمرو): ((إن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه)) وبذلك يتعاون كل منهما مع الأخر على طاعة الله وعلى عمارة الأرض بما يرضى الله سبحانه وتعالى ويحقق الخير للبشرية كلها.

حسن اختيار الزوجة

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف للزواج وضع الإسلام نظاماً متكاملاً لإقامة هذا الزواج على أسس صحيحة وهي:

١ -الإيمان فقد نص القرآن الكريم على جعل الإيمان أساساً للزواج يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولنتأمل أولا هذا التوجيه الإلهي الجليل فهو يشمل الاثنين معاً ، ولينظر إليه الباحثون عن المساواة ليروا أن الله سبحانه وتعالى لم يفرق بين الاثنين بل جعل توجيهه لهما معاً ، فهو يأمر الرجال أن لا ينكحوا المشركات حتى

(١) الشيخ محمد أبو زهرة تنظيم الإسلام للمجتمع دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٥/ص٦٤.

يؤمن، وجعل الآمة المؤمنة خير من الحرة المشركة، وكذلك أوصى الرجال أن لا يزوجوا بناتهم إلى المشركين، وأوصاهم بالعبد المؤمن وجعله خيراً من السيد المشرك.

وذلك لأن الإيمان أساس لكل عمل صالح وقد بينا ذلك في حديثنا عن العقيدة، وبالتالي يكون أساساً لإقامة علاقة زوجية صالحة قائمة على شرع الله والإيمان خير ضامن لصلاح هذه العلاقة، فهي الدافع لكل منهما على تطبيق حدود الله وتنفيذ توجيهات نبيه ﷺ.

وقد طبق هذا رسول الله ﷺ في (صفية بنت حيي) التي أعتقها وتزوجها وجعل صداقها عتقها، والحديث بتفصيله في صحيح مسلم تحت رقم ٣٤٣٤.

ودعم التوجه نفسه بوصيته في حديثه الذي يرويه (أبو هريرة) يقول: عن النبي ﷺ قال: ((تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك))[1]. ويرويه (جابر بن عبد الله) بطريقة أخرى يقول ((تزوجت امرأة في عهد رسول الله ﷺ فلقيت النبي ﷺ فقال: يا جابر تزوجت؟ قلت نعم: قال بكر أم ثيب؟ قلت: ثيبٌ، قال: فهلا بكرا تلاعبها؟ قلت: يا رسول الله! إن لي أخوات فخشيت أن تدخل بيني وبينهن: قال: ((فذاك إذن إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها فعليك بذات الدين تربت يداك))[2]

إذن يحض الدين الإسلامي الحنيف على جعل الإيمان والتدين أساسا مهما في اختيار الزوجة، فالقرآن يفضل العبد والمرأة المؤمنين على المشركين

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٣٥٧١ في باب استحباب نكاح ذات الدين.

(٢) المرجع السابق /الحديث رقم ٣٢٧٢.

والرسول ﷺ يفضل التدين على الجمال والمال والحسب، لأنه بذلك يضمن أمّا صالحة تستطيع أن تربي أولاد على طاعة الله وهي في الوقت نفسه لا تنقص زوجها حقه، لأنها من وازع دينها تعرف أن الله يراقبها فتنفذ وصية رسول الله ﷺ في حجة الوداع فلا توطئ فرشها أحداً غير زوجها ولا تدخل أحدا يكرهه بيته ولقد تأتي بفاحشة مبينة، ولن تهجر فراش زوجها حتى لا تلعنها الملائكة، وفي هذا الصدد يحذر رسول الله ﷺ من اتخاذ الجمال وحده وسيلة للاختيار ويقول: ((إياكم وخضراء الدمن قالوا من هي يا رسول الله قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))(١)

كما يقول: "لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولاتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل"(٢).

ويدعم ذلك حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه (عبد الله بن عمرو): ((أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)) (٣).

ولذلك حث رسول الله ﷺ على النظر إلي المرأة عند الخطبة فقال:" انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما" ويعلق (الشيخ أبو زهرة)على هذا الاختيار بقوله: "اختيار العشير أعظم الأمور خطرا في حياة الرجل والمرأة، فإن هذا العقد هو عقد الحياة ومن وفقه الله تعالى فيه كان له حظ الدنيا والآخرة، ومن لم يوفقه فيه ناله الشقاء إلى أن يرحمه الله، ولذلك كان لابد من

---

(١) نقلا عن كتاب الشيخ محمد ابو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع ص ٦٧/٦٨ .

(٢) نقلا عن كتاب الشيخ محمد ابو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع ص ٦٧/٦٨ .

(٣)صحيح مسلم /٣٥٧٩.

العناية باختيار العشير والخضوع في اختياره لحكم العقل، لا لحكم الهوى، وإن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، الرجل والمرأة كنصف دائرة كل نصف يسبح في هذا الوجود، حتى يلتقي بتوفيق الله بالنصف الذي يلائمه ويتحد قطراهما فتتكون منهما الدائرة كاملة وتلك هي دائرة الأسرة التي تكون دعامتها الحياة الزوجية "[١] .

ولهذا أفرد البخاري بابا بعنوان ((إلى من ينكح وأي النساء خير وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب)) وذكر فيه حديث (أبي هريرة) عن رسول الله ﷺ قال: ((خير نساء ركبن الإبل صالحوا نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده))[٢] .

ومعني هذا أن الدين يحض علي حسن اختيار الزوجة لضمان حياة أسرته صالحة يستطيع فيها الرجل أن يمارس حياته اليومية ويؤدي التكاليف التي أمره الله بها من سعي في الأرض وعبادة الله على حق وهي تمثل عمارة الأرض وحسن خلافه الله فيها وهو مطمئن علي بيتة وعلى ولده كما وصف رسول الله ﷺ "صالحات نساء قريش بأنهن أحناه على ولد في صغره، وأرعاه علي زوج في ذات يده" وهو أعظم ما يطلبه المرء من زوجه .

وفي هذا نذكر حديث رسول الله ﷺ: ((خير متاع الدنيا المرأة الصالحة: من إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في ماله وعرضه)).

---

(١)الشيخ ابو زهرة ((تنظيم الإسلام)) للمجتمع ص ٦٦/٦٧ .

(٢)البخاري، كتاب النكاح ، باب من ينكح .

وقـد وردت في كتـب الحـديث أحاديـث كـثيرة في هـذا البـاب وإن ذكرناها كلها توسع الباب وفيها كثير من الوصايا ولكننا نكتفي بهذا ونوصي من يقرأ بأن يستزيد حتى يعرف عظمة ديننا وإحاطته بكل ما يشغل بال الإنسان في هذا الأمر الخطير ومع كل هذه التوجيهات لم ينس الدين الحنيف حق الإنسان في الإنجاب ولذلك أوصى بزواج الولود المنجبة لأن في ذلك حفظ للنوع الإنساني وهو من ضرورات الدين والحياة.

حسن اختيار الزوج

لعل في الآية التي ذكرناها عند حديثنا عن اختيار الزوجة ﴿ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢١).

أي أن أول أسس الاختيار هو الإيمان بالله وفي هذا الصدد يفضل العبد المؤمن المشرك حتى ولو امتلك كنوز الدنيا ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ فالمسألة لا تخضع للإعجاب ولا للهوى ولكن المفاضلة تكون بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.

وفي هذا المعنى يرو حديث رسول الله ﷺ: ((إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير))

وهو بهذا يجعل الميزة والفضل للمتدين الذي يعرف ربه ومن ثم فهو على خلق، وذلك يعود بالخير على الأسرة، فهو أولاً سيتقي الله سبحانه وتعالى وينفذ توجيهاته التي نص عليها القرآن الكريم من حيث النفقة والمعاشرة بالمعروف وعدم الإعضال والمضايقة بالإضرار، ثم إن الأب يأمن على بنته عند المتدين الخلوق، ثم ينعكس ذلك كله على الأبناء بحسن التربية على دين الله سبحانه وتعالى وحتى على المستوى النفسي سيكونون أسوياء لأن

بيتاً يجمع زوجاً متديناً وامرأة متدينة كفيل بأن يخرج أبناء صالحين طائعين لربهم نافعين لمجتمعهم.

وإن كان العرف قد جرى علي اختيار الموسر فإن اليسار ليس هو الأساس بل يسبقه التدين، وإذا كانت هناك مفاضلة بين موسر وآخر فلتكن علي أساس الدين وإذا كانت هناك مفاضلة بين موسر غير متدين ومعسر متدين فالأولى المعسر المتدين ولذلك جاء في (البخاري باب تزويج المعسر) لقوله تعالى ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٢] .

وروي فيه حديث (سهل بن سعد الساعدي) الذي يقول: ((جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله جئت أهب لك نفسي قال فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست، فقام رجل من أصحابه فقال يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال وهل عندك من شيء، قال: لا والله يا رسول الله فقال اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسول الله ما وجدت شيئاً فقال رسول الله ﷺ أنظر ولو خاتما من حديد فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ولكن هذا إزاري قال سهل ماله رداء فلها نصفه فقال رسول الله ﷺ ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وإن لبسته لم يكن عليك شيء فجلس الرجل إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعي فلما جاء قال ماذا معك من القرآن ؟قال معي سورة كذا وسورة

كـذا عـددها فقـال تقـرؤهن عـن ظهـر قلبـك قـال نعـم، قـال اذهـب فقـد ملكتكها بما معك من القرآن))[1] .

والرسـول العظـيم صـلوات الله وسـلامه عليـه يرسـي مبـدأ عظيمـاً وهـو مـزدوج الفائـدة ألا وهـو جعـل الـدين أساسـاً لاختيـار الـزوج، فهـذا الرجـل مـن مجلسه ﷺ وهو يعرفه ويعـرف خلقـه، ثـم من الجانـب الآخـر ييسـر الأمـر علـى المعسر الذي لا يجد مـا يقدمـه صداقا لزوجتـه حتـى يستعفف ويتحصـن أمـام هذه الغريزة، ونلاحظ استمرار النبي مـع هـذا الرجـل ولم يعرضـها علـى أحـد آخر ممن كانوا معه وفيهم الموسر والقادر على الزواج ومـن ذا يـرفض عـرض رسول الله ﷺ ؟.

ولنتأمـل أيضـاً أدب الصـحابة الـذين تـأدبوا فيـه بـأدب رسـول الله ﷺ فقـد ذهـب الرجـل ثـم رجـع ولم يجـد شـيئاً وتـبين، ولم يتقـدم واحـد مـنهم ليقـول هاأنذا يا رسول الله، وقد جلس الرجل مسلماً أمـره لله ثـم هـم بالرحيـل ،ولم يحدث أن نبى واحد منهم بلفظ يطلب المرأة لنفسـه، وكـأنهم يستحضـرون في نفوسهم قول رسول الله ﷺ : ((لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطـب بعضكم على خطبة بعض))[2] .

إنـه الأدب النبـوي العظـيم الـذي بثـه رسـول الله ﷺ في نفـوس أصـحابه تحقيقاً لمبدأ الأخوة في الله على أكمل وجه.

---

(١) البخاري كتاب النكاح باب تزويج المعسر .

(٢) صحيح مسلم ٣٣٩٣ باب تحريم الخطبة علي خطبة اخيه.

ومع هذا نود أن ننبه إلى أمر مهم وهو يجب أن لا يفهم من هذا تفضيل المعسر الفقير على الغني الموسر مطلقا، فالمسألة مقياسها الدين فإن كان موسراً غنيا ومتدينا فبها ونعمت ، إن المسألة خاضعة للمقياس الالهي ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

ولضمان حسن اختيار الزوج "قرر جمهور المسلمين أنها لا يصح لها أن تنفرد باختيار الزوج فيكون لأوليائها من أب أو أخ الحق في التدخل عند اختيار الزوج من غير أن يرغماها على زوج معين إن كانت بالغة عاقلة، ولكن ليس لها أن تنفرد دون رأيهم وإذا امتنع الأب أو الأخ عن الموافقة مع كون الزوج المختار لا عيب فيه وأراد بالامتناع مضايقتها كان لها أن تطلب من القاضي أن يتولى الزواج منعاً لظلم الأولياء "[1] .

وذلك لأنه ربما يكون الأب أو الأخ (الولي أيا ما كان) أقدر على معرفة خلق الزوج المختار وسلوكه فيضمنا لابنتهما أو وليتهما حياة آمنة مستقرة، ويكون ذلك رادعا للهوى النفسي الذي قد يعمي الإنسان عن الحقيقة، وهكذا يرشدنا الدين الإسلامي الحنيف دائما إلي ما فيه المصلحة والخير والفلاح والنجاح.

---

(١) الشيخ محمد ابو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع ص٨٦ .

الرضا والكفاءة

١-الكفاءة بالدين:

يروي البخاري حديثا عن سهل قال: ((مر رجل على رسول الله ﷺ فقال ما تقولون في هذا الرجل قالوا حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يُسمع قال ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال ما تقولون في هذا قالوا حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يُسمع، فقال رسول الله ﷺ هذا خير من ملء الأرض مثل هذا))[1] .

ولو تأملنا الحديث لوجدناه متصلا بالموضوع السابق وهو حسن اختيار الزوج على أساس الدين والبخاري يرويه في باب الإكفاء في الدين وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٥].

وقد كانت نظرة أصحاب رسول الله ﷺ ممزوجة بشيء من الدنيوية ففضلوا واحداً مقبولاً اجتماعيا، فلما جاء الفقير رفضوه ولكن رسول الله ﷺ بين لهم أن الأخير بدينه خير من ملء الأرض من مثل الذي فضلوه ليعلمهم أن المفاضلة والكفاءة تكون بالدين أولا وليس بشي آخر من مظاهر الدنيا .

---

(١) البخاري وكتاب النكاح باب الإكفاء في الدين

٢-الكفاءة بالمال .

ويروي البخاري أيضا بعده حديثا تحت باب الإكفاء في المال وتزويج المثل الثرية عن (عروة) أنه سأل (عائشة رضي الله عنها) عن قوله: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى قالت يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن ينقص صداقها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا في إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت واستفتى الناس رسول الله ﷺ بعد ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ إلى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾، فأنزل الله لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال ورغبوا في نكاحها ونسبها في إكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها وأخذوا غيرها من النساء قالت فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى في الصداق[1] .

والآية التي يشير إليها الحديث نزلت فيمن يريد أن يتزوج من النساء اليتامى اللاتي تحت ولايته ويريد أن ينقصها حقها أو إن كانت جميلة ولا يريد أحد أن يتزوجها يلقي عليها رداءه كما كان يفعل أهل الجاهلية فيمتنع الناس عنها وهو إغماط لحقها في الصداق يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ

---

(١) البخاري كتاب النكاح باب الإكفاء في المال

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾[النساء: ١٢٨].

وهـو توجيـه مـن الله سبحانه وتعـالى للمسلمين أجمعـين بالقسـط، وهـو العدل ولـذلك فـإن الكفـاءة صنو العدل وقرينتـه وهـو حق وكثيرا مـا نسـمع عـن فشـل زيجـات كثيرة نتيجـة لعـدم الكفـاءة في الـدين أو المـال، ومنـع الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يخضعوا للهوى في أمر النساء بل لابد أ ن تكـون المسـألة محسـوبة شـرعاً وعقـلا لأنهـم لـو خضـعوا للـهوى لفقـدوا كثيراً مـن اتزانهم فالنساء إحدى زينات الـدنيا الـتي يجـري وراءهـا الإنسـان يقـول تعـالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٥].

ويقول رسول الله ﷺ: ((ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء))[١]

وإذا كـان ديننـا الحنيـف قـد اشـترط الكفـاءة في الـدين والمـال فإنـه لم يحظر أي مانع آخر، ولذلك طبقها رسول الله ﷺ عملياً ((حين خطب عائشة فقال له إنك أخي فقال له أنا أخوك في الله وهي لي حلال))[٢].

ولكن هل تغني الكفاءة عن الرضا ؟ لا إنـه الأسـاس فلابـد أن يكـون هنـاك رضـا، وقد بينـت أحاديـث رسـول الله ﷺ هـذا الأمـر فقـد روى (مسـلم) عـن (أبـي

---

(١) البخاري كتاب النكاح باب شؤم المرأة.

(٢) المرجع السابق .

هريرة) أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها ؟ قال أن تسكت))[1].

وقد رواه (البخاري) في باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها وأتبعه بحديث عن (عائشة) رضي الله عنها: ((قالت يا رسول الله إن البكر تستحي قال رضاها صمتها))[2].

ومعنى هذا أنه لابد من الرضا من الطرفين، وقد ذكرنا في حسن اختيار الزوج أمر رسول الله ﷺ للخاطب بأن ينظر إلي خطيبته فإنه أحرى أن يؤدم بينهما ثم هنا يوضح أن الأيم تستأمر ولها الحق في أن ترضى أو ترفض صراحة أما البكر فلأنها لم تخض التجربة فلا تستطيع أن تتكلم وهذا ما قصدته (عائشة) رضي الله عنها بقولها: ((إن البكر تستحي)) فقال رسول الله ﷺ: ((إذنها صمتها)) أي أنها إذا صمتت صمتاً يوحي بالرضا وعلى الولي أن يتبين ويتأكد من حالها لأن الصمت قد يكون مشمولاً بنظرة توحي بالرفض فلا بد أن يكون هذا الصمت مقرونا بنظرة رضا.

وعلى هذا الأساس أجمع الفقهاء على أن الزواج بغير رضا مردود وعلى القاضي أو ولي الأمر المسئول عن المسلمين أن يفرق بينهما، وذلك استنادا إلى حديث رسول الله ﷺ الذي رواه (البخاري) تحت باب إذا زوج ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود وروي فيه حديث (خنساء بنت خذام الأنصارية) أن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحه[3].

---

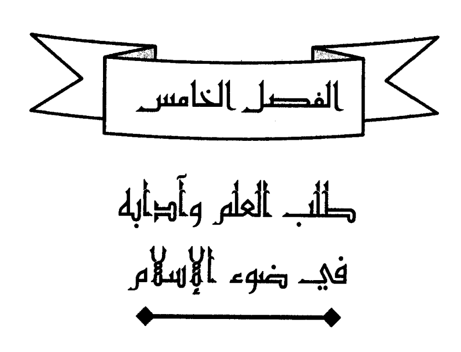
(١) مسلم: ٣٤١١.

(٢) البخاري الباب نفسه .

(٣) البخاري كتاب النكاح.

وهكذا يتكامل الرضا مع الكفاءة فيكون الزواج ناجحا محققا الهدف منه بتكوين أسرة مسلمة ترعى حق الله وبالتالي ترعى حقوق بعضها على بعض حق الزوج على الزوجة وحق الزوجة على الزوج وحق الأولاد فينشأ مجتمع صالح يطبق شرع الله، وباتحاد الأسر الصالحة وتجمعها يقوى المجتمع ويقف صامدا أمام التيارات التي تصارعه من داخله باتقاء الموبقات ومن خارجه بهجمات الأعداء ولن يتحقق ذلك إلا بالجدية والالتزام بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ .

وفي النهاية نقول إن الزواج مؤسسة اجتماعية يحتمل الفلاح والنجاح ويحتمل الفشل، فإن قام على توجيه الله سبحانه وتعالي وتعاليم نبيه ﷺ كان مصيره النجاح والفلاح، وإن قام على الهوى والشهوات والرغبات فقط كان مصيره الفشل وفي كلتا الحالتين هو مؤشر على فلاح المجتمع أو فشله.



آداب العالم

آداب المتعلم

العلم في الإسلام

لم تعرف البشرية ديناً مثل الإسلام عني بالعلم أبلغ عناية وأتمها، دعوة إليه، وترغيباً فيه، وتعظيماً لقدره، وتنويهاً بأهله وحثاً على طلبه وتعلمه وتعليمه، وبياناً لآدابه، وتوضيحا لآثاره، وترهيباً من القعود عنه، أو الازورار عن أصحابه، أو المخالفة لهدايته أو الازدراء بأهله [1].

والعلم الذي أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق من شيء، ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: من الآية١٨٥) وقوله تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٦٤) .

فالعلم في الإسلام يتناول كل موجود وكل ما يوجد ، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام ، إذ كان خير عبادة الله أن يهتدي الإنسان إلى سر الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله.

---

[1] يوسف القرضاوي : الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٤ -١٩٨٤ ص ٣.

طلب العلم لغة واصطلاحا:

الطلب في اللغة: محاولة وجدان الشيء وأخذه. ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي. والعلم لغة: (اليقين)، ويأتي بمعنى المعرفة. واصطلاحاً اختلفوا في تعريفه: فتارة عرفوه بأنه معرفة الشيء على ما هو به، وهذا علم المخلوقين، وأما علم الخالق فهو الإحاطة والخبر على ما هو به.

أو هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.. وقيل العلم هو إدراك الشيء على ما هو به وقيل هو صفة راسخة تدرك بها الكليات والجزئيات.

والجهل نقيضه، ويطلق على السفه والخطأ، " يقال جهل على غيره" (سفه وأخطأ). والجهل اصطلاحاً: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه. ومن المعاني ذات الصلة: (المعرفة) والمعرفة لغة: العلم، يقال عرفه الأمر: أعلمه إياه، وعرفه بيته: أعلمه بمكانه. والمعرفة اصطلاحا: إدراك الشيء على ما هو عليه، قال (صاحب التعريفات): وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى "الحق تعالى بالعالم دون العارف". وفرق (صاحب الكليات) بين المعرفة والعلم بأن المعرفة تقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين إذا تخللهما عدم، ولإدراك الجزئي، ولإدراك البسيط. والعلم يقال لحصول صورة الشيء عند العقل، وللاعتقاد الجازم المطابق الثابت، ولإدراك الكلي، ولإدراك المركب.[١]

---

(١) التعريفات للجرجاني: ١٧٧ – ١٧٨، والموسوعة الفقهية ٢٩ / ٧٧ – ٧٨

فضل طلب العلم وأهميته

العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب؛ لأن شرفه يثمر على صاحبه ، وفضله ينمى على طالبه . وقال (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه : "الناس أبناء ما يحسنون" . وقال (مصعب بن الزبير): "تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالاً وإن لم يكن لك مال كان لك مالا" . وقال (عبد الملك بن مروان) لبنيه : "يا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطا سدتم ، وإن كنتم سوقة عشتم ". وقال بعض الحكماء : "العلم شرف لا قدر له ، والأدب مال لا خوف عليه" . وقال بعض الأدباء : "العلم أفضل خلف ، والعمل به أكمل شرف" . وقال بعض البلغاء :" تعلم العلم فإنه يقومك ويسددك صغيرا ، ويقدمك ويسودك كبيرا ، ويصلح زيفك وفاسدك ، ويرغم عدوك وحاسدك ، ويقوم عوجك وميلك ، ويصحح همتك ، وأملك" . وقال (علي رضي الله تعالى عنه) : "قيمة كل امرئ ما يحسن" . فأخذه (الخليل) فنظمه شعرا فقال :

لا يكون العلي مثل الدني لا ولا ذ و الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من الإمام علي

وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل ؛ لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم . وهذا أبلغ في فضله ؛ لأن فضله لا يعلم إلا به . فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله ، واسترذلوا أهله ، وتوهموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتناة ، والطرف المشتهاة ، أولى أن يكون إقبالهم عليها ، وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال (ابن المعتز)

في منثور الحكم : "العالم يعرف الجاهل ؛ لأنه كان جاهلا ، والجاهل لا يعرف العالم ؛ لأنه لم يكن عالما . وهذا صحيح ، ولأجله انصرفوا عن العلم، وأهله انصراف الزاهدين ، وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين ؛ لأن من جهل شيئا عاداه ".[1]

أولاً: فضل العلم والحث على طلبه في القرآن الكريم

لقد حفل القرآن الكريم بالآيات الدالة على فضل العلم والعلماء، والحث على التفقه في الدين، والدعوة إلى النظر والتدبر في كل ما يحيط بالإنسان، وإعمال العقل في كل شيء من صنع الله، ونهى القرآن الكريم عن كتمان العلم وعدم بذله، ثم ذم الجهل والجاهلين.

فقال سبحانه وتعالى في فضل العلم والعلماء:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران ٧]

﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران ١٨]

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه ١١٤] ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا

---

(١) أدب الدنيا والدين ٣٥ – ٣٨ .

يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) [العنكبوت ٤٣] ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر ٢٨] ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر ٩] ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة ١١]

كما حث على التفكر واستخدام العقل، حيث إن العقل هو مناط التكليف ووسيلة العلم والتدبر

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة ٢٦٩] ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران ٧] ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد ١٩] ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) [ص ٢٩] ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر ٩]

وحث على نشر العلم وعدم كتمانه، وبذله لمن طلبه، وعاب على أهل الكتاب كتمانهم للعلم .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ١٤٦] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة ١٥٩] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة ١٧٤] ﴿ وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران ١٨٧]

ثم ذم الجهل والجاهلين، وأمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف ١٩٩]

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود ٤٦]

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ [الفرقان ٦٣] .

وكانت أول الآيات التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ❖ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ❖ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ❖ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ❖ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وأقسم الله تعالى بالقلم وهو أداة من أدوات العلم والتعلم ووسيلة من وسائل تحصيله فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [سور القلم ١]

ومن قرأ قصص الأنبياء في القرآن وجد أن للعلم مكاناً في كل منها، وأن العلم كان وراء كل خير أو فضل أحرزه واحد منهم.

فآدم "عليه السلام" - أبو البشر - إنما فضله الله على الملائكة، وأظهر تفوقه عليهم، وأنه المرشح الصالح للخلافة في الأرض، بسبب "العلم" الذي علمه الله إياه، ولم يعلمه للملائكة، ولهذا لما سألهم عن أسماء الأشياء - والسؤال عن الاسم يتضمن السؤال عن المسمى وخواصه - قالوا: ﴿**سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة ٣٢]

وكذلك استطاع آدم أن يتطهر من ذنبه (حين أكل من الشجرة المنهي عنها) بما تعلمه من الكلمات التي تلقاها من ربه: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[البقرة ٣٧]

ونوح "عليه السلام" - شيخ المرسلين - نجد أثر العلم في حسن دعوته لقومه، وجداله لهم حتى أفحمهم. وقالوا: ﴿**يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٣٣ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾. [هود ٣٢]

وإبراهيم "عليه السلام" (خليل الرحمن) آتاه الله الحجة، فحاج (النمروذ) فأسكته، وحاج قومه فغلبهم، وقال لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾. [مريم ٤٣].

وقال تعالى في شأنه: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء**﴾.[مريم ٨٤] .

ويوسف "عليه السلام" لما بلغ أشده آتاه الله حكماً وعلماً، وعلمه من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى، وكان هذا العلم سببا في إخراجه من السجن، وكذلك كان العلم مؤهلا لتوليه خزائن الأرض: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف ٥٥].

فالحفظ يمثل العنصر الأخلاقي، والعلم يمثل العنصر المعرفي، وكلاهما يكمل الآخر، وكلاهما ضروري لكل من يتولى منصباً قياديا.

ولقد برز يوسف في علم التخطيط الزراعي والاقتصادي في أيام الأزمات والمجاعات، ووضع خطة لخمسة عشر عاما، وتولى هو الإشراف على تنفيذها بنفسه، فأنقذ الله به مصر وما حولها من محنة كادت تودي بها.

وقال الله في شأن موسى"عليه السلام": ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[القصص١٤].

ولما أعلم الله موسى"عليه السلام" أن هناك رجلاً عنده من العلم ما ليس عنده، سافر إليه سفراً طويلاً لقي فيه النصب والعناء، وطلب إليه أن يصحبه، بل أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله، وهو موسى الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، فاشترط عليه أن يصبر على ما يراه منه، ولا يبادره بالسؤال حتى يبين هو له، وقبل موسى هذا الشرط: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ٦٩ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.[الكهف ٦٦ —٧٠].

وفي قصة داود وسليمان "عليهما السلام" قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ١٥]

ونجد علم سليمان "عليه السلام" يتجلى في فهم كلام النملة مع النمل، وفي كلام الهدهد الذي أدل عليه بالعلم، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.النمل ٢٢ وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ ، نجد أن الذي أحضر عرشها من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إليه طرفه إنما هو: ﴿الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾. [النمل ٤٠]

كما امتن الله على داود "عليه السلام" بتعليمه صناعة الدروع: (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾.[الأنبياء ٨٠]

وفي قصة طالوت بين الله تعالى أنه اختاره لزعامة القوم وقيادتهم بسبب مؤهلاته العلمية والمادية: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.[البقرة ٢٤٧] .

وقال عن المسيح عيسى "عليه السلام" : (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾. [آل عمران ٤٨]

وقال عن خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.[1] [النساء ١١٣]

---

(١) الحياة الربانية والعلم للدكتور يوسف القرضاوي ص٧٦ - ٧٨ باختصار وتصرف مكتبة وهبة ط١ ١٤١٦ – ١٩٩٥ .

ثانيا: فضل العلم والحث على طلبه في السنة المطهرة

كما اعتنى القرآن الكريم بطلب العلم والحث على بذله وتحصيله اعتنت السنة كذلك، فوردت عشرات الأحاديث في متون السنة الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها تحث على طلب العلم، وترغب في تحصيله .

فعلى سبيل المثال لا الحصر ذكر البخاري (رحمه الله) في صحيحه في كتاب العلم خمسة وسبعون حديثا موزعة على واحد وخمسين بابا ،

وذكر الإمام مسلم (رحمه الله) في صحيحة في كتاب العلم ستة أبواب تنتظم ستة عشر حديثا

وذكر الإمام الترمذي (رحمه الله) تسعة عشر باب في أبواب العلم تنتظم خمسة وأربعين حديثا ،

وذكر أبو داود - رحمه الله - في السنن ثلاثة عشر بابا تنتظم سبعة وعشرين حديثا.[1]

وذكر ابن ماجة في السنن في المقدمة سبعة أبواب تنتظم ستة وأربعين حديثا[2]

ومن بين هذه الأحاديث ما رواه البخاري بسنده :أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد ، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث

---

(١) سنن أبي داوود الأبواب من ١ – ١٢، وينظر الأحاديث من ٣٦٤١ – ٣٦٦٨.

(٢) سنن ابن ماجة المقدمة الأبواب من ١٧ – ٢٤، وينظر الأحاديث من ٢٢٠ – ٢٦٦، المصنف لابن ابي شيبة ٦ / ١٨٧ – ١٨٨ .

فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه).[١]

وروى بسنده عن(عبد الله بن مسعود) قال: قال النبي ﷺ : (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها).[٢]

وروى بسنده عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال:

((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجدب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في **دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم،** ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، **ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به)).**[٣]

وروى بسنده عن أنس قال: **قال رسول الله** ﷺ : (إن من أشراط الساعة: أن يرفع العلم ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا).[٤]

وروى بسنده عن (أنس) قال: "لأحدثكم حديثا لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول:(من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل،

---

(١) كتاب العلم، باب: من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها

(٢) كتاب العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة.

(٣) كتاب العلم، باب: فضل من علم وعلم.

(٤) كتاب العلم : باب : باب: رفع العلم وظهور الجهل

ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد).[١]

وروى بسنده عن (ابن عمر) قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: (بينما أنا نائم، أتيت بقدح لبن، فشربت حتى إني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب). قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: (العلم).[٢]

وروى بسنده أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها، فأدبها فأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها **فتزوجها، فله أجران)**.[٣]

وروى بسنده عن (عبد **الله بن عمرو بن العاص) قال:**

سمعت رسول الله ﷺ **يقول: (إن الله لا يقبض** العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا).[٤]

وروى الترمذي بسنده عن (ابن عباس)أن رسول الله ﷺ قال: - "من يريد الله به خيراً يفقهه في الدين" [٥].

---

(١) السابق نفسه

(٢) السابق : باب: فضل العلم.

(٣) السابق : باب: تعليم الرجل أمته وأهله.

(٤) السابق : باب كيف يقبض العلم

(٥) رواه الترمذي في كتاب أبواب العلم عن رسول الله ﷺ : باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين

وروى بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ . من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة".[١]

وروى الترمذي بسنده عن(أنس بن مالك) قال: قال رسول الله ﷺ: من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع. هذا حديث حسن غريب. ورواه بعضهم فلم يرفعه.[٢]

وروى بسنده عن (أبي هريرة) قال: قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار". [٣]

وروى بسنده عن(زيد بن ثابت) سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه". [٤]

طلب العلم وفضله عند الصحابة والتابعين

حرص الصحابة رضوان عليهم على تعلم العلم، فقد رباهم الرسول ﷺ على ذلك، وحثهم عليه، ورغبهم فيه حتى صار سجية من سجاياهم، وطبعا من طباعهم، فقد كان بعضهم يصاحب النبي ﷺ فلا يكاد يفارقه حتى حفظ من النبي ﷺالكثير كأبي هريرة وغيره، ومن شغله السعي للرزق وغيره كان يتناوب هو وصاحبه على مجلس النبي ﷺ حتى لا يفوتهم شيء من علمه، وهاك بعض الآثار التي ذكرها صاحب الإحياء ـ رحمه الله ـ :

---

(١) السابق باب : باب فضل طلب العلم

(٢) السابق نفسه

(٣) السابق باب ما جاء في كتمان العلم

(٤) السابق : باب في الحث على تبليغ السماع .

قال (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه (لكميل): " يا كميل العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق ".

وقال (علي) أيضاً رضي الله عنه: "العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه" وقال رضي الله عنه نظماً:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم — على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ماكان يحسنه — والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً — الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم. الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

وقال(ابن عباس) رضي الله عنهما: خير سليمان بن داود "عليهما السلام" بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

وسئل (ابن المبارك): "من الناس فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك قال: الزهاد. قيل: فمن السفلة قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين" .

ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه بل لم يخلق إلا للعلم.

وقال بعض العلماء: "ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم وأي شيء فاته من أدرك العلم".

وقال (فتح الموصلي) رحمه الله: "أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا: بلى قال: كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت" .

ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته كما أن غذاء الجسم الطعام ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعاً فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيماً ثم لا ينفعه وذلك كإحساس الآمن خوفه والمفيق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وقال (الحسن)رحمه الله:" يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء".

وقال (ابن مسعود) رضي الله عنه:" عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه موت رواته فوالذي نفسي بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم".

وقال (ابن عباس) رضي الله عنهما:" تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها وكذلك عن (أبي هريرة)رضي الله عنه و(أحمد بن حنبل) رحمه الله.

وقال (الحسن) في قوله تعالى " ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة" إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة وفي الآخرة هي الجنة.

وقيل لبعض الحكماء:أي الأشياء تقتنى؟

قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك يعني العلم،

وقيل أراد بغرف السفينة هلاك بدنه بالموت.

وقال بعضهم: "من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار".

وقال (الشافعي) رحمة الله عليه: "من شرف للعلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح ومن رفع عنه حزن".

وقال (عمر) رضي الله عنه: يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب باباً من العلم رداه الله عز وجل بردائه فإن أذنب ذنباً استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ...

وقال (الزبير بن أبي بكر): كتب إلي أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالاً وإن استغنيت كان لك جمالاً.

وحكى ذلك في وصايا (لقمان) لابنه قال:" يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء".

وقال (ابن المبارك) رحمه الله: "عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالاً كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهم ورجل يفهم العلم ولا يطلبه.

وقال (أبو الدرداء) رضي الله عنه: "لأن أتعلم مسألة أحب إلي من قيام ليلة".

وقال أيضاً: "كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك".

وقال (عطاء): مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو.

وقال (عمر) رضي الله عنه: "موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه".

وقال (أبو الدرداء) رضي الله عنه: من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

وقال (ابن عباس) رضي الله عنهما: " معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر".

وقال بعض العلماء: العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل.

وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره.

وقال (الحسن) رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم: أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

وقال(عكرمة): إن لهذا العلم ثمناً.

قيل وما هو قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم.

قيل: وكيف ذلك قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وقيل: علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ما تجهل فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت.

وقال (معاذ بن جبل) في التعليم والتعلم " تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند

الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدي بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه يعبد، وبه يوحد، وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء[1]

أولوية العلم على العمل

العلم يسبق العمل، وهو دليله ومُرشده وفي حديث معاذ: "العِلْم إمامٌ، والعمل تابعُه"[2]

ولهذا وضع الإمام البخاريُّ بابًا في كتاب العلم من جامعه الصحيح جعل عنوانه: "باب: العلم قبل القول والعمل"، وقال شُرَّاحه: أراد به أن العلْم شرط في صِحَّة القول والعمل، فلا يُعتبران إلا به، فهو مُتقدِّم عليهما، مُصحِّح للنِّيَّة، المُصحِّحة للعمل، قالوا: فنَبَّه البخاري على ذلك، حتى لا

---

(١) ينظر إحياء علوم الدين للإمام ابي حامد الغزالي ١/ ١٧ - ١٨ باختصار وتصرف ط١ مكتبة الإيمان ١٤١٧ -١٩٦٦.

(٢) رَوَاه ابن عبد البر وغيره عن معاذ مرفوعًا وموقوفًا، والصواب وَقْفه.

يَسبق إلى الذهن ـ من قولهم: بأن العلم لا ينفع إلا بالعمل ـ تهوين أمر العلم، والتساهل في طلبه.

واحتجَّ البخاري لِما ذكره ببعض الآيات والأحاديث الدالة على دَعْواه.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّه لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وللمُؤْمِنِينَ والمُؤْمناتِ﴾ (محمد: ١٩) فأمر رسوله بالعلم بالتوحيد **أولاً**، ثم ثنَّى بالاستغفار، وهو عمل. والخطاب وإن كان للنبي ـ صلى الله **عليه وسلم** ـ فهو مُتناوِل لأُمَّته.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّما يَخشَى اللهَ مِنْ عبادِهِ العُلَماءُ﴾ (فاطر:٢٨)، فالعلم هو الذي يُورِث الخشية، الدافعة إلى العمل.

ومن الأحاديث: قوله ﷺ ـ: "مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهه في الدِّين" [١]

لأنه إذا فَقه عَمِلَ، وأَحْسَنَ ما عَمِلَ.

مما يُستأنَس به لتقديم العلم على العمل: أن أول ما نَزَلَ **من القرآن**: (اقرأ)، والقراءة مِفْتاح العِلْم، ثم نزل العمل في مثل: ﴿يَا أَيُّها المُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤.١).

وإنما كان العلم مُقدَّمًا على العمل؛ لأنه هو الذي يُميِّز الحق **من الباطل** في الاعتقادات، والصواب من الخطأ في المقولات، والمسنون **من المُبتدَع في** العبادات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والحلال من **الحرام في** التصرُّفات، والفضيلة من الرذيلة في الأخلاق، والمقبول من **المردود في** المعايير، والراجح من المرجوح في الأقوال والأعمال.

---

(١) سبق تخريجه

ولهذا وجدنا كثيرًا من المُصنِّفين من علمائنا السابقين يبد أن مصنفاتهم بـ "كتاب العلم".

مثل ما صنع(الإمام الغزالي)في كتابَيْه: "إحياء علوم الدين"، و"مِنهاج العابدين" وكذلك فعل (الحافظ المنذري) في كتابه "الترغيب والترهيب"، فبعد ذكر أحاديث في النِّيَّة والإخلاص واتِّباع الكتاب والسُّنَّة - بدأ بكتاب "العِلْم".

وما أصدق ما قاله الخليفة الراشد (عمر بن عبد العزيز): "مَن عمل في غير علم كان ما يُفسِد أكثر مما يُصلِح" ١

وهذا واضح في بعض الفئات من المسلمين، الذين لم تكن تَنْقُصهم التقوى أو الإخلاص والحماس، وإنما كان ينقصهم العلم والفَهْم بمقاصد الشرع، وحقائق الدِّين.

وهذا ما وُصِف به الخوارج الذين قاتلوا عليَّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - على فضله ومكانته في نُصْرة الإسلام، وقُرْبه من رسول الله نَسَبًا وصِهرًا وحُبًّا، واستحلُّوا دَمَه ودماء مَن سواهم من المسلمين، يتقرَّبون بذلك إلى الله!!

وهؤلاء امتداد لِمَن اعترض على قِسْمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعض الأموال، فقال له بجلافة وجهالة: اعدلْ! فقال: "ويلكَ! ومَن يعدلْ إذا لم أعدلْ؟ قد خِبْتُ إذن وخَسِرْتُ إن لم أكن أعدل"!

وفي رواية: أن هذا الجِلْفَ الجافي قال له: يا رسول الله، اتَّقِ الله! قال: "أَوَ لستُ أحقَّ أهل الأرض أن يتقي الله"؟!

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: ١/٢٧، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

لم يفقه هذا ومثله سياسة تأليف القلوب، وما تجلبه من مصالح عظيمة للأمة، وقد شرعها الله في كتابه، وأجاز الصرف فيها من الصدقات، فكيف من الغنائم والفيء؟

ولمَّا سأل بعض الصحابة قتْل هذا المُتطاول مَنَعَه الرسول الكريم وحذَّر من ظهور طائفة على شاكِلته وَصَفَهم بقوله: "تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرؤون القرآن ولا يُجاوِز حناجرهم، يمرقون من الدِّين كما يَمْرق السَّهْم من الرَّمِيَّة".

ومعنى: "لا يُجاوِز حناجرهم": أي لا تفقهه قلوبهم، ولا تستضيء به عقولهم، ولا ينتفعون بما تَلوْا منه، رغم كثرة الصلاة والصيام.

ومما وصفهم به كذلك: أنهم "يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان"

فآفة هؤلاء ليستْ في ضمائرهم ولا نِيَّاتهم، بل في عقولهم وأفهامهم، ولهذا وُصِفُوا في حديث آخر بأنهم: "حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام"

وإنما أُتِيَ هؤلاء من قِلَّة العلم، ونقص الفقه، فلم ينتفعوا بكتاب الله، مع أنهم يتلونه رطبًا، لكنها تلاوة بلا فِقْه، وربما فقهوه فِقْهًا أعوج، يُناقِض ما أراد به مُنزِّله تبارك وتعالى.

ولهذا حذَّر الإمام الجليل (الحسن البصري) من الإيغال في التعبُّد والعمل، قبل التحصُّن بالعلم والتفقه، وقال في ذلك كلمته البليغة المُعبِّرة: "العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يُفسِد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضرُّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضرُّ بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا

بأسيافهم على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، ولو طلبوا العلم لم يَدُلَّهم على ما فعلوا"[١]

حكم طلب العلم : العلم إما أن يكون شرعيا ، وهو المستفاد من الشرع ، أو غير شرعي، وطلب العلوم الشرعية مطلوب من حيث الجملة ، ويختلف حكم طلبها باختلاف الحاجة إليها . فمنها ما طلبه فرض عين ، وهو تعلم المكلف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به ، ككيفية الوضوء والصلاة ونحوها ، وحمل عليه بعضهم حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : { طلب العلم فريضة على كل مسلم } . قال (النووي) : وهذا الحديث وإن لم يكن ثابتا فمعناه صحيح . ثم إن هذه الأشياء لا يجب طلبها إلا بعد وجوبها ، ويجب من ذلك كله ما يتوقف أداء الواجب عليه غالبا دون ما يطرأ نادرا ، فإن وقع وجب التعلم حينئذ ، فيجب على من أراد البيع أن يتعلم أحكام ما يقدم عليه من المبايعات ، كما يجب معرفة ما يحل وما يحرم من المأكول ، والمشروب ، والملبوس ، ونحوها مما لا غنى له عنه غالبا ، وكذلك أحكام عشرة النساء إن كان له زوجة ، ثم إذا كان الواجب على الفور كان تعلم الكيفية على الفور ، وإن كان على التراخي كالحج فعلى التراخي عند من يقول بذلك . ومنها ما طلبه فرض كفاية ، وهو تحصيل ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية كحفظ القرآن، والأحاديث، وعلومهما ، والأصول ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والتصريف، ومعرفة رواة الحديث ، والإجماع ، والخلاف .

---

(١) الحياة الربانية والعلم د. يوسف القرضاوي ص ٢٦ -٤٣ باختصار وتصرف .

والمراد بفرض الكفاية تحصيل ذلك الشيء من المكلفين به أو بعضهم، ويعم وجوبه جميع المخاطبين به، فإذا فعله من تحصل به الكفاية سقط الحرج عن الباقين ، وإذا قام به جمع تحصل الكفاية ببعضهم فكلهم سواء في حكم القيام بالفرض في الثواب وغيره ، فإذا صلى على جنازة جمع ثم جمع ثم جمع فالكل يقع فرض كفاية ، ولو أطبقوا كلهم على تركه أثم كل من لا عذر له ممن علم ذلك وأمكنه القيام به . ومنها ما طلبه نفل ، كالتبحر في أصول الأدلة ، والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية

أما العلوم غير الشرعية فيعتريها الأحكام التكليفية الخمسة ، إذ منها ما طلبه فرض كفاية ، كالعلوم التي لا يستغنى عنها في قوام أمر الدنيا ، كالطب ، إذ هو ضروري لبقاء الأبدان ، والحساب ، فإنه ضروري في المعاملات ، وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها . ومنها ما يعد طلبه فضيلة وهو التعمق في دقائق الحساب ، والطب ، وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه . ومنها ما طلبه محرم ، كطلب تعلم السحر والشعوذة ، والتنجيم ، وكل ما كان سببا لإثارة الشكوك ، ويتفاوت في التحريم .١

ويقول (الجصاص) تعقيبا على قول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ التوبة١٢٢

(١) الموسوعة الفقهية ٢٩ / ٧٨ – ٧٩ .

ويقول (السرخسي) في المبسوط : فإن أقوى الفرائض بعد الإيمان بالله (تعالى) طلب العلم كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) والعلم ميراث النبوة كما جاء في الحديث (أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) [١]

وقد روى زياد بن ميمون عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ، وهذا عندنا ينصرف على معنيين : أحدهما : طلب العلم فيما يبتلى به الإنسان من أمور دينه فعليه أن يتعلمه ، مثل من لا يعرف حدود الصلاة وفروضها وحضور وقتها فعليه أن يتعلمها ، ومثل من ملك مائتي درهم فعليه أن يتعلم ما يجب عليه فيها ، وكذلك الصوم ، والحج وسائر الفروض . والمعنى الآخر : أنه فرض على كل مسلم ، إلا أنه على الكفاية إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين .[٢]

ويقول الإمام أبوحامد الغزالي ـ رحمه الله ـ :

اختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده فقال المتكلمون: هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته.

---

(١) المبسوط ١ / ٣ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٣٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٦٠٢ .

وقال الفقهاء: هو علم الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل.

وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها.

وقال المتصوفة: المراد به هذا العلم فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل.

وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان.

وقال بعضهم: هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه.

وقال (أبو طالب المكي): هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم " بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله " إلى آخر الحديث لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب.

والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره: وهو أن العلم ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة.

والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك، فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول"لا إله إلا الله محمد رسول الله"

فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له...

أما الفعل: فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة...

فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم: وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين.

فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام...

فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكاً حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله

وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين...

وأما ما ينبغي تركه فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه ...

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك.

ولو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين.[1]

أدب العالم والمتعلم

آداب العالم :

أولا : أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى

ولا يقصد توصلا إلى غرض دنيوي: كتحصيل مال أو جاه أو شهرة أو سمعة، أو تكثر بالمشتغلين عليه ، أو المختلفين إليه ، أو نحو ذلك ، ولا يشين علمه وتعليمه بشيء من الطمع في رفق تحصل له من مشتغل عليه من خدمة أو مال أو نحوهما وإن قل ، ولو كان على صورة الهدية التي لولا اشتغاله عليه لما أهداها إليه .

وقد صح عن الشافعي (رحمه الله تعالى) أنه قال : " وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلي حرف منه " وقال (رحمه الله تعالى) : " ما ناظرت أحدا قط على الغلبة ، ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه " وقال : " ما كلمت أحدا قط إلا وددت أن يوفق ويسدد ، ويعان ، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ " .

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٢٦ -٢٨ باختصار وتصرف

وعن أبي يوسف (رحمه الله تعالى) قال : " يا قوم أريدوا بعلمكم الله فإني لم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى افتضح .

وليعلم أن العبرة بالعمل ؛ لا بكثرة العلم، وأن التقوى من أهم أسباب العلم، كما قال تعالي ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٢)، وأن العمل بالعلم يكون سبباً في قذفِ الفهم والعلم في قلب العبد . قال مالك رحمه الله : (العلمُ نورٌ يجعله اللهُ حيثُ يشاءُ، ليس بكثرة الرواية)[1]

وقد قيل لعلي بن أبى طالب ﷺ: هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشيءٍ ؟ فقال : (لا ، والذي فَلَق الحبَّةَ، وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه اللهُ عبداً في كتابه)[2] .
وقال ابن مسعود ﷺ : (ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية)[3].

وعليه أن يتأدَّب مع العلم الشريف، فلا يكونُ قصدُه المباهاةَ بجمعه، والتفاخرَ بطلبه، والمجادلةَ للعلماء، ومماراةَ السفهاء به، فذلك أدعى لذهاب بركته، وأجدر بتضييع ثوابه، فعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال : ﴿ لاَ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلاَ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلاَ تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ ﴾[4].

---

(١) حلية الأولياء ٣١٩/٦، وانظر : ترتيب المدارك ١٨٤/١، والمحدث الفاصل ص ٥٥٨ (٧٥٥)، وجامع بيان العلم ٢٥/٢ .

(٢)البخاري في كتاب : العلم، باب : كتابة العلم .

(٣)حلية الأولياء ١٣١/١ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب : الانتفاع بالعلم والعمل به ٩٣/١ (٢٥٤) وقال البوصيري في الزوائد : (رجال إسناده ثقات) .

وقال ابن مسعود ﷺ : (لا تعلَّموا العلمَ لثلاثٍ : لِتُمَاروا به السفهاءَ، أو لتجادلوا به الفقهاءَ، أو لتصرفوا به وجوهَ الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم وجهَ الله، فإنه يبقى ويذهب ما سواه)[١].

وعن أيوب بن أبي تَميمَةَ السَّخْتِيَاني قال : قال لي أبو قِلابة: (إذا أحدث الله لك علماً فأَحْدِثْ له عبادةً، ولا يَكُنْ همُّك أن تُحدِّثَ به)[٢].

قال الشافعي لأهل الحلقة : (تفقهوا مع فقهكم هذا بمذاهب الإخلاص، ولا تفقهوا بما يوديكم إلي ركوب القِلاص[٣] ....)[٤]

وقال إبراهيم النَّخَعِي : (من ابتغى شيئا من العلم يبتغى به وجه الله آتاه الله منه مايكفيه)[٥].

وما أحسن قول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:(لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفُتْيَا حتى يكون فيه خمسُ خصال : أولُها : أن تكون له نيَّةٌ، فإن لم يكن له نيَّةٌ لم يكنْ عليه نورٌ، ولا علي كلامه نورٌ . والثانية : أن يكون له علمٌ وحِلْمٌ ووقارٌ وسكينةٌ . والثالثة : أن يكون قوياً علي ما هو فيه وعلى معرفته . الرابعة : الكفاية، وإلا مضغه الناسُ، الخامسة : معرفة الناس)[٦] .

---

(١) الفقيه والمتفقه ٨٩/٢ . وانظر : الدارمي في المقدمة، باب : العمل بالعلم ٨٠/١ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١٨٨/١ .

(٣) القلاص : جمع الجمع، والجمع : قلائص وقلص، والمفرد : قَلُوص، والقَلُوص من النُّوق : الشابة، وهي بمنزلة الجارية من النساء . انظر : مختار الصحاح ص ٥٤٨ .

(٤) الفقيه والمتفقه ٨٩/٢ .

(٥) الدارمي في المقدمة، باب : العمل بالعلم ٨٢/١، وانظر : جامع بيان العلم وفضله ١٩١/١ .

(٦) إعلام الموقعين ١٩٩/٤ ، وينظر ضوابط التعامل مع السنة محاضرة مخطوطة للأستاذ الدكتور عبد الرحمن البر ص ٢ - ٤ .

ثانيا: أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها وحث عليها

والخلال الحميدة والشيم المرضية التي أرشد إليها من التزهد في الدنيا والتقلل منها ، وعدم المبالاة بفواتها والسخاء والجود ومكارم الأخلاق ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة ، والحلم والصبر والتنزه عن دنيء الاكتساب ، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع واجتناب الضحك والإكثار من المزح وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية كالتنظيف بإزالة الأوساخ، وتنظيف الإبط ، وإزالة الروائح الكريهة واجتناب الروائح المكروهة وتسريح اللحية .

ثالثا: الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس

وإن كانوا دونه بدرجات ، وهذه أدواء وأمراض يبتلى بها كثيرون من أصحاب الأنفس الخسيسات ، وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة بذم الله احترازا من المعاصي . وطريقه في نفي الرياء : أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة فلا يتشاغل بمراعاتهم فيتعب نفسه ويضر دينه ويحبط عمله ويرتكب ما يجلب سخط الله ويفوت رضاه ، وطريقه في نفي الإعجاب : أن يعلم أن العلم فضل من الله تعالى ومنة عارية فإن لله تعالى ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه وليس مالكا له ولا على يقين من دوامه . وطريقه في نفي الاحتقار : التأدب بما أدبنا الله تعالى ، قال الله تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) النجم ٣٢ وقال تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات ١٣ فربما كان هذا الذي يراه دونه أتقى لله

تعالى وأطهر قلبا ، وأخلص نية ، وأزكى عملا، ثم إنه لا يعلم ماذا يختم له به ، ففي الصحيح: (إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة) [١] الحديث نسأل الله العافية من كل داء .

رابعا: استعماله أحاديث التسبيح والتهليل ونحوهما

من الأذكار والدعوات وسائر الآداب الشرعيات .

خامسا: دوام مراقبته لله تعالى في علانيته وسره

محافظا على قراءة القرآن، ونوافل الصلوات والصوم وغيرها معولا على الله تعالى في كل أمره معتمدا عليه، مفوضا في كل الأحوال أمره إليه .

سادسا: أن لا يذل العلم، ولا يذهب به إلى مكان لا ينتسب إلى من يتعلمه منه ، وإن كان المتعلم كبير القدر، بل يصون العلم عن ذلك كما صانه السلف، وأخبارهم في هذا كثيرة مشهورة مع الخلفاء وغيرهم . فإن دعت إليه ضرورة أو اقتضت مصلحة راجحة على مفسدة ابتذاله ، رجونا أنه لا بأس به ما دامت الحالة هذه ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف في هذا . ومنها : أنه إذا فعل فعلا صحيحا جائزا في نفس الأمر ، ولكن ظاهره أنه حرام أو مكروه ، أو مخل بالمروءة ، ونحو ذلك ، فينبغي له أن يخبر أصحابه ومن يراه يفعل ذلك بحقيقة ذلك الفعل لينتفعوا ؛ ولئلا يأثموا بظنهم الباطل ؛ ولئلا ينفروا عنه ويمتنع الانتفاع بعلمه .

سابعا: ينبغي أن يظل مجتهدا في الاشتغال بالعلم قراءة وإقراء ، ومطالعة وتعليقا ، ومباحثة ومذاكرة وتصنيفا ، ولا يستنكف من التعلم

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء باب قوله تعالى: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ح٣١٥٤

ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين ، أو في علم آخر ، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده ، وإن كان دونه في جميع هذا ، ولا يستحي من السؤال عما لم يعلم ، فقد روينا عن عمر وابنه رضي الله عنهما قالا : " من رق وجهه رق علمه " . وعن مجاهد لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر .

ثامنا : بذل هذا العلم لمن يطلبه لأن التعليم هو الأصل الذي به قوام الدين، وبه يؤمن إمحاق العلم ، فهو من أهم أمور الدين ، وأعظم العبادات، وآكد فروض الكفايات ، قال الله تعالى :﴿ **وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ** ﴾ وقال تعالى :﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا**﴾ الآية . وفي الصحيح من طرق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : {ليبلغ الشاهد منكم الغائب } والأحاديث بمعناه كثيرة ، والإجماع منعقد عليه .

تاسعا: ينبغي أن لا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية ، فإنه يرجى له حسن النية، وقد قالوا : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، وينبغي أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية ، والشيم المرضية، ورياضة نفسه بالآداب والدقائق الخفية ، وتعوده الصيانة في جميع أموره الكامنة والجلية ...

عاشرا: لا يذكر الدرس وبه ما يزعجه كمرض ، أو جوع ، أو مدافعة الحدث ، أو شدة فرح وحزن ولا يطول مجلسه تطويلا يملهم أو يمنعهم فهم بعض الدروس أو ضبطه ؛ لأن المقصود إفادتهم وضبطهم ، فإذا صاروا إلى هذه الحالة فاته المقصود . وليكن مجلسه واسعا ولا يرفع صوته زيادة على الحاجة ، ولا يخفضه خفضا يمنع بعضهم كمال فهمه ، ويصون مجلسه من اللغط ، والحاضرين عن سوء الأدب في المباحثة ، وإذا ظهر من

أحدهم شيء من مبادئ ذلك تلطف في دفعه قبل انتشاره ، ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى ، فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة ، بل شأننا الرفق والصفاء ، واستفادة بعضنا من بعض ، واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة .

حادي عشر: ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري . معناه يكثر منها ، وليعلم أن معتقد المحققين أن قول العالم : لا أدري لا يضع منزلته ، بل هو دليل على عظم محله ، وتقواه ، وكمال معرفته ؛ لأن المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة ، بل يستدل بقوله : لا أدري على تقواه ، وأنه لا يجازف في فتواه ، وإنما يمتنع من (لا أدري) من قل علمه ، وقصرت معرفته ، وضعفت تقواه ؛ لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين الحاضرين، وهو جهالة منه ، فإنه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم ، ولا يرفعه ذلك عما عرف له من القصور، بل يستدل به على قصوره؛ لأنا إذا رأينا المحققين يقولون في كثير من الأوقات: لا أدري، وهذا القاصر لا يقولها أبدا علمنا أنهم يتورعون لعلمهم وتقواهم وأنه يجازف لجهله وقلة دينه .

ثاني عشر: ينبغي للمعلم أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل، ويختبر بذلك أفهامهم ويظهر فضل الفاضل ويثني عليه بذلك ، ترغيبا له وللباقين في الاشتغال والفكر في العلم وليتدربوا بذلك ويعتادوه ، ولا يعنف من غلط منهم في كل ذلك إلا أن يرى تعنيفه مصلحة له ، وإذا فرغ من تعليمهم أو إلقاء درس عليهم أمرهم بإعادته ، ليرسخ حفظهم له ، فإن أشكل عليهم منه شيء ما ، عاودوا الشيخ في إيضاحه .

ثالث عشر: ومن أهم ما يؤمر به ألا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم ، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله تعالى الكريم [1]

ويقول الإمام أبوحامد الغزالي ـ رحمه الله ـ :

اعلم أن للإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال: إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال.

وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله.

فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغني عن السؤال وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال: فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب.

ومهما اشتغل العالم بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه، ومن هذه الوظائف:

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار

---

(١) المجموع شرح المهذب ١/ ٥٤ - ٦٠ باختصار وتصرف

الدنيا: ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية.

ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك ونعوذ بالله منه.

الوظيفة الثانية: أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى[1]

الوظيفة الثالثة: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن ..

---

(١) هذه مسالة خلافية بين الفقهاء ولا مانع من اخذ الأجر على تعليم العلم إن كان العالم منقطعا لهذا التعليم وليست له حرفة اخرى يحصل بها الرزق .

الوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار

الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه.

ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول: ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ...

الوظيفة السادسة: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم " ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم " وقال علي رضي الله عنه (وأشار إلى صدره) " إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار.

فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه وقال عيسى عليه السلام: لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير ..

الوظيفة السابعة: أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر.

فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به.

ولذلك قال علي رضي الله عنه قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه.[1]

آداب المتعلم:

أولا: أما آداب المتعلم في نفسه ودرسه فكآداب المعلم. وينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح بقبول العلم وحفظه واستثماره، ففي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[2] وقالوا: تطبيب القلب للعلم كتطبيب الأرض للزراعة.

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٨٤ – ٨٩.

(٢) مسلم كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات ح١٥٩٩.

ثانيـا : ينبغـي أن يقطـع العلائـق الشـاغلة عـن كمـال الاجتهـاد في التحصيل ، ويرضى باليسير من القوت ، ويصبر على ضيق العيش . قال الشافعي (رحمه الله تعالى) : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس ، وضيق العيش ، وخدمة العلماء أفلح .

ثالثـا : ينبغي له أن يتواضع للعلم والمعلم فبتواضعه يناله ، وقد أمرنا بالتواضع مطلقا فهنا أولى ، وقد قالوا : العلم حرب للمتعالي ، كالسيل حرب للمكان العالي . وينقاد لمعلمه ، ويشاوره في أموره ، ويأتمر بأمره ، كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح ، وهذا أولى لتفاوت مرتبتهما . قالوا : ولا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وتحققت معرفته واشتهرت صيانته وسيادته ، فقد قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف : هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . ولا يكفي في أهلية التعليم أن يكون كثير العلم، بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية ، فإنها مرتبطة ، ويكون له دربة ودين وخلق جميل وذهن صحيح ، واطلاع تام . وقالوا : ولا تأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب من غير قراءة على شيوخ أو شيخ حاذق ، فمن لم يأخذه إلا من الكتب يقع في التصحيف ، ويكثر منه الغلط والتحريف . وينبغي أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ، ورجحانه على أكثر طبقته ، فهو أقرب إلى انتفاعه به ، ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه . وقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال : اللهم استر عيب معلمي عني ، ولا تذهب بركة علمه مني . وقال الشافعي (رحمه الله) : كنت أصفح الورقة بين يدي مالك (رحمه الله) صفحا رفيقا هيبة

له . لئلا يسمع وقعها . وقال الربيع : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له . وقال حمدان بن الأصفهاني : وكنت عند شريك (رحمه الله) فأتاه بعض أولاد المهدي ، فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه ، وأقبل علينا ثم عاد فعاد لمثل ذلك ، فقال : أتستخف بأولاد الخلفاء ؟ فقال : شريك : لا ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضعه ، فجثا على ركبتيه ، فقال شريك : هكذا يطلب العلم . وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية ، وأن تجلس أمامه ، ولا تشيرن عنده بيدك ، ولا تعمدن بعينك غيره ، ولا تقولن : قال فلان خلاف قوله ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تسار في مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه ، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته ، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء .

رابعا : أن يتحرى رضا المعلم (وإن خالف رأي نفسه) ولا يغتاب عنده ولا يفشي له سرا ، وأن يرد غيبته إذا سمعها ، فإن عجز فارق ذلك المجلس . وألا يدخل عليه بغير إذن ، وإذا دخل جماعة قدموا أفضلهم وأسنهم ، وأن يدخل كامل الهيبة ، فارغ القلب من الشواغل ، متطهرا متنظفا بسواك ، وقص شارب وظفر ، وإزالة كريه رائحة ، ويسلم على الحاضرين كلهم بصوت يسمعهم إسماعا محققا ، ويخص الشيخ بزيادة إكرام ، وكذلك يسلم إذا انصرف... ولا يتخطى رقاب الناس ، ويجلس حيث انتهى به المجلس إلا أن يصرح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدم والتخطي ، أو يعلم من حالهم إيثار ذلك ، ولا يقيم أحدا من مجلسه ، فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه إلا

أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين ، بأن يقرب من الشيخ ، ويذاكره مذاكرة ينتفع الحاضرون بها ، ولا يجلس وسط الحلقة إلا لضرورة . ولا بين صاحبين إلا برضاهما ، وإذا فسح له قعد وضم نفسه ، ويحرص على القرب من الشيخ ليفهم كلامه فهما كاملا بلا مشقة ، وهذا بشرط أن لا يرتفع في المجلس على أفضل منه ويتأدب مع رفقته وحاضري المجلس ، فإن تأدبه معهم تأدب مع الشيخ ، واحترام لمجلسه . ويقعد قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين ، ولا يرفع صوته رفعا بليغا من غير حاجة ، ولا يضحك ، ولا يكثر الكلام بلا حاجة ، ولا يعبث بيده ولا غيرها ، ولا يلتفت بلا حاجة ، بل يقبل على الشيخ مصغيا إليه ، ولا يسبقه إلى شرح مسألة أو جواب سؤال إلا أن يعلم من حال الشيخ إيثار ذلك ، ليستدل به على فضيلة المتعلم . ولا يقرأ عليه عند شغل قلب الشيخ وملله وغمه ، ونعاسه واستيقاظه ، ونحو ذلك مما يشق عليه ، أو يمنعه استيفاء الشرح . ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه . ولا يلح في السؤال إلحاحا مضجرا ، ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه ، ويتلطف في سؤاله ، ويحسن خطابه ، ولا يستحي من السؤال عما أشكل عليه ، بل يستوضحه أكمل استيضاح ، فمن رق وجهه رق علمه ، ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال . وإذا قال له الشيخ : أفهمت ؟ فلا يقل : نعم ، حتى يتضح له المقصود إيضاحا جليا ؛ لئلا يكذب ويفوته الفهم . ولا يستحي من قوله : لم أفهم ، لأن استثباته يحصل له مصالح عاجلة وآجلة ، فمن العاجلة : حفظه المسألة ، وسلامته من كذب ونفاق ، بإظهاره فهم ما لم يكن فهمه . ومنها : اعتقاد الشيخ اعتناءه ورغبته وكمال عقله وورعه ،

وملكه لنفسه وعدم نفاقه ، ومن الآجلة ثبوت الصواب في قلبه دائما ، واعتياده هذه الطريقة المرضية ، والأخلاق الرضية . وعن الخليل بن أحمد رحمه الله) : منزلة الجهل ، بين الحياء والأنفة . وينبغي إذا سمع الشيخ يقول مسألة ، أو يحكي حكاية وهو يحفظها ، أن يصغي لها إصغاء من لم يحفظها ، إلا إذا علم من حال الشيخ إيثاره علمه بأن المتعلم حافظها

خامسا : ينبغي أن يكون حريصا على التعلم ، مواظبا عليه في جميع أوقاته ليلا ونهارا ، حضرا أو سفرا ، ولا يذهب من أوقاته شيئا في غير العلم، إلا بقدر الضرورة ، لأكل ونوم قدرا لا بد منه ، ونحوهما كاستراحة يسيرة لإزالة الملل ، وشبه ذلك من الضروريات وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوتها ، وقد قال الشافعي (رحمه الله) في رسالته : " حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض دون طلبه ، وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصا واستنباطا ، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه " . وفي صحيح مسلم عن يحيى بن أبي كثير قال : " لا يستطاع العلم براحة الجسم. قال الخطيب البغدادي : أجود أوقات الحفظ الأسحار ، ثم نصف النهار ، ثم الغداة ، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع . قال : وأجود أماكن الحفظ الغرف ، وكل موضع بعد عن الملهيات ، وقال : وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات ، والخضرة ، والأنهار ، وقوارع الطرق . لأنها تمنع غالبا خلو القلب . وينبغي أن يصبر على جفوة شيخه ، وسوء خلقه ، ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله ، ويتأول لأفعاله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة ، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق

. وإذا جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار ، وأظهر أن الذنب له ، والعتب عليه ، فذلك أنفع له دينا ودنيا ، وأبقى لقلب شيخه . وقد قالوا : من لم يصبر على ذل التعلم بقي عمره في عماية الجهالة ، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا . ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما : (ذللت طالبا فعززت مطلوبا)

سادسا : ومن آدابه الحلم والأناة ، وأن يكون همته عالية ، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير ، وأن لا يسوف في اشتغاله ، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلت إذا تمكن منها ، وإن أمن حصولها بعد ساعة ؛ لأن للتأخير آفات ، ولأنه في الزمن الثاني يحصل غيرها ، وعن الربيع قال : " لم أر الشافعي آكلا بنهار ، ولا نائما بليل ، لاهتمامه بالتصنيف ، ولا يحمل نفسه ما لا تطيق مخافة الملل ، وهذا يختلف باختلاف الناس ، وإذا جاء مجلس الشيخ فلم يجده انتظره ولا يفوت درسه إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك ، بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه فلا يشق عليه بطلب القراءة في غيره . قال الخطيب : وإذا وجده نائما لا يستأذن عليه ، بل يصبر حتى يستيقظ أو ينصرف والاختيار الصبر ، كما كان ابن عباس والسلف يفعلون . وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط ، وحال الشباب وقوة البدن ، ونباهة الخاطر ، وقلة الشواغل ، قبل عوارض البطالة ، وارتفاع المنزلة ، فقد روينا عن عمر رضي الله عنه : " تفقهوا قبل أن تسودوا" وقال الشافعي : " تفقه قبل أن ترأس ، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه " . ويعتني بتصحيح درسه الذي يتحفظه ، تصحيحا متقنا على الشيخ ، ثم يحفظه حفظا محكما ، ثم بعد ذلك يكرره مرات ليرسخ رسوخا

متأكدا، ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظا جيدا ، ويبدأ درسه بالحمد لله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم والدعاء للعلماء ومشايخه ووالديه وسائر المسلمين ، ويبكر بدرسه لحديث :{اللهم بارك لأمتي في بكورها } ويداوم على تكرار محفوظاته ، ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالا ، بل يصحح على الشيخ كما ذكرنا ، فالاستقلال بذلك من أضر المفاسد وإلى هذا أشار الشافعي (رحمه الله) بقوله : " من تفقه من الكتب ضيع الأحكام " . وليذاكر بمحفوظاته ، وليدم الفكر فيها ، ويعتني بما يحصل فيها من الفوائد ، وليرافق بعض حاضري حلقة الشيخ في المذاكرة .

سابعا: تخير الأوقات المناسبة لمذاكرة العلم، وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك ، وكان جماعة منهم يبدءون من العشاء فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح . وينبغي أن يبدأ من دروسه على المشايخ ، **وفي الحفظ** والتكرار والمطالعة بالأهم فالأهم ، وأول ما يبتدئ به حفظ القرآن **العزيز فهو** أهم العلوم ، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا **لمن يحفظ القرآن** ، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه **وغيرهما** اشتغالا يؤدي إلى نسيان شيء منه . أو تعريضه للنسيان . وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصرا ، ويبدأ بالأهم ، ومن أهمها الفقه والنحو ، ثم الحديث والأصول ، ثم الباقي على ما تيسر ، ثم يشتغل باستشراح محفوظاته ، ويعتمد من الشيوخ في كل فن أكملهم في الصفات السابقة [1]

---

[1] - المجموع شرح المهذب ١/٦٥ – ٧٠.

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف.

قال ابن مسعود رضي **الله** عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب.

وقال بعضهم: إنما العلم **الخشية لقوله تعالى " إنما** يخشى الله من عباده العلماء " وكأنه أشار إلى **أخص ثمرات العلم.**

ولذلك قال بعض المحققين: معنى قولهم تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه " ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل " العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر .

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق.

وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته.

قال الشعبي " صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم "

وقد قال علي رضي الله عنه: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا تفشي له سراً ولا تغتابن أحداً عنده ولا تطلبن عثرته وإن زل قبلت معذرته وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ولا تجلس أمامه ...

الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة: فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه.

الوظيفة الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من

البقية فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى " وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ".

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم.

فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه .

الوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج.

الوظيفة الثامنة: أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وأن ذلك يراد به شيئان: أحدهما : شرف الثمرة والثاني: وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف.

ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها ، وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى: ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين.

وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه.

الوظيفة التاسعة: أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران...

الوظيفة العاشرة: أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره - ومعنى المهم ما يهمك - ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة.

وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً والبدن مركباً والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون.[1]

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٧٥ – ٨٤ .

بين العالم والمتعلم

ينبغي لكل واحد منهما أن لا يخل بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه، مما يمكن معه الاشتغال ، ويستشفي بالعلم ، ولا يسأل أحدا تعنتا وتعجيزا ، فالسائل تعنتا وتعجيزا لا يستحق جوابا ، وفي حديث النهي عن غلوطات المسائل . وأن يعتني بتحصيل الكتب شراء واستعارة ، ولا يشتغل بنسخها إن حصلت بالشراء ؛ لأن الاشتغال أهم إلا أن يتعذر الشراء ؛ لعدم الثمن ؛ أو لعدم الكتاب مع نفاسته فيستنسخه وإلا فلينسخه ولا يهتم بتحسين الخط بل بتصحيحه ، ولا يرتضي الاستعارة ، مع إمكان تحصيله ملكا فإن استعاره لم يبطئ به ؛ لئلا يفوت الانتفاع به على صاحبه ؛ ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه ، ولئلا يمتنع عن إعارته غيره . وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نثرا ونظما ، منها عن الزهري : إياك وغلول الكتب وهو حبسها عن أصحابها ، وعن الفضيل: ليس من أفعال أهل الورع ولا من أفعال الحكماء أن يأخذ سماع رجل وكتابه ، فيحبسه عنه ، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه .

وقال الخطيب : وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها، والمختار استحباب الإعارة لمن لا ضرر عليه في ذلك ؛ لأنه إعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل ، وروينا عن وكيع : أول بركة الحديث إعارة الكتب . وعن سفيان الثوري : من بخل بالعلم ابتلي بإحدى ثلاث : أن ينساه ، أو يموت ولا ينتفع به ، أو تذهب كتبه . وقال رجل لأبي العتاهية : أعرني

كتابك ، قال : ؟ إني أكره ذلك ، فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره ، فأعاره . ويستحب شكر المعير لإحسانه [1]

أخذ الأجرة على تعليم العلم

لا خلاف بين الفقهاء في جواز أخذ الرزق من بيت المال على تعليم القرآن وتدريس العلم النافع من الحديث والفقه ونحوهما ؛ لأن هذا الرزق ليس أجرة من كل وجه بل هو كالأجرة .

واختلف الفقهاء في الاستئجار لتعليم القرآن والحديث والفقه ونحوهما من العلوم الشرعية : فيرى متقدمو الحنفية (وهو المذهب عند الحنابلة) عدم صحة الاستئجار لتعليم القرآن والعلم الشرعي، كالفقه والحديث . لحديث (عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : علمت ناسا من أهل الصفة القرآن والكتابة، فأهدى إلي رجل منهم قوسا . قال : قلت : قوس، وليس بمال . قال : قلت : أتقلدها في سبيل الله، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وقصصت عليه القصة، فقلت : يا رسول الله، رجل أهدى إلي قوسا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عنها في سبيل الله، قال : إن كنت تحب أن تطوق طوقا من نار فأقبلها)[2] .

ولأنه استئجار لعمل مفروض، فلا يجوز، كالاستئجار للصوم والصلاة، ولأنه غير مقدور الاستيفاء في حق الأجير، لتعلقه بالمتعلم، فأشبه الاستئجار لحمل خشبة لا يقدر على حملها بنفسه، ولأن الاستئجار على تعليم القرآن والعلم سبب لتنفير الناس على تعليم القرآن والعلم، لأن ثقل

(١) المجموع شرح المهذب ١/ ٧١ باختصار وتصرف

(٢) ابن ماجة كتاب التجارات باب الأجرة على تعلم القرآن ح٢١٥٧

الأجر يمنعهم من ذلك، وإلى هذا أشار الله جل شأنه في قوله عز وجل : (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون)[١] فيؤدي إلى الرغبة عن هذه الطاعة، وهذا لا يجوز .

وذهب متأخرو الحنفية (وهو المختار للفتوى عندهم) والمالكية في قول، وهو القول الآخر عند الحنابلة (يؤخذ مما نقله أبو طالب عن أحمد) إلى جواز الاستئجار على تعليم القرآن والفقه، لخبر : (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله) ولما روي عن عبد الجبار بن عمر أنه قال : كل من سألت من أهل المدينة لا يرى بتعليم الغلمان بالأجر بأسا . ولأن الحفاظ والمعلمين (نظرا لعدم وجود عطيات لهم في بيت المال) ربما اشتغلوا بمعاشهم، فلا يتفرغون للتعليم حسبة، إذ حاجتهم تمنعهم من ذلك، فلو لم يفتح لهم باب التعليم بالأجر لذهب العلم وقل حفاظ القرآن . قال أحمد بن حنبل : التعليم أحب إلي من أن يتوكل لهؤلاء السلاطين، ومن أن يتوكل لرجل من عامة الناس في ضيعة، ومن أن يستدين ويتجر، لعله لا يقدر على الوفاء فيلقى الله بأمانات الناس . والمذهب عند المالكية : جواز الاستئجار على تعليم القرآن، أما الإجارة على تعليم الفقه وغيره من العلوم، كالنحو والأصول والفرائض فإنها مكروهة عندهم . وفرق المالكية بين جواز الإجارة على تعليم القرآن، وكراهتها على تعليم غيره : بأن القرآن كله حق لا شك فيه، بخلاف ما عداه مما هو ثابت بالاجتهاد، فإن فيه الحق والباطل

---

(١) سورة القلم ٤٦.

. وأيضا فإن تعليم الفقه بأجرة ليس عليه العمل بخلاف القرآن، كما أن أخذ الأجرة على تعليمه يؤدي إلى تقليل طالبه .

وذهب الشافعية (على الأصح) إلى جواز الاستئجار لتعليم القرآن بشرط تعيين السورة والآيات التي يعلمها ، فإن أخل بأحدهما لم يصح . وقيل : لا يشترط تعيين واحد منهما . أما الاستئجار لتدريس العلم فقالوا : بعدم جوازه إلا أن يكون الاستئجار لتعليم مسألة أو مسائل مضبوطة ، فيجوز . وقد فصل الفقهاء القول في شروط الاستئجار على تعليم القرآن والعلم، عند الكلام عن الاستئجار على الطاعات.[1]

والذي نراه مناسبا لهذا العصر أن أخذ الأجرة على تعليم العلم - أيا كان - هذا العلم علما شرعيا أو غير شرعي جائز ما دام العلم مباحا ينتفع به، وذلك لانقطاع الناس له، وعدم وجود الأوقاف التي كانت توقف عليهم، وصعوبة اشتغالهم بعمل آخر يحصلون عن طريقه رزقهم .

يقول ابن حزم الظاهري (رحمه الله : والإجارة جائزة على تعليم القرآن، وعلى تعليم العلم مشاهرة وجملة ، وكل ذلك جائز - وعلى الرقي، وعلى نسخ المصاحف، ونسخ كتب العلم ؛ لأنه لم يأت في النهي عن ذلك نص، بل قد جاءت الإباحة - : كما روينا من طريق البخاري.. عن ابن عباس (أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ مروا بماء فيهم لديغ أو سليم فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال : هل فيكم من راق ؟ إن في الماء رجلا لديغا أو سليما فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ فجاء بالشاء إلى أصحابه

---

(١) الموسوعة الفقهية ١٣ / ١٥ - ١٧، وينظر تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق٥ / ١٢٤ – ١٢٥، شرح مختصر خليل ٥ / ٢٤٠، تحفة الحبيب على شرح الخطيب، الإنصاف ١/ ٢٠٩، دقائق أولي النهى ١ / ١٣٢ .

فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرا حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجرا ؟ فقال رسول الله ﷺ إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله).

والخبر المشهور (أن رسول الله ﷺ زوج امرأة من رجل بما معه من القرآن) أي ليعلمها إياه وهو قول مالك، والشافعي، وأبي سليمان .

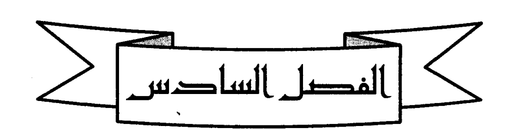
وقد روى ابن حزم الأحاديث التي تحرم أخذ الأجرة على تعليم العلم وقراءة القرآن ثم حكم عليها كلها بالضعف، ثم ذكر آثارا أخرى تفيد الجواز فقال

وقد ذكرنا عن سعد، وعمار أنهما أعطيا على قراءة القرآن . وروينا من طريق ابن أبي شيبة قال : كان بالمدينة ثلاثة معلمين يعلمون الصبيان، فكان عمر بن الخطاب يرزق كل واحد منهم خمسة عشر كل شهر ...

ومن طريق ابن أبي شيبة قال : ما علمت أحدا كره أجر المعلم . وصح عن عطاء، وأبي قلابة إباحة أجر المعلم على تعليم القرآن . وأجاز الحسن، وعلقمة في أحد قوليه الأجرة على نسخ المصاحف .[1]

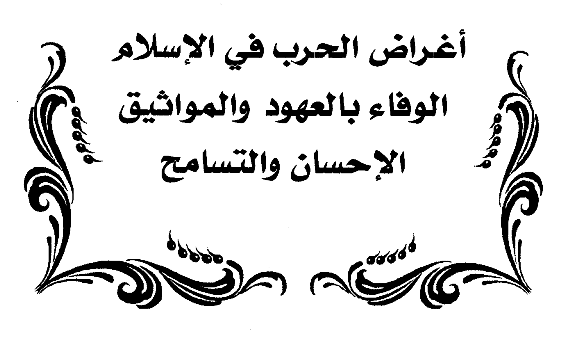
---

(١) المحلى ٧/ ١٨ – ٢١.



الفصل السادس

العلاقات الاجتماعية والدولية
في السلم والحرب



العلاقات الاجتماعية والدولية في السلم والحرب

الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هي السلم والمسالمة، وليس البغي والعدوان، وإن حدث قتال بينهم وبين غيرهم فالقتال عندهم وسيلة وليس غاية، هو وسيلة لنشر دعوة الله في الأرض، وعرضها على الناس نقية لا غبش فيها ، واضحة لا غموض معها ثم ترك الناس يختارون ما يشاؤون (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (لا إكراه في الدين) ومن ثم تقوم الحرب في الإسلام على قيم ومباديء تهذب من حدتها وتضبط ثورتها وسنقف على شيء من هذا من خلال معالجة النقاط التالية:

١- أهداف القتال في الإسلام.

٢- الوفاء بالعهود والمواثيق .

٣ - الإحسان والتسامح .

أولا : أهداف القتال في الإسلام

وقبل أن نقف على أهداف القتال في الإسلام نعرض لمعنى القتال ومعنى الجهاد، والفرق بينهما، ثم نذكر ما ورد فيهما من القرآن والسنة مقارنة بما ورد في الكتب السماوية السابقة التي نالها التحريف واعتراها التشوية.

تعريف الجهاد:

الجهاد في اللغة: مصدر جاهد يجاهد جهادا ومجاهدة.

وهي مشتقة من مادة: جهد يجهد جَهدا: تقول: جَهَد الرجل في كذا: أي جد وبالغ. وجهد الرجل دابته: أي حمل عليها في السير فوق طاقتها، كما في معجم ألفاظ القرآن الكريم.

والمصدر: الجهد - بفتح الجيم - والضم لغة فيه. وجمهور العلماء على التفريق بين لغتي الفتح والضم. فالجهد - بفتح الجيم - الغاية. يقال: اجهد في هذا الأمر جَهْدك. أي ابلغ غايتك.

والجُهد - بضم الجيم - الوسع والطاقة. تقول: هذا جهدي أي وسعي وطاقتي.

وجاهد مجاهدة وجهادا: بذل وسعه في المدافعة والمغالبة، فهو مجاهد، وهم مجاهدون.

وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن: ورد يراد به: بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها.[1] انتهى.

وقال العلامة الراغب الأصفهاني في (مفردات القرآن):

الجَهد والجُهد: الطاقة والمشقة. وقيل: الجهد - بالفتح - المشقة، والجُهد: الوسع.

---

(١) معجم الفاظ القرآن الكريم. عمل مجمع اللغة العربية (١/٢٢٦) طبع الهيئة المصرية للكتاب.

والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة. يقال: جهدت رأيي وأجهدته: أتعبته بالفكر.

والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

والجهاد ثلاث أضراب:

- مجاهدة العدو الظاهر. - ومجاهدة الشيطان.

- ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ [التوبة: ٤١] ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ...﴾ [الأنفال: ٧٧].

والمجاهدة تكون باليد واللسان. قال ﷺ: "جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم"[١]

الجهاد والقتال

إن معنى الجهاد أشمل من معنى القتال، فالقتال نوع من أنواع الجهاد، والعلاقة بين الجهاد والقتال علاقة بين العام والخاص.

ذلك: أن لفظ (الجهاد) غير لفظ (القتال) لغة. فـ(الجهاد) مصدر (جاهد يجاهد، جهادا ومجاهدة) مشتق من (جهد يجهد جهدا) أي ارتكب المشقة، أو احتمل المشقة. أو بذل الجهد.

بخلاف لفظة (القتال) فهي مصدر على وزن (فِعال) من قاتل يقاتل قتالا، وهي مشتقة من كلمة: قتل يقتل قتلا. أي أزهق روح غيره.

---

(١) رواه النسائي بلفظ "جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم" في الجهاد باب وجوب الجهاد وأبو داود كتاب الجهاد باب ترك الغزو ح٢٥٠٤.

فالكلمتان مختلفتان لغة : اشتقاقا ودلالة . فالجهاد من غير شك أوسع دائرة من القتال .

وهما كذلك مختلفتان شرعا ، وإن غلب على الفقهاء المتأخرين تعريف الجهاد بأنه القتال في سبيل الله . وذلك باعتبار أنه أعلى مراتب الجهاد .

ولكن هذا لا ينفي أن حكمهما مختلف عند التحقيق والتفصيل ، وأن دائرة الجهاد تتسع للقتال ولغيره من مراتب الجهاد .

فحكم الجهاد : أنه واجب على كل مسلم ومسلمة ، بنفسه أو بماله ، أو بلسانه ، أو بقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

ولا يتم إيمان المسلم إلا بهذا الجهاد ، كما قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحجرات : ١٥]

بل المؤمنون مطالبون بأن يجاهدوا في الله (حق جهاده) لا مجرد جهاد ، فكما أنهم مأمورون أن يتقوا الله حق تقاته : مأمورون أن يجاهدوا في الله حق جهاده ، كما قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الحج : ٧٧ -٧٨]

ومعنى هذا أن كل مسلم يجب أن يكون مجاهدا ، وليس من الضروري أن يكون كل مسلم مقاتلا ، فهذا إنما يجب بأسبابه، وهو مما يكفي فيه البعض عن البعض ، إلا في حالات معينة .

وهذا يعبر عنه الفقهاء بقولهم : جنس الجهاد واجب على كل مسلم .

ابن القيم يشرح أنواع الجهاد ومراتبه في الهدي النبوي :

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد :لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة ، كما لهم الرفعة في الدنيا ، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة ، كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه ، واستولى على أنواعه كلها : فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان ، والدعوة والبيان، والسيف والسنان . وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد ، بقلبه ، ولسانه ، ويده . ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا ، وأعظمهم عند الله قدرا ....

مراتب الجهاد كما شرحها ابن القيم :

ثم يوضح الإمام ابن القيم ببيانه المشرق ، الموثق بأدلة الشرع : مراتب الجهاد ، التي أوصلها إلى ثلاث عشرة مرتبة ، فيقول رحمه الله :

إذا عرف هذا ، فالجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين .

مراتب جهاد النفس أربع مراتب أيضا :

إحداها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذي لا فلاح لها ، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه ، شقيت في الدارين .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ، ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله . فإذا استكمل هذه المراتب الأربع ، صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق ، ويعمل به ، ويعلمه ، فمن علم وعمل وعلّم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السماوات .

جهاد الشيطان مرتبتان :

وأما جهاد الشيطان ، فمرتبتان ، إحداهما : جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان .

الثانية : جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات ، فالجهاد الأول : يكون بعدّة اليقين ، والثاني : يكون بعدّة الصبر . قال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة : ٢٤].

فأخبر أن إمامة الدين ، إنما تنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

جهاد الكفار أربع مراتب :

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب : بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان

جهاد الظلمة والفسّاق ثلاث مراتب :

وأما جهاد أرباب الظلم ، والبدع ، والمنكرات ، فثلاث مراتب : الأولى : باليد إذا قدر ، فإن عجز ، انتقل إلى اللسان ، فإن عجز ، جاهد بقلبه ، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد ، و" من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق "[1] .

لا جهاد إلا بهجرة وإيمان :

ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة ، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان ، والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة : ٢١٨] .

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد ، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد ، والإخلاص ، والإنابة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والتوبة ، وهجرة إلى رسوله بالمتابعة ، والانقياد لأمره ، والتصديق بخبره ، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره : " فمن كانت هجرته لله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه " . وفرضٌ عليه جهادُ نفسه في ذات الله ، وجهاد شيطانه ، فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد .

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠) في الإمارة : باب دم من مات ، ولم يحدث نفسه بالغزو من حديث أبي هريرة.

وأما جهاد الكفار والمنافقين ، فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد [١].

وبهذا نرى أن كلمة (الجهاد) أوسع في المعنى من كلمة (القتال) وإن كان الذي استقر في العرف الفقهي: أن كلمة الجهاد تعني القتال، مع أن اللفظ عام يشمل: المجاهد لنفسه، والمجاهد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول كلمة الحق عند السلطان الجائر ونحو ذلك، كما يشمل المقاتل في سبيل الله.

وخص شرعا بأنه: قتال الكفار. وقال بعض الفقهاء: بذل الجهد في قتال الكفار أو البغاة.

وعرفه بعضهم بأنه: الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله.

وعرفه غيرهم بأنه: بذل الوسع والطاقة في القتال في سبيل الله بالنفس، أو معاونة بمال، أو رأي أو لسان، أو تكثير سواد أو غير ذلك.[٢]

قال في مطالب أولي النهى: قال الشيخ تقي الدين (يعني ابن تيمية):

(والأمر بالجهاد - يعني الجهاد المأمور به - منه ما يكون بالقلب كالعزم عليه، والدعوة إلى الإسلام وشرائعه، والحجة أي إقامتها على المبطل، والبيان، أي بيان الحق وإزالة الشبه، والرأي والتدبير فيما فيه نفع للمسلمين، والبدن، أي القتال بنفسه، فيجب الجهاد بغاية ما يمكنه من هذه الأمور.[٣]

---

(١) زاد المعاد (٣/٥ -١٢) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب الأرناؤوط باختصار وتصرف.

(٢) انظر: بدائع الصنائع للكاساني (٧/٩٧).

(٣) الدستور الأخلاقي للحرب في الإسلام بحث مخطوط لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي باختصار وتصرف، وينظر ايضا مطالب أولى النهى شرح غاية المنتهى ٢/ ٥٠١ - ٥٠٢ .وينظر الإنصاف ٤/ ١١٦، كشاف القناع عن متن الإقناع ٣ / ٣٧ .

الجهاد في القرآن الكريم

لقد حفل القرآن الكريم بالآيات التي تحث على الجهاد في سبيل الله وترغب فيه وتشرح أحكامه وآدابه وتحذر من التقاعس عنه .

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [التوبة ٣٨ -٤١]

﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ١١١]

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ

إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة ١٩٠ - ١٩٤] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة ٢١٦ - ٢١٨]

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً * الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء ١٧٤ - ١٧٦]

ثم أرشدهم إلى أن التربية على شعائر الله والاستقامة على طريقته مقدمة حتمية ولازمة للجهاد في سبيل الله والدخول إلى هذا الميدان بغير الاستعداد

النفسي والتربوي على معانيه يؤذن بالفشل فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة ٢٤٦]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء ٧٧]

ثم أعذر أصحاب الأعذار الحقيقة، وتوعد أصحاب الأعذار الواهية من المنافقين فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة ٩١ - ٩٣]

﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء ٩٥]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران ١٥٦ - ١٥٨]

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة ١٢٠ - ١٢١]

وأمر المسلمين بأن يعدوا ما استطاعوا من القوة للدفاع عن عقيدتهم وأرضهم وأعراضهم فقال:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال ٦٠]

الجهاد في السنة المطهرة

اعتنت السنة المطهرة بأمر الجهاد كما عني به القرآن الكريم وأتت الأحاديث النبوية المشرفة تؤصل لموضوع الجهاد وتضع أحكامه وآدابه وتبين أسسه وضوابطه وقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: (الصلاة على ميقاتها). قلت: ثم أي؟ قال: (ثم بر الوالدين). قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). فسكت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو استزدته لزادني. [١]

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا).[٢]

وروى أن أبا هريرة رضي الله عنه قال:جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: (لا أجده). قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر). قال: ومن يستطيع ذلك. قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن في طوله، فيكتب له حسنات.[٣]

وروى أن أبا هريرة قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه: أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أوغنيمة).[٤]

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من عبد يموت، له عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له

---

(١) البخاري كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير ح ٢٦٣٠.

(٢) السابق ح ٢٦٣١.

(٣) السابق ح ٢٦٣٣.

(٤) السابق باب: أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ح ٢٦٣٥.

الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل مرة أخرى).[١]

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (والذي نفسي بيده، لولا أن رجالا من المؤمنين، لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل).[٢]

وروى عن زيد بن خالد رضي الله عنه:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا).[٣]

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من احتبس فرسا في سبيل الله، إيمانا بالله، وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة).[٤]

وروى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يعني يقول الله) المجاهد في سبيلي هو علي ضمانٌ إن قبضته أورثته الجنة وإن رجعته رجعته بأجر أو غنيمة) [٥].

---

(١) السابق باب: الحور العين ح ٢٦٤٢.

(٢) السابق باب: تمني الشهادة ح ٢٦٤٤.

(٣) السابق باب: فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير ح ٢٦٨٨.

(٤) السابق باب: من احتبس فرسا ح ٢٦٩٨.

(٥) رواه الترمذي في السنن كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب فضل الجهاد ح ١٦٧٠وقال هذا حديثٌ غريبٌ صحيحٌ من هذا الوجه.

وروى بسنده عن فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر) [١].

وروى بسنده عن زيد بن خالد الجهني: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا في أهله فقد غزا) [٢].

وروى بسنده كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة) [٣].

وروى بسنده عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لغدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها) [٤].

وروى بسنده عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصال يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه) . [٥]

---

(١) السابق باب ما جاء في فضل من مات مرابطا ح ١٦٧١، وقال حديث فضالة بن عبيد حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) السابق باب ما جاء فيمن جهز غازيا ح ١٦٧٨ ، وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وقد روي من غير هذا الوجه.

(٣) السابق باب ما جاء في ثواب الشهيد ح ١٦٩١، وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٤) السابق ١٧ - باب في الغدو والرواح في سبيل الله ح ١٦٩٩ وقال هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٥) السابق ح ١٧١٢ وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

الجهاد في شريعة التوراة والإنجيل

١ - تقول التوراة في (سفر تثنية الاشتراع) في (الإصحاح العشرين) تحت عنوان (شرائع حصار وفتح المدن البعيدة) :

(وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولا. فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدا لكم. وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها، فإذا أسقطها الرب إلهكم في أيديكم، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التي وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم التي ليست من مدن الأمم القاطنة هنا.

أما شعوب المنطقة التي يطلق عليها (أرض الميعاد) فتقول التوراة في شأنها: (أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمدن الحثِّيِّين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، كما أمركم الرب إلهكم، لكي لا يعلموكم رجاستهم التي مارسوها في عبادة إلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم.[١] انتهى.

ويعلق شراح التوراة على هذه الفقرة فيقولون: "كيف يمكن لإله رحيم أن يأمر بإهلاك كل المراكز الآهلة بالسكان؟ لقد فعل ذلك لحماية بني إسرائيل من عبادة الأوثان، التي كانت، ولا بد، ستجلب الخراب عليهم (٢٠:١٨). وفي الحقيقة، لأن بني إسرائيل لم يقضوا تماما على هذه الشعوب الشريرة كما

---

(١) انظر: الكتاب المقدس. التوراة سفر التثنية: الأصحاح العشرين: ١٠ -١٨ ص ٣٩٢،٣٩٣.

أمرهم الله، تعرضوا باستمرار لاضطهادهم، وإلى الكثير من سفك الدماء والتخريب، أكثر مما لو كانوا أطاعوا توجيهات الله قبل كل شيء!! اهـ.

٢ـ في الباب الثالث والعشرين من (سفر الخروج) هكذا: ٢٣ (وينطلق ملاكي أمامك، فيدخلونك على الأموريين والحيثانيين والفرزانيين والكنعانيين والحوايين واليابوسيين الذين أنا أخرجهم) ٢٤ (لا تسجدن لآلهتهم ولا تعبدها، ولا تعمل كأعمالهم، ولكن خربهم تخريبا، واكسر أوثانهم).

٣. في الباب الرابع والثلاثين من (سفر الخروج) في حق الأمم الست هكذا: ١٢ (فاحذر أن تعاهد مطلقا سكان تلك الأرض الذين تأتيهم لئلا يكونوا لك عثرة) ١٣ (ولكن اهدم مذابحهم، وكسر أصنامهم، واقطع أنساكهم).

٤. في الباب الثالث والثلاثين من (سفر العدد): ٥١ (مر بني إسرائيل وقل لهم: إذا عبرتم الأردن وأنتم داخلون أرض كنعان) ٢٥ (فأبيدوا كل سكان تلك الأرض، واسحقوا مساجدهم، واكسروا أصنامهم المنحوتة جميعها، واعقروا مذابحها كلها) ٥٥ (ثم أنتم إن لم تبيدوا سكان الأرض، فالذين يبقون منهم، يكونون لكم كأوتاد في أعينكم، ورماح في أجنابكم، ويشقون عليكم في الأرض التي تسكنونها) ٥٦ (وما كنت عزمت أني أفعل بهم سأفعله بكم).

٥. في الباب السابع من سفر التثنية هكذا: ١(إذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي تدخل لترثها، وتبيد الشعوب الكثيرة من قدامك: الحيثي والجرحيثاني والأموراني والكنعاني والفرراني والحواني واليبوساني،

سبعة أمم أكثر منكم عددا وأشد منكم) ٢ (وسلمهم الرب إلهك بيدك، فاضربهم حتى إنك لا تبقي منهم بقية، فلا تواثقهم ميثاقا ولا ترحمهم) ٥ (ولكن فافعلوا بهم هكذا: خربوا مذابحهم، وكسروا أصنامهم، وقطعوا مناسكهم، وأوقدوا أوثانهم).

وفي إنجيل متى المتداول بأيدي المسيحيين ، في الإصحاح العاشر عدد ٢٤ وما بعده يقول : " لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض ، ما جئت لألقي سلاما ، بل سيفا ، فإنني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته ، من أحب أبا أو أما أكثر مني ، فلا يستحقني ، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر مني ، فلا يستحقني ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني ، فلا يستحقني ، ومن وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها " .

أهداف الجهاد (القتال) في الإسلام

إذا كان الجهاد في الإسلام بمعناه العام الواسع، أو بمعناه الضيق (القتال): فريضة في الجملة، بحيث لا يجوز للأمة أن تهمله وتتخلى عنه، وتدع نفسها مكشوفة مهددة الحصون أمام أعدائها. فما أهداف هذا الجهاد بمعناه العسكري (القتال)؟

إن أهداف الجهاد بمعنى القتال تختلف باختلاف نوعي الجهاد.

أهداف جهاد الدفع:

فهناك جهاد يعرف باسم (جهاد الدفع) أي دفع العدو إذا دخل بلدا من بلاد الإسلام، وهو جهاد المقاومة للغازي المحتل لأرض الإسلام، وهو الجهاد الذي يعتبره الفقهاء، فرض عين على أهل البلد المغزو.

فهذا الجهاد واضح الهدف، وهو مقاومة العدو الغازي بكل ما يستطاع من قوة، حتى يجلو المحتل، ويرتد الغازي إلى حيث جاء، وتحرر أرض الإسلام من الغزاة.

وهذا النوع من الجهاد: لا نزاع فيه، ولا خلاف عليه، فقد اتفقت عليه كل الشرائع والقوانين، ولا يستطيع أحد أن يرتاب في مشروعيته.

أهداف جهاد الطلب:

وأما الجهاد الذي يحتاج إلى تحديد هدفه فهو (جهاد الطلب) أي الجهاد الذي يكون فيه العدو في بلده، ولكن المسلمين هم الذين يطلبونه ويغزونه في أرضه، فلماذا يطلبه المسلمون؟ أهو تعطش منهم للدماء، ورغبة عارمة في الاعتداء؟ وبعبارة أخرى: أهو طغيان القوة الذي عرفناه في الإمبراطوريات طوال التاريخ، والتي تريد أن تبتلع كل ما تقدر عليه من حولها؟ أم هو الرغبة في احتلال أراضي الآخرين والطمع في خيراتها ومنافعها الدنيوية، ومكاسبها المادية؟

١- رد الاعتداء:

أول أهداف القتال والحرب في الإسلام: دفع الاعتداء ورده بالقوة، سواء كان هذا الاعتداء واقعا على الدين أم على الوطن والأرض.

فأما الاعتداء على الدين، فيتمثل في فتنة المسلمين عن دينهم، واضطهادهم من أجل عقيدتهم أو الوقوف في وجه الدعوة ومنعها، والصد عنها، والتعرض لدعاتها إلى حد القتل.

ومثل ذلك: الاعتداء على أرض الإسلام، ووطن المسلمين، وما يتضمن ذلك من عدوان على دماء الناس وأموالهم وممتلكاتهم وحرماتهم ومقدساتهم.

وهنا يوجب الإسلام على المسلمين: أن يقفوا في وجه الاعتداء، ويتصدوا له ليدفعوه عنهم، ويردوه عن حرماتهم بسيف القوة، وقوة السيف.

يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ١٩٠ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ١٩١ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ١٩٣ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة:

قررت هذه الآيات جملة أحكام:

١. الأمر بقتال الذين يقاتلون المسلمين، أي يبدأونهم بالقتال، على أن يكون قتالهم في سبيل الله، أي لتكون كلمة الله هي العليا.

٢. النهي عن الاعتداء بصفة مطلقة، وتعليل ذلك بأن الله لا يحب المعتدين، وهذا دليل على أنه حكم مستقر محْكم غير قابل للنسخ. كما أن فيه تنفيرا للمسلم منه، فإن كل مسلم حريص على أن يكون ممن يحبهم الله، لا ممن لا يحبهم الله.

٣. تشريع معاملة هؤلاء المعتدين على المسلمين بمثل أعمالهم من القتل والإخراج.

٤. تقرير أن الفتنة في الدين أشد من القتل، لأن القتل اعتداء على الكيان المادي للإنسان: الجسد، والفتنة اعتداء على الكيان المعنوي: الروح والعقل.

٥. تقرير حرمة المسجد الحرام الذي من دخله كان آمنا، والنهي عن قتالهم فيه، ما لم يبدأوا هم بالقتال، **فإن فعلوا**، فحرمة المؤمنين أهم من حرمة المسجد الحرام، وجاز **قتالهم وقتلهم فيه**، حتى ينتهوا.

٦. تقرير غاية القتال، وهو: **اتقاء الفتنة**، وتوطيد حرية الإيمان للناس، بكسر شوكة المتجبرين في الأرض **الذين يفتنون** الناس عن دينهم. وبهذا يكون الدين لله، يدخله من شاء بإرادته، لا يكره عليه، ولا يصد عنه من أحد.

٧ـ شرعية مقاتلة العدوان بمثله، وقد سماه اعتداء، من باب المشاكلة اللفظية، وإلا فالرد على الاعتداء في الحقيقة ليس اعتداء.[1]

---

(١) الدستور الأخلاقي للحرب في الإسلام بحث مخطوط لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي باختصار وتصرف وينظر أيضا كشف الأسرار ٤/ ١٣٦، مواهب الجليل شرح مختصر خليل ٣/ ٣٤٧، الموسوعة الفقهية ١٦/ ١٣٢، وينظر في تفسير الآيات السابقة أحكام القرآن للشافعي ٢/ ١٣ - ١٤، أحكام القرآن للجصاص ١/ ٥٢ - ٣٥٣، أحكام القران لابن العربي ١/ ١٤٣ - ١٤٤، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ١٦٦ – ١٨٧ ..

٢. منع الفتنة أو تأمين حرية الدعوة:

ومن أهداف القتال التي نص عليها القرآن: منع الفتنة في الدين، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في آيتين من كتاب الله، إحداهما في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٣]

والثانية في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الأنفال: ٣٩]

فقد حددت الآيتان كلتاهما غاية القتال بأنها: منع الفتنة (حتى لا تكون فتنة) وهذه نكرة **في سياق النفي تعم كل** فتنة يمكن أن تتصور هنا: فتنة الإنسان في نفسه، **أو في أهله**، **أو فيمن يحب** من الناس.

والفتنة في اللغة: الاختبار والامتحان، **مثل قولهم**: فتن الذهب: أي وضعه على النار ليعرف خالصه من زيفه. فالفتنة تعني: الاضطهاد والإيذاء والتعذيب لمن دخل في الإسلام حتى يرجع عن دينه. وفي هذا يقول القرآن: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: ١١٠]

وهذا الأسلوب ـ فتنة المؤمنين عن دينهم بالأذى والعذاب حتى يرتدوا عنه ـ أسلوب قديم اتبعه الكفرة والطغاة مع أهل الإيمان، كما حكى القرآن ذلك في سورة البروج التي حدثتنا عن الجبابرة الذين خدوا الأخاديد، وملأوها نارا، وألقوا فيها كل مؤمن أصر على عقيدته.

ومن هنا كانت هذه (الفتنة في الدين) أشد شيء خطرا على الإنسان، وعلى حرية اختيار الإنسان، وأن أهل القوة والجبروت يريدون أن يتحكموا في ضمائر الناس، فليس لديهم حق الإيمان بما اقتنعت به عقولهم، أو اطمأنت إليه قلوبهم، إلا بإذن الجبابرة وموافقتهم...

ولا غرو أن اعتبر القرآن (الفتنة): أشد من القتل، وأكبر من القتل، فإذا نظرنا إليها من ناحية (الكيف) فهي (أشد) أومن ناحية (الكم) فهي (أكبر).

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة:٢١٧

والخلاصة هنا: أن القتال مشروع لغاية، وهي منع الفتنة والاضطهاد في الدين، ورفع أساليب الضغط والإكراه المادي والأدبي عن الناس، وتأمين الحرية للدعوة والدعاة، ليؤمن من آمن بحريته، ويكفر من كفر باختياره [1].

---

(١) الدستور الأخلاقي للحرب في الإسلام بحث مخطوط لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي باختصار وتصرف وينظر أيضا أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٥٥ – ٣٥٦ ، أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٥٤، فتاوى السبكي ١/ ٢٢ بريقة محمودية ٣/ ١٢٧، مطالب أولي النهى ١/ ٤٦٢ - ٤٦٣..

٣. إنقاذ المستضعفين:

ومن أهداف القتال في الإسلام: إنقاذ المستضعفين من خلق الله، من ظلم الجبارين، وتسلط المستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين يستخفون بحرمات الضعفاء، ويسومونهم سوء العذاب، ويهْدرون إنسانيتهم، لأن في أيديهم القوة المادية التي تخرس الألسنة أن تتكلم، وتكره الناس على أن يسكتوا عن الحق أو ينطقوا بالباطل.

فعلى المسلمين واجب النجدة لتحرير هؤلاء المستعبدين، وإغاثة هؤلاء الملهوفين، وإنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، ولا يملكون إلا الدعاء إلى الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويهيئ لهم من ينصرهم ويأخذ بأيديهم.

يقول تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً * الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء ١٧٤ -١٧٦]

فانظر إلى هذا الأسلوب التحريضي البليغ الذي يستثير الهمم، ويحرك العزائم، (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ...؟) وجعل القتال في سبيل المستضعفين قرين القتال في سبيل الله، إذ عطفه عليه بالواو بلا فاصل. بل هو عند التأمل جزء من القتال في سبيل الله، لأن القتال إنما

يكون في سبيل الله إذا كانت الغاية: أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله هي كلمة الحق الذي يواجه الباطل، والعدل الذي يواجه الظلم. وإنقاذ المستضعفين إنما هو لإقامة عدل الله في الأرض. ولهذا قالت الآية التالية لهذه الآية: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) فقررت الآية أن شأن الذين آمنوا: أن يكون قتالهم في سبيل الله، هكذا بإطلاق وتعميم، وإن كان من أجل المستضعفين، فهو أيضا في سبيل الله. بخلاف الذين كفروا فإن لهم غاية غير غاية المؤمنين، وهي أنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت. وهو: كل ما يعظم ويعبد ويطاع طاعة مطلقة من دون الله، وهو مصدر كل شر وطغيان.

والظاهر: أن المسلمين مدعوون لإغاثة الملهوفين، وإنقاذ المستضعفين في الأرض من خلق الله، وإن لم يكونوا مسلمين، لأن رفع الظلم والأذى عن الناس مطلوب من المسلم إذا كان قادرا عليه، ما لم يكونوا محاربين للمسلمين.

بل المسلم مطلوب منه أن يرفع الأذى عن الحيوان الأعجم إذا قدر عليه، سواء كان هذا الأذى ناشئا عن ظلم إنسان له، أو أسباب طبيعية أخرى، كأن يصيبه العطش أو غيره من ألوان الأذى.[1]

٤. تأديب الناكثين للعهود:

ومن أهداف القتال في الإسلام: تأديب أولئك الذين لا يحترمون العهود، ولا يرعون المواثيق، فهم يحافظون عليها ما دامت في صالحهم، فإذا

---

(١) الدستور الأخلاقي للحرب في الإسلام بحث مخطوط لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي باختصار وتصرف وينظر أيضا أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٥٨١ -٥٨٣، البحر المحيط ٣/ ١٦٣ -١٦٤.

رأوا أنها لم تعد تخدمهم، وكان بهم قوة: ضربوا بها عرض الحائط، وداسوها بأقدامهم، ولم يرعوا لعهد حرمة، أو يرقبوا في مؤمن إلاّ أو ذمة.

وهذا النوع من البشر لا يجوز أن يترك ليعيث في الأرض فسادا، دون أن يسائله أحد أو يعاقبه على جرمه، وإلا تمادى في طغيانه، وازداد علوا في الأرض وفسادا.

من أجل هذا شرع الإسلام: أن يقاتل هؤلاء المجرمون المفسدون، تأديبا لهم، وعقابا على ما اقترفت أيديهم، جزاء وفاقا.

وقد ابتلي الإسلام بأصناف من هؤلاء الناقضين للعهود، الخائنين للأمانات، بعضهم من اليهود، الذين عقد الرسول صلى الله عليه وسلم معهم (معاهدة) أو (اتفاقية) حددت فيها الحقوق والواجبات، وألزمت الأطراف بنوع من التكافل والدفاع المشترك، ضد أي هجوم على المدينة من الخارج.

ولكن قبائل اليهود سرعان ما غلب عليهم خلق الغدر، فنقضوا عهد الرسول والمسلمين، قبيلة بعد أخرى، ابتداء ببني قينقاع، مرورا ببني النضير، وانتهاء ببني قريظة.

وهو ما اضطر الرسول وأصحابه: أن يخوضوا معهم معارك متتابعة، بعد كل غزوة من الغزوات الكبرى الأولى، فبعد بدر كانت موقعة بني قينقاع، وبعد أحد، كانت موقعة بني النضير، وبعد الأحزاب كانت موقعة بني قريظة.

وقد أشار القرآن إلى موقف هؤلاء القوم ونقضهم المستمر للعهود المبرمة بينهم وبين المسلمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ❁ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأنفال: ٥٦، ٥٧. نقل المفسرون عن ابن عباس أنه قال: هم قريظة، فإنهم نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعانوا عليه المشركين بالسلام في يوم بدر، ثم قالوا: أخطأنا، فعاهدهم مرة أخرى، فنقضوه أيضا يوم الخندق.[1]

وكما نقض اليهود عهودهم مع رسول الله والمؤمنين مرة بعد مرة: كذلك فعل المشركون إلا قليلا منهم. فاشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا، ولم يرقبوا في مؤمن إلا ولا ذمة، فاستحقوا التأديب بالسيف، عقوبة لهم على ما صنعوا.

وفي قتال هؤلاء الناكثين وتأديبهم، نزلت سورة (براءة) تمهلهم أربعة أشهر، يسيحون في الأرض، ثم يختارون لأنفسهم الموقف الذي يحددونه مع رسول الله وأصحابه. فإذا انسلخت الأشهر الأربعة التي حرم فيها القتال، وأجلوا فيها، فعلى المسلمين أن يخوضوا معهم حربا لا هوادة فيها: يقتلونهم حيث وجدوهم، ويحصرونهم، ويقعدون لهم كل مرصد ﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٨٢/١٥) طبعة المطبعة المصرية، أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٤١٩، ٤/ ١١٠، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٥٨١ -٥٨٢.

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة ١ -٥

ويحرض القرآن المسلمين على قتال هؤلاء الناكثين، فيقول: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة ٧ – ١٠] ويزيد في التحريض حين يقول: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة ١٣ - ١٥]

وقد رجح كثير من المفسرين أن آيات سورة التوبة إنما هي في المشركين الناكثين للعهود [١]

---

(١) الدستور الأخلاقي للحرب في الإسلام بحث مخطوط لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي باختصار وتصرف وينظر أيضا أحكام القرآن للشافعي ٢/ ٦٣ - ٦٤، ٢/ ٦٧ - ٦٨، أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١١٥_ ١١٩، أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٤٤٦ - ٤٤٧.

ثانيا: الوفاء بالعهود والمواثيق

الحرب في الإسلام: حرب أخلاقية، مثل السياسة والاقتصاد والعلم والعمل، فكلها لا تنفصل عن الأخلاق، على خلاف النظرة السائدة في الحضارة الغربية، فالأخلاق فيها منفصلة تماما عن الحرب، انفصالها عن العلم، وعن السياسة، وعن الاقتصاد.

ومن أهم أخلاقيات الحرب والجهاد في الإسلام: إيجاب الوفاء بالعهود لمن عاهدهم المسلمون، والالتزام بكل ما التزموا به، وتحريم الغدر بكل صوره، واعتباره من خصال النفاق، وأخلاق الكافرين. وكذلك الخيانة في كل أمانة مادية أو أدبية.

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1]

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2]

﴿... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[3]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4]

---

(١) البقرة: (٢٧).

(٢) البقرة: (١٠٠).

(٣) البقرة: (١٧٧).

(٤) آل عمران: (٧٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... ﴾[١]

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ❁ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ❁ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٢]

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٣]

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٤]

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[٥]

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٦]

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولا﴾[٧]

---

(١) المائدة: (١).

(٢) التوبة: (٧٥ -٧٧).

(٣) الرعد: (٢٥).

(٤) النحل: (٩١، ٩٢).

(٥) الإسراء: (٣٤).

(٦) المؤمنون: (٨)، المعارج (٣٢).

(٧) الأحزاب: (١٥).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾(١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ❖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(٢)

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"(٣)

ورويا في صحيحيهما عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: "أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.. إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"(٤)

وروى البخاري بسنده عن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله ﷺ "كان يدعو في الصلاة، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم، فقال له قائل:

---

(١) الأحزاب: (٢٣).

(٢) الصف: (٢، ٣).

(٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب علامة المنافق وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب خصال المنافق، وينظر كفاية المسلم كتاب الإيمان باب علامات المنافق ٣٤/١.

(٤) السابق نفسه

ما أكثر ما تستعيذ يا رسول الله من المغرم؟ قال: إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف"[1]

وروى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال: لما مات النبي ﷺ جاء أبا بكر مال من قبل العلاء بن الحضرمي، فقال أبو بكر: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت له قبله عدة فليأتنا، قال جابر: فقلت: وعدني رسول الله ﷺ أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا، فبسط يده ثلاث مرات، قال جابر: فعد في يدي خمسمائة، ثم خمسمائة، ثم خمسمائة[2]

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبي[3]

كما نهى القرآن عن الخيانة بكل ألوانها: الخيانة المادية، والخيانة المعنوية، الخيانة لله، والخيانة للناس، والخيانة في السلم، والخيانة في الحرب، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الانفال ٢٧] .

وذم القرآن الذين ينقضون عهودهم، أو يخونون أماناتهم بأشد العبارات، وأبلغ التهديدات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأذان باب الدعاء قبل السلام ومسلم كتاب المساجد ومواضع السجود باب ما يستعاذ منه في الصلاة وينظر كفاية المسلم، كتاب الاستقراض، باب من استعاذ من الدين ١٦٣/١، ١٦٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، ومسلم كتاب الفضائل باب من أمر بإنجاز الوعد وينظر كفاية المسلم ٢٥٨/٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.

وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران ٧٧]

كما ذم المشركين بقوله: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة ١٠]

ولم يقف القرآن الكريم ولا السنة المطهرة عند المواعظ النظرية فقط ، بل إن الرسول ﷺ عاش هذه الأوامر وطبقها في حياته كما عاشها أصحابه من بعده والذي يطالع سيرته ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده ومن تبعهم بإحسان يرى أن هذه الآيات وتلك الأحاديث قد اختلطت بقلوبهم وجوارحهم فلا يتعاملون إلا بها ولا يرجعون إلا إليها .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ما منعني أن أشهد بدرا ، إلا أنني خرجت أنا وأبي (حُسيلٌ) قال: فأخذنا كفار قريش، وقالوا: إنكم تريدون محمدا. فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه: لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر. فقال: "انصرفا. نفي لهم بعهدهم، ونستعين بالله عليهم".[1]

وعن علي رضي الله عنه: ما عندنا كتاب نقرأه، إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة. وفيها: "ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما (نقض عهده) فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل"[2] (أي توبة ولا فدية).

---

(١) رواه مسلم في الجهاد (١٧٨٧/٩٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجزية والموادعة (٣١٧٩) ومسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما".[1]

فهذه أحكام الإسلام وتعاليمه من كتاب الله وسنة رسوله: ترى رعاية العهود والمواثيق والاتفاقيات من صميم الدين، ومن تقوى الله التي يحبها ويحب أهلها، وترى الغدر والخيانة منافية للدين والإيمان والتقى.

فأين هذا مما يراه قادة الغرب التي يرى بعضهم المعاهدات إنما هي قصاصة ورق، يعمل بها عند الضعف لا عند القوة، وقال آخر: المعاهدات إنما هي حجة القوي على الضعيف!

وسنقف عند نموذجين من العهود والمواثيق التي عقدها النبي ﷺ

أول هذه النماذج ما يطلق عليه علماء السير دستور المدينة ، ذلكم العهد الذي عقده الرسول ﷺ مع يهود المدينة وسنذكر النص كاملا ثم نتبعه بشيء من التعقيب الموجز.

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون[1] بينهم وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) رواه البخاري في الجزية (٣١٦٦).

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) - جاء في لسان العرب: وفي الحديث: كتب بين قريش والأَنصار كتاباً فيه: المُهاجِرون من قريش على رَباعَتِهم يَتَعاقَلُون بينهم مَعاقِلَهم الأُولى أَي يكونون على ما كانوا عليه من أَخذ الديات وإِعطائها، وهو تَفاعُلٌ من العَقْل. والمَعاقِل: الدِّيات، جمع مَعْقُلة.

(٢) العاني : الأسير، وفي لسان العرب: يقال للأَسِير عَنَا يَعْنُو وعَنِيَ يَعْنى، قال: وإِذا قلت أَعْنُوه فمعناه أَبْقُوه في الإِسار. قال الجوهري: يقال عَنى فيهم فلانٌ أَسيراً أَي أَقامَ فيهم على إِسارِه واحْتَبسَ. وعَنَّاه غيرُه تَعْنِيةً: حَبَسه.

ومنه قول النبي، صلى عليه وسلم: عُودُوا المَرْضى وفُكُّوا العانيَ، يعني الأَسيرَ. وفي حديث آخر: أَطْعِمُوا الجائِعَ وفُكُّوا العانيَ، قال: ولا أُراه مأْخُوذاً إِلا من الذُّلِّ والخُضُوع. وكلُّ مَن ذَلَّ واسْتَكان وخَضَع فقد عَنَا، والاسم منه العَنْوَة؛

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل)

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[2] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا.

وإن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

---

(١) قال ابن هشام : المفرح المثقل بالدين والكثير العيال

(٢) الدسيعة جاء في العين للخليل: قال أبو ليلى: الدّسيعة: كلّ مكرمة يفعلها الرّجل. قال: ضخم الدسيعة حمّال لأثقال ورجل ذو دسيعة، أي: ذو مكرمة، وفي تاج العروس: وفي الحَدِيث: أَو ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ، أَي طَلَبَ دَفْعاً عَلَى سَبِيلِ الظُّلْمِ، فأَضافَهُ إِلَيْه، فالإِضافَةُ بمَعْنَى مِنْ، ويجوز أن يُراد بالدَّسِيعةِ العَطية: أي ابْتَغَى منهم أن يدفَعوا إليه عَطِيَّة على وجه ظُلمِهم: أي كونهِم مظلومين أو أضافها إلى ظُلمِه لأنه سببُ دَفْعِهم لها.

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسها ، ولا يحول دونه على مؤمن.

وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة. ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه وأهل بيته.

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف. وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ؛ وإن ليهود بني ساعدة ما ليهود بني عوف ؛ وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف ؛ وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا .

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

([1]) جاء في أساس البلاغة للزمخشري: أوتغه: أهلكه. وهذا مما يوتغ الدين والمروءة. ووتغ وتغاً: هلك.

وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

وإن النصر للمظلوم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة . مع البر المحض ؟ من أهل هذه الصحيفة .

قال ابن هشام : ويقال مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة .

قال ابن إسحاق : وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ. [1]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٥٠١– ٥٠٤ بتصرف يسير.

إن الرسول ﷺ كان يعلم غدر اليهود سلفا بناء على تاريخهم ، وبناء عما نزل بشأنهم من القرآن المكي ، لكنه لم يحاسبهم على نياتهم ، ولم يأخذهم بما يعلمه عنهم على الرغم من يقينه بحدوثه، لكنه عقد معهم هذه المعاهدة التي تبقيهم على دينهم ، فلا تكرههم على التخلي عن شيء مما يعتقدون، ولا تصرفهم عن شيء مما يدينون ، بل هي بمثابة اتفاقية دفاع مشترك من أهل المدينة يدافعون عنها ضد أي عدوان.

ولو وفي اليهود واحترموا العهد والميثاق الذي بينهم وبين النبي ﷺ لوفي لهم ، لكن هيهات هيهات فقد نقضوا العهود والمواثيق وكانت لكل فرقة منهم قصة من الغدر ونكس العهود حكتها كتب السيرة ، كان أول الغدر والخيانة من بني قينقاع.

قال ابن هشام : وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة ، عن أبي عون قال كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، قال فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم فقال يا محمد أحسن في موالي وكانوا حلفاء

الخزرج ، قال فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أحسن في موالي قال فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ.[1]

وكان ثاني الغدر من يهود بن النضير الذين حاولوا اغتيال القائد الأعلى للمسلمين، واليد الطاهرة التي امتدت إليهم بالعهد ، فكانت جريمتهم أشد من بني قينقاع

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري ، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، كما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين (قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه) ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد) فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، رضوان الله عليهم .

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة . فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه فقال رأيته داخلا المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٦ - ٤٧ .

حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

قال ابن إسحاق : ثم سار بالناس حتى نزل بهم .

قال ابن هشام : وذلك في شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليال ونزل تحريم الخمر

قال ابن إسحاق : فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه أن (يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها) ؟!!

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج ، منهم (عدو الله) عبد الله بن أبي ابن سلول و وديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام.[1]

أما يهود بني قريظة فكانت جريمتهم أكبر وأشد فقد تنكروا لرسول الله وتحالفوا مع المشركين من أهل مكة واستقدموهم ليستأصلوا شأفة المسلمين بعد أن أفتوا المشركين بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا وقد سجل الله عليهم شهادتهم الزائفة في الكتاب الخالد فقال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠ – ١٩١

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ۞ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۞ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۞أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۞ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ٥١ - ٥٤].

يقول ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير بن عروة بن الزبير ، ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك ، ومحمد بن كعب القرظي ، والزهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ، وغيرهم من علمائنا ، كلهم قد اجتمع حديثه في الحديث عن الخندق ، وبعضهم يحدث ما لا يحدث به بعض قالوا : إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود ، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .[1]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢١٥

أما النموذج الثاني فكان مع المشركين أنفسهم الذي آذوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحبه الكرام وقد أخرجوهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، وقد هذا من خلال صلح الحديبية

قال الإمام البخاري (رحمه الله) في صحيحه :(خرج رسول الله ﷺ ومعه ألف وثمانمائة رجل وسبعون بدنة ، فأحرم رسول الله ﷺ ومن معه من ذي الحليفة ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وساق أبوبكر بدنا ، وطلحة بدنا ، وسعد بن عبادة بدنا . وبعث عينا له من خزاعة وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه)[1]

فلما بلغ رسول الله ﷺ غدير عسفان ذات الأشطاط لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، فقال : يا رسول الله : هذه قريش سمعت بك وخرجت قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ! فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وآووني ، والله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله عليه حتى يظهرني الله .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب : (غزوة الحديبية)

وفي رواية البخاري : فقال ﷺ : أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين وإلا تركناهم محروبين [1]

قال أبوبكر : يا رسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه ، قال : امضوا على اسم الله . ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرني الحمض على طريق يخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية ، فلما بلغ ثنية المرار بركت ناقته ، فقالوا : خلأت القصواء !! فقال : ما خلأت القصواء وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . والله لا يدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها.

ثم بعثوا مكرز بن حفص بن الأحنف أحد بني عامر ابن لؤي ، فلما رآه النبي ﷺ قال : هذا رجل غادر ، فلما انتهى إلى رسول الله كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلم به أصحابه (أي رجال خزاعة) فرجع إلى قريش وأخبرهم بذلك . فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون (أي يعبدون الإله) فابعثوا الهدي في وجهه ، فلما رأى الهدي يسير عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس رجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، قد رأيت ما لا يحل صده ، الهدي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، فقالوا : اجلس لا علم لك .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب (غزوة الحديبية) ، سنن ابي داود ، كتاب الجهاد ، باب (في صلح العدو) ،

وبعث رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة ، وحمله على جمل يقال له الثعلب ، فلما دخل مكة أرادت قريش قتله فمنعه الأحابيش !! حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ، فقال : يا رسول الله! إني أخاف قريشا على نفسي وليس لي بها من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكن أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان !!

فدعاه رسول الله وبعثه إلى قريش ليخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فخرج عثمان بن عفان حتى أتى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فنزل عن دابته وحمله بين يديه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، وانطلق حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به .

فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به ، فقال عثمان : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ثم رجع عثمان .

وفي رواية الطبري : (فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل .. فلما بلغ رسول الله أن عثمان قد قتل ، قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة).

جاء في رواية البخاري : (فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى ، فإني والله لا أرى وجوها ، وإني لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك !!

فقال له أبوبكر : امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟!! فقال : من ذا ؟ قالوا : أبوبكر . قال : أما والذي نفسي بيده ، لولا يد كانت له عندي لم أجزك بها لأجبتك) !! [1]

وفي رواية أبي داود : ثم أتاه (يعني عروة ابن مسعود) فجعل يكلم النبي فكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف ، وعليه المغفر ، فضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحيته، فرفع عروة رأسه !!

فقال : من هذا ؟ قالوا المغيرة بن شعبة ، قال : أي غدر ، أولست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم

قال ابن الأثير : فقام رجل منهم يقال له : مكرز بن حفص ، فقال : دعوني آته، فقالوا : ائته ، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، أخا بني عامر بن لؤي ، إلى رسول الله ، وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ، فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله مقبلا ، قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله تكلم فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينما الصلح .[2]

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري :٥/ ٦٧٦ ، سنن ابي داود ، كتاب الجهاد ، باب: (في الصلح مع العدو)

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية .

قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو ، فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتابا ، فدعا النبي ﷺ الكاتب . فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فقال : يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟ أولسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله . ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم !!

وقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ! هذا ما صالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو ، فقال : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله اسمك واسم أبيك !! فقال رسول الله ﷺ : اكتب محمد بن عبد الله !!

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين يأمن بهذا الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى رسول الله من أصحابهم بغير إذن رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه ، وأنه لا أسلال ولا أغلال .[1]

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده :(قال رسول الله ﷺ: نعم ، من ذهب منا إليهم أبعده الله ، ومن جاءنا منهم ورددناه سيجعل الله له مخرجا) .

قال المسلمون : سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟! فبينا هم كذلك ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب : (الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب وكتابة الشروط

محمد أول ما أقاضيك عليه : أن ترده إلي ، فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، قال : فو الله إذا لا أصالحك على شيء أبدا . فقال النبي ﷺ: فأجزه لي ، قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال بلى (فافعل) قال : ما أنا بفاعل ، قال مكرز بن حفص ، بلى ، قد أجزناه لك.قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟

وفي رواية ابن حبان : فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ، فقال : يا محمد ! قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت ، قال : فجعل ينزه بتلابيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين ! يفتنوني في ديني ، فزاد الناس ذلك شرا إلى ما بهم قال عمر بن الخطاب : فأمكنت يده من السيف ليضرب به أباه ، فضن به ، وعلم بذلك رسول الله ﷺ فقال لي : يا عمر ، لعله أن يقوم في الله مقاما يحمده عليه .[1]

فقلت : ألست نبي الله حقا ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال : إني رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصري ، قلت ، أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال بلى ، قال : فأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوف به !! فقال عمر : فأتيت أبا بكر ، فقلت : يا أبا بكر ، أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢١٥/٢ - ٣١٦

أيها الرجل ، إنه رسول الله ﷺ وليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فو الله إنه على الحق .

وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد رسول الله وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم . وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فاقمت بها ثلاثا ، وأن معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغير هذا .

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ، ورجالا من المشركين ، فالذين وقعوا على هذه الاتفاقية من المسلمين هم: أبوبكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، واثنان من المشركين وهما : حويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص بن الأخيف .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير (بن أسيد الثقفي) رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين ، فقالوا العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين !! فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو!! فقال رسول الله حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا !! فلما انتهى إلى النبي قال : قتل

والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير ، فقال : يا نبي الله : قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم !!

قال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب (المسعر ما تحرك به النار من آلة الحديد) لو كان له أحدٌ . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال : وينقلب منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، واخذوا أموالهم !!

فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم ؛ لما أرسل فمن أتاه فهو آمنٌ . فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ** ﴾.[الفتح :٢٤] [١]

هذان عقدان عقدهما النبي ﷺ أولهما مع اليهود وهم الذين أخلفوا ما وعدوا ، والثاني مع المشركين وقد أخلفوا ما وعدوا حيث لا عهد لهم ولا ذمة ، وما عرف الغدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من أصحابه أبدا.

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ٢١٧ – ٢١٨ ،. صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، باب (الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحروب وكتابة الشروط)

ثالثا: الإحسان والتسامح

نعجب أشد العجب إذ نقرأ لبعض أعداء الإسلام اليوم، ولبعض أعدائه بالأمس القريب والبعيد تهجما عليه واتهاما له بأنه دين التعصب الماحق للحرية والإكراه القاضى على الاختيار والجمود المانع من التطور، وحقيقة الأمر أن الإسلام دين السماحة الذى يكفل للبشر جميعا أسباب الخير كله لأنه دين يجمع ولا يفرق ويوحد ولا يشتت ويقوى ولا يضعف ويتسامح ولا يتعصب ويتسامى ولا يهبط ويجارى الأعصار والأحداث ولا يتخلف ولا يتجمد.

ولقد بينا فى الصفحات السابقة كيف أن الإسلام حريص على أن يكون السلام هو الأصل، والحرب عمل طارئ مؤقت، وبينا كيف أن الإسلام حريص على رعاية الكرامة الإسلامية والحرب مشتعلة لهذا شرع من النظم ما يتفق مع سموه وسماحته وسن من القوانين ما يكفل التخفيف من ويلات الحرب ويحصرها فى أضيق نطاق.

وسوف نتحدث فى هذا الصفحات عن الإحسان والتسامح باعتبارهما من أهم الأسباب التى انتشر الإسلام بهما فى ربوع الأرض.

معنى الإحسان والتسامح

الإحسان في اللغة: ضد الإساءة، وهو مصدر أحسن إذا أتى بما هو حسن.

وفي الاصطلاح: الإتيان بالمطلوب شرعًا على وجه حسن.

ولقد اعتنت الشريعة الإسلامية متمثلة في القرآن الكريم والسنة المطهرة بالإحسان إلى الآخرين والعفو عنهم، في أكثر من موضع، فهيا نتدبر هذه الآيات القرآنية الكريمة.

يقول الله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾ [البقرة ٨٣] ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة ١١٢] ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة ١٩٥] ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران ١٣٤] ﴿فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران ١٤٨] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء ١٢٥] ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء ١٢٨] ﴿فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ

جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة ٨٥] ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة ٩٣] ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف ٥٦] ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ١٠٠] ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة ١٢٠] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ليونس ٢٦] ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود ١١٥] ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف ٢٢] ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل ٣٠] ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل ٩٠] ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل ١٢٨] ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ

وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً ﴾ [الإسراء ٧] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف ٣٠] ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج ٣٧] ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٧٧] ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت ٦٩] ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان ٣] ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان ٢٢] ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات ٨٠] ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات ١٠٥] ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر ١٠] ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر ٣٤] ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف ١٢] ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم ٣١] ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن ٦٠] ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات ٤٤] وفي السنة روي البخاري وغيره بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس، إذ أتاه

رجل يمشي، فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: (الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر). قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: (الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان). قال: يا رسول الله **ما الإحسان؟ قال: (الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**. قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها، فذاك من أشرطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام**﴾. ثم انصرف الرجل، فقال: (ردوا علي). فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا، فقال: (هذا جبريل، جاء ليعلم الناس دينهم).[1] وروى مسلم وغيره بسنده عن (شداد بن أوس). قال:إثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال (**إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة. وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح. وليحد أحدكم شفرته. فليرح ذبيحته**).[2]

وقد ضمّن صلى الله عليه وسلم جوابه عن الإحسان بيان السبب الحافز على الإحسان لمن لم يبلغ هذه الدرجة العالية، والمنزلة الرفيعة، ألا وهو: تذكير فاعل العبادة بأن الله مطلع عليه، لا يخفى عليه شيء من أفعاله، وسيجازيه على ذلك، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ولا شك أن العاقل إذا تذكر أن الله رقيب عليه أحسن عمله، رغبة فيما عند الله من الثواب للمحسنين، و

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير باب إن الله عنده علم الساعة .

(٢) صحيح مسلم: أبواب الديات عن رسول الله ﷺ باب: ما جاء في النهي عن المثلة.

خوفًا من العقاب الذي أعده للمسيئين : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق:٣٧].

والإحسان مطلوب في العبادات والمعاملات، فأي عبادة افترضها الله على العبد فإن عليه أن يأتي بها على الوجه الذي رضيه سبحانه من إخلاصها له، وموافقتها لشريعة نبيه ﷺ، وكما أن الإنسان يحب لنفسه أن يعامله غيره معاملة حسنة، فإن عليه أن يحسن إلى غيره، ويعامله بمثل ما يحب أن يعامل به هو.

والإحسان مطلوب في كل وقت ومع كل إنسان بل مع الحيوان والطير والجماد وكل ما يحيط بالإنسان من هذا الكون فقد أمر النبي ﷺ وسلم بالرفق والرحمة والإحسان إلى الحيوان والطير في أكثر من موضع، ونهى المسلم أن يسيء إلى الماء أو الهواء أو الأرض بشيء ينجسها أو يذهب الانتفاع بها.

وما يعنينا هنا في هذه العجالة أن نقف على بعض معاملات النبي ﷺ وصحبه الكرام مع غير المسلمين ، فهل كان يحملهم الاختلاف في الدين على العداوة والبغضاء وتغليب الانتقام والثأر على العفو والإحسان ؟

الذي يطالع سيرة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم يرى أن ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أقوال نظرية عاشها الرسول ﷺ وصحبه الكرام مواقف عملية.

فقد عاش النبي ﷺ الإحسان والعفو في كل لحظة من لحظات عمره ، عاشه مع أعدائه كما عاشه مع أصحابه وأحبابه سواء بسواء .

عن أبي هُريرةَ قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، (أي ليدفعوه بالعنف) فقال النبي ﷺ : « دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء (السجل: الدلو الممتلئة بالماء) فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين »[1]

وعن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال للأشج من وفد عبد القيس: « إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة »[2]

وعن أنس قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فأدركه أعرابي، فجذبه بردائه جذبة شديدة جذبته، ثم قال: يا محمد ! مر لي من مال الله الذي عندك ! فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء[3]

جاءت (ذهيبة) من اليمن فوزعها النبي ﷺ على بعض المؤلفة قلوبهم، فقام رجال فقال: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ! فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء؟! » فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله ! اتق الله ! قال: « ويلك ! أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟! » ثم ولى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول الله ! ألا أضرب عنقه؟ قال: « لا، لعله أن يكون يصلي ». فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه! قال رسول الله ﷺ :« إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم»[4]

---

(١) رَواهُ البُخاريُّ والتّرمذيُّ والنسائيُّ.

(٢) رَواهُ مسلم والتّرمذيُّ، كما في صحيح الجامع الصغير (٢١٣٦).

(٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (٦٢٩).

(٤) رَواهُ مسلم في الزكاة (١٤٤).

وفي فتح مكة، قال لأهلها من المشركين - وقد ناله منهم ما ناله من أذى واضطهاد: « يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم؟ » قالوا خيرًا ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ! قال: « فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم ! اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1]

إن التسامح الديني والفكري له درجات ومراتب. فالدرجة الدنيا من التسامح أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك، بحيث إذا أبى حكمت عليه بالموت أو العذاب أو المصادرة أو النفي أو غير ذلك من ألوان العقوبات والاضطهادات التي يقوم بها المتعصبون ضد مخالفيهم في عقائدهم.. فتدع له حرية الاعتقاد، ولكن لا تمكنه من ممارسة واجباته الدينية التي تفرضها عليه عقيدته، والامتناع مما يعتقد تحريمه عليه. والدرجة الوسطى من التسامح: أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمته. فإذا كان اليهودي يعتقد حرمة العمل يوم السبت فلا يجوز أن يكلف بعمل في هذا اليوم. لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه.

وفي (غاية المنتهى) وشرحه، من كتب الحنابلة: "ويحرم إحضار يهودي في سبته، وتحريمه باق بالنسبة إليه، فيستثنى شرعًا من عمل في إجازة، لحديث النسائي والترمذي وصححه: "وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت" اهـ[2]

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ٢/٢٧٤.

(٢) مطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى ٢ / ٦٠٤، دقائق أولي النهى لشرح المنتهى ١/ ٦٦٩.

وإذا كان النصراني يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد فلا يجوز أن يمنع من ذلك في هذا اليوم. والدرجة التي تعلو هذه في التسامح: ألا نضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله في دينهم أو مذهبهم. وإن كنت تعتقد أنه حرام في دينك أو مذهبك. وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة. إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح. فقد التزموا كل ما يعتقده غير المسلم أنه حلال في دينه، ووسعوا له في ذلك، ولم يضيقوا عليه بالمنع والتحريم. وكان يمكنهم أن يحرموا ذلك مراعاة لشريعة الدولة ودينها ولا يتهموا بكثير من التعصب أو قليل، ذلك لأن الشيء الذي يحله دين من الأديان ليس فرضاً على أتباعه أن يفعلوه، فإذا كان دين المجوسي يبيح له الزواج من أمه أو أخته فيمكنه أن يتزوج من غيرهما ولا حرج. وإذا كان دين النصراني يحل له أكل الخنزير، فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخنزير، وفي لحوم البقر والغنم والطير متسع له. ومثل ذلك الخمر، فإذا كانت بعض الكتب المسيحية قد جاءت بإباحتها أو إباحة القليل منها لإصلاح المعدة، فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحي الخمر.

فلو أن الإسلام قال للذميين: دعوا زواج المحارم، وشرب الخمر، وأكل الخنازير، مراعاة لشعور إخوانكم المسلمين، لم يكن عليهم في ذلك أيُّ حرج ديني، لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا في دينهم منكرًا، ولا أخلوا بواجب مقدس.

ومع هذا لم يقل الإسلام ذلك، ولم يشأ أن يضيق على غير المسلمين في أمر يعتقدون حله، وقال للمسلمين: اتركوهم وما يدينون.[1]

شهادة التاريخ: وقد حفل الواقع التاريخي للأمة الإسلامية في مختلف عصورها، وشتى أقطارها، بأروع مظاهر التسامح، الذي لا يزال الناس يتطلعون إليه إلى اليوم في معظم بقاع الأرض فلا يجدونه.

ولم يكن هذا في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين فحسب بل امتد إلى ما بعد ذلك في العصر الأموي والعصر العباسي، ففي العصر الأموي: كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير. ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ، والأَرِقَّاء، والشيوخ، والعَجَزة، والعُمى، والفقراء، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، أو إن شئت فقل لا يُقبلون فيها، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها ٢,٥ ٪ من الدخل السنوي.

وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه

---

(١) غير المسلمين في المجتمع المسلم لفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي

لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم[1] العصر العباسي.: وفي العصر العباسي - عصر ازدهار الحضارة الإسلامي - ومكانة أهل الذمة فيه، فيكفينا مؤنة الحديث فيه صفحة أخرى ننقلها من كتاب(الإسلام وأهل الذمة)[2] وهو يعتمد فيما يقرره على المراجع التاريخية الأساسية، أو على كتابات المستشرقين أنفسهم. يقول:. اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء، مثل (جرجيس بن بختيشوع) طبيب الخليفة العباسي (أبى جعفر المنصور)، وقد وثق الخليفة فيه وأكرمه، ومن هؤلاء (جبرائيل بن بختيشوع) طبيب (هارون الرشيد). الذي قال الرشيد عنه: كل من كانت له حاجة إلى فليخاطب بها جبريل؛ لأني أفعل كل ما يسألني فيه، ويطلبه مني. وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم شهرياً. ومن هؤلاء أيضًا (ماسويه) الذي كان الرشيد يجرى عليه ألف درهم سنوياً، ويصله كل سنة بعشرين آلفاً). وأشاد(ترتون): بتسامح المسلمين فقال: (والكُتّاب المسلمون كرماء في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم، حتى ليسمون (حنين بن إسحق)برأس أطباء عصره، وهبة الله بن تلميذ بـ(أبوقراط) عصره، وجالينوس دهره. وكان (بختيشوع بن جبرائيل) ينعم بعطف الخليفة (المتوكل)، حتى إنه كاد يضاهيه في ملابسه وفي حسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة. ومباراته في الطيب والجواري والعبد. ولما مرض (سلمويه) بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى

(١) قصة الحضارة جـ ١٣ ص١٣١. نقلا عن غير المسلمين في المجتمع المسلم باختصار وتصرف.

(٢) الإسلام وأهل الذمة ص ١٧٠ للدكتور الخربوطلي نقلا عم غير المسلمين باختصار وتصرف.

القصر، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جرياً على عادة النصارى، وامتنع (المعتصم) يوم موته عن أكل الطعام.

أما (يوحنا بن ماسويه) فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ الرشيد إلى المتوكل وكان لا يغيب قط عن طعامهم، فكانوا لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته، ومن ثم لم يكن هناك أدنى كُلفة بينه وبين الخليفة المتوكل، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين.

واشتهر من بين أهل الذمة كثير في ميدان الآداب والفنون، فيقول (ترتون): ظلت علاقات العرب برعاياهم في ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، بل إن كثير من هذه المودة استمر بعد هذه الفترة، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالاً من غير المسلمين.[1]

ويذكر فضيلة الشيخ (الدكتور يوسف القرضاوي) بعض حقوق أهل الذمة نوجزها فيما يلي:

١ - **الحماية من الاعتداء الخارجي:** فأول هذه الحقوق هو حق تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. وهذه الحماية تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجي، ومن كل ظلم داخلي حتى ينعموا بالأمان والاستقرار. أما الحماية من الاعتداء الخارجي، فيجب لهم ما يجب للمسلمين، وعلى الإمام أو ولي الأمر في المسلمين، بما له من سُلطة شرعية، وما لديه من قوة عسكرية، أن يوفر لهم هذه الحماية، قال في "مطالب أولي النهى" - من كتب الحنابلة - : "يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع مَن

---

(١) أهل الذمة في الإسلام ص ٢٥٦ نقلا عن غير المسلمين في المجتمع المسلم باختصار وتصرف.

يؤذيهم، وفك أسرهم، ودفع مَن قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب، بل كانوا بدارنا، ولو كانوا منفردين ببلد"وعلل ذلك بأنهم: "جرت عليهم أحكام الإسلام وتأبد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين" [١]

وينقل الإمام (القرافي المالكي) في كتابه "الفروق" قول الإمام الظاهري (ابن حزم) في كتابه "مراتب الإجماع": "إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالقراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة". وحكى في ذلك إجماع الأمة.

وعلق على ذلك القرافي بقوله: "فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونًا لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم". [٢]

٢ - **حماية الدماء والأبدان**: وحق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمائهم وأنفسهم وأبدانهم، كما يتضمن حماية أموالهم وأعراضهم .. فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين، وقتلهم حرام بالإجماع؛ يقول الرسول ﷺ"من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا" [٣].

ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على أن قتل الذمي كبيرة من كبائر المحرمات لهذا الوعيد في الحديث.

---

(١) مطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى ٢ / ٦٠٣، دقائق أولي النهى لشرح المنتهى ١/ ٦٦٨.

(٢) أنوار البروق في أنواع الفروق للقرافي ٣ / ١٤ – ١٥.

(٣) رواه أحمد والبخاري في الجزية، والنسائي وابن ماجة في الديات من حديث عبد الله بن عمرو. والمعاهد كما قال ابن الأثير: أكثر ما يطلق على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب

٣ - حماية الأموال ومثل حماية الأنفس والأبدان حماية الأموال، هذا مما **اتفق** عليه المسلمون في جميع المذاهب، وفي جميع الأقطار، ومختلف العصور. **روى أبو** يوسف في "الخراج" ما جاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران: "ولنجران **وحاشيتها** جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على أموالهم وملتهم **وبيَعهم، وكل** ما تحت أيديهم من قليل أو كثير". وفي عهد عمر إلى أبي **عبيدة بن الجراح** رضي الله عنهما أن: "امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار **بهم، وأكل أموالهم إلا** بحلها".

٣ - **حماية الأعراض :** ويحمي الإسلام عرض الذمي وكرامته، كما **يحمي عرض المسلم وكرامته**، فلا يجوز لأحد أن يسبه أو يتهمه بالباطل، **أو يشنع عليه بالكذب، أو يغتابه**، ويذكره بما يكره، في نفسه، أو نسبه، **أو خَلْقِه، أو خُلُقه** أو غير ذلك مما يتعلق به. يقول الفقيه الأصولي المالكي **شهاب الدين** القرافي في كتاب "الفروق": "إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقًا علينا، **لأنهم** في جوارنا وفي خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة، فقد ضيَّع ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام"[1]

وفي الدر المختار - من كتب الحنفية -: "يجب كف الأذى عن الذمي وتحرم غيبته كالمسلم". ويعلق العلامة (ابن عابدين) على ذلك بقوله: لأنه بعقد الذمة وجب له ما لنا، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته، بل قالوا: إن ظلم الذمي أشد.[2]

---

(١) أنوار البروق في أنواع الفروق للقرافي ٣ / ١٤ - ١٦.

(٢) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٤ / ١٧١ - ١٧٢

٤ - **التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر** : وأكثر من ذلك أن الإسلام ضمن لغير المسلمين في ظل دولته، كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونه، لأنهم رعية للدولة المسلمة وهي مسئولة عن كل رعاياها. وهذا ما مضت به سُنَّة الراشدين ومَن بعدهم. ففي عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق، وكانوا من النصارى: "وجعلت لهم، أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيّاً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله" . وكان هذا في عهد(أبي بكر الصِّدِّيق)، وبحضرة عدد كبير من الصحابة، وقد كتب خالد به إلى الصِّدِّيق ولم ينكر عليه أحد، ومثل هذا يُعَد إجماعًا ورأى (عمر بن الخطاب) شيخًا يهوديًا يسأل الناس، فسأله عن ذلك، فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأتاه إلى ذلك، فأخذه وذهب به إلى خازن بيت مال المسلمين، وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم، وقال في ذلك: "ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شابًا، ثم نخذله عند الهرم"![1]

٥ - **حرية التدين** : ويحمي الإسلام فيما يحميه من حقوق أهل الذمة حق الحرية. وأول هذه الحريات: حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينه ومذهبه، لا يُجبر على تركه إلى غيره، ولا يُضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام. وأساس هذا الحق قوله تعالى: (**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**)، (البقرة: ٢٥٦) وقوله سبحانه: (**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**)؟ (يونس: ٩٩). قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: أي لا تُكرِهوا أحدًا على

(١) أبو يوسف في الخراج ص ١٤٤.

الدخول في دين الإسلام، فإنه بَيِّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه. وسبب نزول الآية كما ذكر المفسرون يبين جانبًا من إعجاز هذا الدين، فقد رووا عن (ابن عباس) قال: "كانت المرأة تكون مقلاة قليلة النسل فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهَوِّدَه (كان يفعل ذلك نساء الأنصار في الجاهلية) فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقال آباؤهم: لا ندع أبناءنا (يعنون: لا ندعهم يعتنقون اليهودية) فأنزل الله عز وجل هذه الآية: (لا إكراه في الدين) .

٦ - **حرية العمل والكسب** : لغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين. فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة في البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عقد الربا، فإنه محرم عليهم كالمسلمين وقد رُوِي أن النبي ﷺ كتب إلى مجوس هجر: "إما أن تذروا الربا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله". كما يمنع أهل الذمة من بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين، وفتح الحانات فيها لشرب الخمر وتسهيل تداولها أو إدخالها إلى أمصار المسلمين على وجه الشهرة والظهور، ولو كان ذلك لاستمتاعهم الخاص، سداً لذريعة الفساد وإغلاقاً لباب الفتنة. وفيما عدا هذه الأمور المحدودة، يتمتع الذميون بتمام حريتهم، في مباشرة التجارات والصناعات والحِرَف المختلفة . وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شَتَّى الأزمان . وكادت بعض المهن تكون مقصورة عليهم كالصيرفة والصيدلة وغيرها . واستمر ذلك إلى

وقت قريب في كثير من بلاد الإسلام . وقد جمعوا من وراء ذلك ثروات طائلة معفاة من الزكاة ومن كل ضريبة إلا الجزية ، وهي ضريبة على الأشخاص القادرين على حمل السلاح ...

٧ - **تولي وظائف الدولة** : ولأهل الذمة الحق في تولي وظائف الدولة كالمسلمين . إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمامة ورئاسة الدولة والقيادة في الجيش، والقضاء بين المسلمين، والولاية على الصدقات ونحو ذلك. فالإمامة أو الخلافة رياسة عامة في الدين والدنيا ، خلافة عن النبي ﷺ ولا يجوز أن يخلف النبي في ذلك إلا مسلم، ولا يعقل أن ينفذ أحكام الإسلام ويرعاها إلا مسلم.

وقيادة الجيش ليست عملاً مدنياً صرفاً ، بل هي عمل من أعمال العبادة في الإسلام إذ الجهاد في قمة العبادات الإسلامية. والقضاء إنما هو حكم بالشريعة الإسلامية ، ولا يطلب من غير المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به.

ومثل ذلك الولاية على الصدقات ونحوها من الوظائف الدينية. وماعدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة إذا تحققت فيهم الشروط التي لا بد منها من الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة . بخلاف الحاقدين الذين تدل الدلائل على بغض مستحكم منهم للمسلمين، كالذين قال الله فيهم: **﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾** (آل عمران: ١١٨).[١]

---

(١) غير المسلمين في المجتمع المسلم باختصار وتصرف

فهرس الموضوعات